

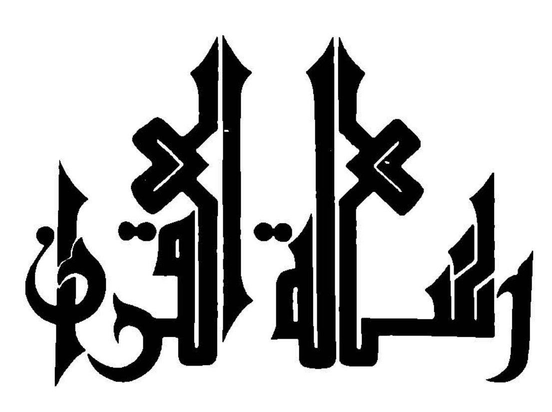
رسالة القرآن

نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية

• العدد السادس عشر • شوّال، ذوالقعدة، ذوالحجة ١٤١٤هـ

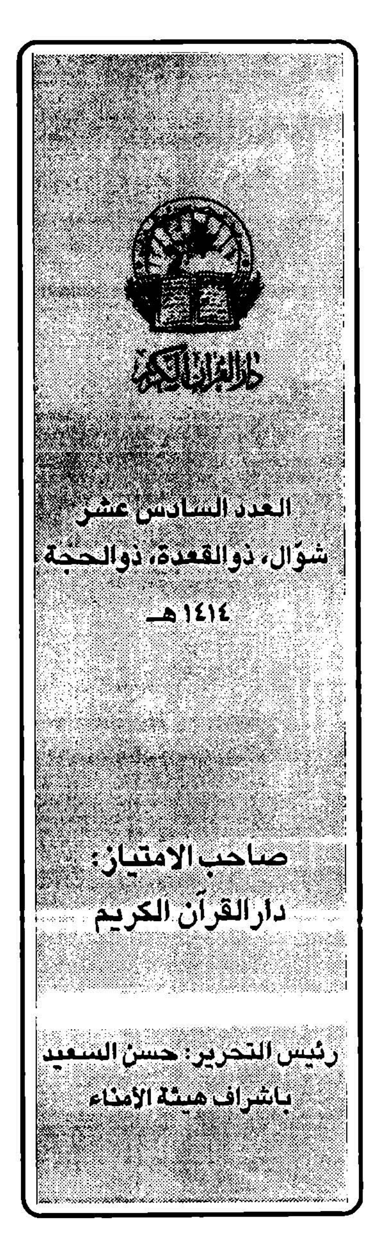
بسم الله الرحمن الرحيم
الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم
نزل عليك الكتب بالحق مصدقا
لما بين يديه وأنزل التورية والإنجيل
من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان

• علوم القرآن: رأي في المنهج والتجديد
• اعجاز القرآن... والاطار البياني
• منهج السيوري في تفسير الأحكام
• مع أهل البيت في القرآن الكريم
• الحرية المنشودة على ضوء القرآن
• الشورى في القرآن والحديث
• الركائز الأربع في بناء المجتمع القرآني
• آخر محاولات الاستشراق لتشويه القرآن



نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية

تصدرها دارالقرآن الكريم



العدد السادس عشر

شوّال، ذوالقعدة، ذوالحجة

١٤١٤هـ

صاحب الامتياز:

دارالقرآن الكريم

رئيس التحرير: حسن السعيد

باشراف هيئة الأمناء

المراسلات:

الجمهورية الاسلامية الايرانية

قم ـ دارالقران الكريم

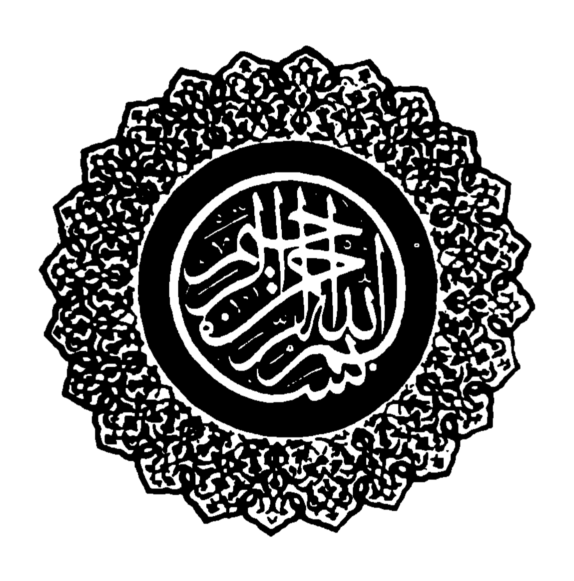
ص.ب ٣٧١٨٥/١٥١

- النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية
- ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها.
- النشرة غير ملتزمة باعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

الثمن: ١٠٠ تومان أو ما يعادلها

ليتوكرافي: حميد ـ قم المطبعة: باقرى

المحتويات





تعالوا نتعاون على البرّ والتقوى

﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾ (المائدة: ٥)

يعتبر التعاون والمشاركة من اهم الضروريات الحياتية للانسان. وبدونها لايمكن للمجتمع البشرى أن يصل الى اهدافه المنشودة، وخدمة البشرية، وبذلك يسقط المجتمع فى هارية النسيان تدريجياً.

لقد اعتاد الانسان أن يبحث عن الوسائل الصحيحة لانشاء سعادته ودوام بقائه، وقد علم انه لايمكن الوصول الى هذه الامنية الا بالطهارة والتقوى والاخلاق الحسنة. لذا فقد سعى دائماً الى استخلاص تعاليمه من البرامج الالهية التى اوكلها اللّه تعالى للانبياء، وكذلك من محيطه الاجتماعي الذي دأب على تنقيته من الشوائب والملوثات. ان العوامل السيئة مثل الظلم والجور والفساد والتعالي والاستبداد و الأنانية وسوء التصرف والمصلحية والاعتداء على حقوق الاخرين وكل ما يعتبر صغيراً و حقيراً في انظار البعض، انما هي اسباب حقيقية تأخذ على عاتقها هدم المجتمع الانساني، وتحطيم قدراته بالكامل.

يقول الرسول الاعظم(ص):

«مثل الناس كقوم ركبوا سفينة، فأخذ كل منهم محلّه، فقام أحدهم يثقب مكانه، فاعترضوا عليه. فقال: لاعليكم انما هو مكاني. فان أخذوا على يده نجا و نجوا، و ان تركوه هلك و هلكوا».

فقد يوجّه الكثير من بسطاء العقل، و سذّج الفهم، ضربات موجعة الى مجتمعهم، سواء كانت تلك

الضربات اخلاقية على شكل الخرافات، او اجتماعية، وغير قابلة للاصلاح، ممّا يسبب لذلك المجتمع خراباً قد يصعب ترميمه فيما بعد.

وهل الظروف التي تعيش فيها الجمهورية الاسلامية وكل قوى الاستكبار والكفر تعمل ضدها لقلع جذورها، وبالمقابل، الاتحاد والتضامن الاجتماعي الذي يملكه الشعب الايراني للدفاع عن ثورته، اكبر ثورة بعد الرسل كافة، الا نموذجاً للفريضة الالهية وهي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واختيار الطريق الصحيح للوصول الى الاهداف السامية؟

وهل بقي لنا طريق آخر سوى الدفاع عن مقدساتنا العليا، في مقابل عصر الوحشية المسمى عصر المدنية في الغرب، بل بتعبير أدق واجمل كما ذكر قائد الثورة الاسلامية: «هجوم مباغت، وواسع ودنيء ضد اصولنا الاخلاقية؟»

ان مسألة الامر بالمعروف و النهي عن المنكر هي وحدها الكفيلة. لادامة المجتمع الاسلامي وصموده بوجه كل التحديات الثقافية المتعفنة للغرب ومرضى النفوس.

ويصوّر لنا القرآن الكريم، أن من اعظم الخصوصيات للمجتمع الاسلامي، والذي يجعل من المسلمين مرفوعي الراس اسياداً على العالم، هي مسألة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن اذا ما عَمِلَ به كل واحد منا دون استثناء او مكابرة. فمن الناس من يدعو الاخرين الى الصلاح والتقوى ومساعدة الفقير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أولى بهذا الاصلاح وذلك النهي. فذلك منافق كذّاب وان بدا شريفاً، وهو كالارضة تاكل و تنخر في الخشب، وان بدا مسالماً وديعاً.

فهو يدعو الناس الى الاعتصام بالفضيلة، وهو غارق في الرذيلة من قمة رأسه الى أخمص قدميه، ويدعو الناس الاخرين الى الصدق والوفاء بالعهود والاقوال وهو كذّاب اشر. وقد قال عنه الرسول(ص): علامات المنافق ثلاث: «اذا قال كذب واذا وَعَدَ أخلف، واذا اؤْتُمِنَ خان». يَخُطُّ بقلمه كلمة الصدق والوفاء وهو لايعرف منها الا شكلها وحروفها.

فما اكثر الداعين الى المعروف وهُم أَحقّ بارتداء ذلك اللّباس.

يقول الامام الباقر(ع):

«ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تُقام الفرائض وتأمن المذاهب وتحلُ المكاسب وتُرَدّ المظالم و تُعَمَّرُ الارض و يُنْتَصَفُ من الاعداء و يستقيم الأمر».

ولهذا دعا الرسول الاكرم(ص) قائلاً: «من أمر بالمعروف و نهى عن المنكر فهو خليفة اللّه في أرضه وخليفة رسول اللّه و خليفة كتابه».

لقد عظمت مهمتنا بعد انتصار الثورة الاسلامية وتشكيل حكومة شعبية اسلامية بعد تحمّل المشاقّ والتعذيب، والجهاد والتضحية من قبل الشعب الايراني المسلم، وفي ظلّ الهداية والقيادة

النبوية والحكيمة للقائد الكبير وفقيد الثورة الاسلامية الامام الخميني(قدس الله نفسه الزكية)، وذلك من خلال تثبيت أُسس و اركان الاحكام الاسلامية.

والان وبعد استقرار النظام الاسلامي العزيز في بلادنا، علينا ان نسعى الى الاستفادة من امكاناتنا وطاقاتنا لتعريف العالم بثورتنا كما نعلمها نحن و ندرك خصوصياتها.

اننا اليوم، في أمسّ الحاجة الى تحولات وتغييرات داخلية في الأساليب الخاصة بالادارة، وبالخصوص في المجالات الثقافية والاخلاقية والاقتصادية. صحيح أننا خطونا خطوات كبيرة حتى ألان في شتى الأمور، وطرحنا الكثير من البرامج ولازالت هناك برامج تحت الدراسة، الا أن انجازاتنا لاتعتبر شيئاً يذكر ازاء التحولات السريعة في عالم اليوم والمؤامرات الدولية التي تُحاك ضد الاسلام وضد التعاليم الفكرية العالية التي جاءت بها الثورة الاسلامية.

نحن نواجه اليوم خطراً مباغتاً للثقافة العالمية الغارقة في الوحل المادي في الغرب، في الوقت الذي يعيش معظم افراد الامة في فقر مُدقع وغير قابل للاصلاح. ان هذا الخطر، وخصوصاً اثناء الاعلام الكبير و الحاقد للمكبّرات الاستعمارية والشائعات المخيّبة للامال، هذا الخطر يوجع ويؤلم قلوب عاشقي الثورة الاسلامية، ويُحيّرهم.

ان الزحف البطيء للاستهتار والابتعاد عن القيم الاصيلة الشعبية والدينية وترويج الاشاعات الخاصة بمظاهر الثقافة المادية تحت شعار الفن والادب و... اخماد روح الفداء والايثار، وتنامي روح المنفعة وعبادة المال، وطلب التكاثر في النسل وعمليات التجمّل والتكلّف، كل ذلك يتطلّب يقظة ونهوض مُحبّي الثورة اكثر فاكثر.

انّ ترك عملية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم العناية بهاتين الفريضتين تجرّ وراءها خسارات وضائعات لايمكن تعويضها، وقد وصفها الرسول الاكرم(ص) كما يلي:

«أُؤمروا بالعروف وانهَوا عن المنكر، والا فان الله سبحانه سيسلّط عليكم ظالماً لايوقّر كبيركم ولايرحم صغيركم، فيدعوا صلحاؤكم واتقياؤكم، فلا يُستجاب لهم، ويستعينون بالله ولايُعينهم، ولاتقبل منهم توبة، ولايُغفر لهم ابداً».

فاذا زالت حساسية افراد المجتمع تجاه الفساد، وضَعُفَت الرقابة العامة عن المجربات والحوادث الاجتماعية وطريقة تطبيق واجراء القوانين واللّوائح، وسلّمت مكانها الى التنازع والفُرقَة، فسوف تخرج الامور عن سيطرة الافراد الصالحين ويصبح المجتمع مُسخّراً بيد حفنة من الخبثاء والوصوليين والمتسلّقين اكتاف الغير لبلوغ اهدافهم.

فكم من مسؤول سُلّمَ مؤسسة كبيرة أُسّست من أجل خدمة المجتمع، فيديرها حسب هواه، و يُمارس مصالحه الشخصية والفردية من خلالها دون الاهتمام بمصالح أفراد تلك المؤسسة، لابساً

لباس التقوى ومدّعياً النزاهة والحرص، ناهياً غيـره عن الكذب وهو أستاذ فيه، يأمرهم بايفاء العهود وهو سيّد مَن يُخلف تلك العهود، ضارباً كل موازين العقل والامانة والاخلاص عرض الحائط، جاعلاً مصلحته فوق كل اعتبار، وهو كما قال عنه القرآن الكريم ﴿كذّاب اشر﴾ و﴿منافق﴾ و ﴿المنافقون في الدّرك الأسفل من النار﴾.

يقول اميرالمؤمنين علي عليه السلام:

«وما اعمال البِرّ كلّها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الا كنفثة في بحر لُجّيّ».

وعلى المجتمع الاسلامي أن يكون كما قال الله تعالى:

﴿وَلتكُن منكم أمة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروفِ وينهَونَ عن المنكرِ واولئك هم المفلحون﴾. (آل عمران: ١٠٤)

نعم هذه هي واجباتنا تجاه النعمة الكبيرة، الا وهي الجمهورية الاسلامية، علينا أن نطبّق اوامر الله سبحانه لنكون كما وصفنا الله:

﴿الذين ان مكنّاهم في الارض اقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروفِ ونَهَوا عن المنكر ولِلّهِ عاقبةُ الأمور﴾. (الحج: ٤١)

* * *

التحرير

أعجاز القرآن والاطار البياني
التقديم لدراسة الناصلة نموذجاً

الدكتور رشيد بلحبيب

لقد تحدثت مصادر الدراسات القرآنية والبلاغية وكتب التفسير عن وجوه الاعجاز في القرآن وحصرتها في سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة في الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقيامه بكل معجزة.(١)

وحاولت معظم الدراسات البلاغية قديمها وحديثها ابطال تلك المذاهب واثبات الاعجاز بالفصاحة، يقول الرازي :«ولما بطلت هذه المذاهب؛ ولابد له من امر معقول حتى يصح التحدي به، ويعجز الغير عنه، ولم يبق وجه معقول في الاعجاز سوى الفصاحة؛ علمنا ان الوجه في كون القرآن معجزا هو الفصاحة»(٢)

وقال الزملكاني في المعني نفسه : واذا بان بطلان هذه الاقسام تعين القسم الرابع وهو ان يكون الاعجاز راجعا الي ماقدمناه من توخي معاني النحو واحكامه في النظم، بأن يوقع كل فن في رتبته العليا في اللفظ والمعنى الافرادي والتركيبي»(٣)

واذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لاترى شيئاً من الألفاظ افصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولاترى نظماً أحسن تاليفا وأشدّ تلاؤماً و تشاكلاً من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي الى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها... واعلم أن القرآن صار معجزاً لانه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التاليف مضمنا أصح المعاني.(٤)

ولما ثبت أن عجز العرب أنما كان من

المزايا التي ظهرت لهم في نظم القرآن والبدائع التي راعتهم في مبادئ الآيات ومقاطعها.. وجب على العاقل أن يبحث عن تلك المزايا والبدائع ماهي؟ وكم هي؟ ولا يمكن ذلك الا بالبحث عن حقيقة المجاز والحقيقة والاستعارة والتشبيه والتمثيل، وحقيقة النظم والتقديم والتأخير... وسائر وجوه المحاسن المعتبرة في النظم و النثر.[٥]

ولاشك أن هذه المزايا راسخة في التراكيب يقول ابن الأثير: «ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيثُ انفرادُها قد استعملتها العرب ومَن بعدهم، ومع ذلك فانه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه وليس ذلك الا لفضيلة التركيب».[٦]

ان المسألة الأساسية التي يعود اليها نظر البلاغيين في الاعجاز ــ وخاصة الجرجاني ــ هي تحديد مكانة المزية في القول أو في الأقوال القرآنية... واعجاز القرآن يعني في نهاية الأمر تبيين الفروق بين القول القرآني والأقوال الأخرى، وتبيين الفروق يقوم على أساس توضيح الصفات الجديدة التي التبست بالتراتيب اللفظية النحوية الراجعة أصلا الى واضع اللغة فجعلت فيها المزية التي يستحيل أن تدانيها مزية من صنع البشر.[٧]

ولذلك كان عبدالقاهر الجرجاني على مرمى خطوات قصار من الزعم بأن القرآن الكريم بوصفه كتاباً أدبيا أبدع في ذات النحو وخلق أنظمة خاصة وسلك الى المعاني طرائق نحوية لم يكن للأدب بها عهد[٨] من دقة متناهية في انزال الكلمات منازلها وبراعة في استغلال معطيات التقديم النحوي والدلالي ومشاكلة رؤوس الآي، حتى أمكن القول بأن التقديم مظهر من مظاهر الاعجاز، يقول الزركشي: «وبهذا يكون القصد ــ بتقديم بعض الكلمات على بعض وتأخيرها ــ اظهار الاعجاز على الطريقتين جميعاً ...».[٩]

ان من أبرز خصائص النظم القرآني مراعاة الفاصلة والتزامها التزاماً مطردا لايتخلف، وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها ــ كما سيتضح ــ وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، يقول الزركشي: «اعلم أنّ إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطّردُ متأكد جدا ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع[١٠] منها التقديم والتأخير، فقد جاء تأخر الخبر عن المعطوف عليه في آية واحدة هي قوله تعالى ﴿وإن أدري أقريب أم بعيد ما تُوعَدوُنَ﴾.[١١]

قال أبوحيان: «تأخر المستفهم عنه لكونه فاصلة، وكثيراً ما يرجع الحكم في الشيء لكونه فاصلة آخر الاية».[١٢]

ولهذا دعا السهيلي الى وجوب البحث عن الحكمة في تقديم ما قُدّم وتاخير ما أُخّر من الفاظ القرآن[١٣] ولعل من العلل الداعية الى ذلك مراعاة التناسب والتشاكل، وهو ماسيحاول هذا البحث أن يسلط عليه الضوء.

٢-تعريف الفاصلة وبعض خصائصها:

الفاصلة: هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع.[١٤] وعرّفها الرماني بكونها: حرفاً متشاكلة في المقاطع توجب حسن الافهام[١٥] او يقع بها إفهام المعانى على حد تعبير الباقلاني[١٦] وهي من المحسنات التي يحرص كل اسلوب رفيع عليها وتدخل في علم البديع الباحث عن التركيب من حيث وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ووضع الدلالة على المرام.[١٧]

ان الفاصلة ظاهرة أسلوبية قرآنية واضحة المعالم، بها انفرد القرآن من النثر والشعر معا، وهي من أبرز الخصائص التي جعلته نحوا جديداً من أنحاء البيان وطريقاً فريداً من طرق التعبير. «وقيمة الفاصلة في بلاغة النظم القرآني وحلاوة ايقاعه حقيقة لاتقبل المراء، وما كان للقرآن أن يحافظ عليها ويختارها بعناية فيأتي بها متمكنة في موضعها مستقرة في نسقها لو لم يكن لها شأن كبير في بلاغته و تحقيق أهدافه».[١٨]

وتقطيع المنثور من الكلام جملاً أو فقراً أو فواصل عمل بلاغيّ تقتضيه حال النفس وحركة الذهن وطبيعة التنفس، وهذا التقطيع - و ان نشأ في اللغة على مقتضى الطبع - له فلسفة وهندسة وموسيقى هن عناوين علم البلاغة وبراهين فن البليغ... فالهندسة والموسيقي ملاكهما التلاؤم بين أجزاء الفقر وفواصلها[١٩] ولهذا نجد من مصطلحات هذا التقطيع الفاصلة والسجع ورأس الآية والقافية... ومع كون الفاصلة أعمّ هذه المصطلحات وتصدق عليها كلها الا أن بعض العلماء حاول تحديد الفروق بين مصطلح وآخر، فقد فرق الداني بين الفواصل و رؤوس الآي فقال: «الفاصلة هي الكلام المنفصل عما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية، قال: ولاجل كون معنى الفاصلة هذا ذكر سيبويه في تمثيل القوافي ﴿يَومَ ياتِ﴾[٢٠] ﴿وما كُنّا نَبغِ﴾[٢١] وليسا رأس آيتين باجماع، مع ﴿اذَا يَسرِ﴾[٢٢] رهو رأس آية باتفاق».[٢٣]

قال الجعبري معقبا على مذهب الداني:

«وهو خلاف المصطلح، ولا دليل له في تمثيل سيبويه (يَومَ يَات) و (مَا كُنَّا نَبغ) وليسا رأس آي، لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية».[24]

ومن جهات الحسن الأسجاع، وهي في النثر كما القوافي في الشعر[25] ومن جهاته الفواصل القرآنية[26] وخصت فواصل الشعر باسم القوافي، لأن الشاعر يقفوها أي يتبعها في شعره لايخرج عنها. وهي في الحقيقة فاصلة لأنها تفصل آخر الكلام. فالقافية أخصّ في الاصطلاح اذ كل قافية فاصلة ولا عكس.[27]

بين الفاصلة والسجع:

يقول الرماني في التمييز بين المصطلحين «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني، أما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ماتوجبه الحكمة في الدلالة، اذ كان الغرض الذي هو حكمة انما هو الابانة عن المعاني التي الحاجة اليها ماسة، فاذا كانت المشاكلة وصلة اليه فهو بلاغة، واذا كانت المشاكلة خلاف ذلك فهو عيب، لأنه تكلف من غير الوجه الذي ترجبه الحكمة.[28]

فعلى هذا يكون السجع هو الذي يُقصد في نفسه ثم يحيل المعنى عليه، والفواصل تتبع المعاني ولا تكون مقصودة لذاتها.[29]

والحق أن العلماء الذين تناولوا الفواصل القرآنية أو السجع قبل الرماني لم يفرقوا بينهما وقد كان قوله: «والفواصل بلاغة والأسجاع عيب» مثار جدل شديد بين العلماء ولم يأخذ أحد برأيه في تهجين السجع على الاطلاق. يقول ابن حيدر: «ورأيت قوما يذهبون الى كراهة السجع والازدواج في الكلام من غير أن عرفت لهم في ذلك حجة، فعلمت أنهم ذموا ما راموه فلم يصلوا اليه وتعاطوه فلم يقدروا عليه، والا فهذا القرآن وكلام الرسول وهما مسجوعان، فأما الذي في القرآن فأكثر من أن يحاط به اذ كان مبناه عليه».[30]

والمعول عليه عند ابن سنان هو التكلّف وعدم التكلف، فما اتصف بالتكلف كان عيبا سواء سمي فاصلةً أم سجعاً، واذا كان خاليا من التكلف ماضيا على السجية والطبع فهو بلاغة سواء سمي فاصلةً أو سجعاً، يقول ابن سنان: «لأنه لايخلو من أن يأتي طوعاً سهلاً وتابعاً للمعاني، أو بالضد من ذلك حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى، فان كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان، وان كان من

الثاني فهو مذموم مرفوض. والقرآن لم يرد فيه الا ما هو من القسم الأول المحمود لعلوه في الفصاحة...».

أما قول الرماني: «ان السجع عيب والفواصل بلاغة» على الاطلاق فغلط، لأنه ان أراد بالسجع مايكون تابعاً للمعنى غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله، وان كان يريد ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلف فذلك عيب والفواصل مثله.[٣١]

وقد كان ابن الأثير لايرى بأسا من تسمية ما جاء منه في القرآن سجعا ولم يحدده بالفاصلة كما فعل الرماني[٣٢] وهو ما ذهب اليه الشيخ حمزة العلوي[٣٣] وابن القيم.[٣٤]

فالقول بالسجع في القرآن تقرير للفاصلة، والقول بالفاصلة ليس انكارا للسجع في حقيقة الأمر، اذ هما متقابلان أو متلاقيلان في معناهما، فكلمة آخر الآية تسمى رأس آية أو فاصلة، فاذا توالت الآيات على نمط واحد وقد اشتركت حروف أواخرها سميت فواصل أو أسجاعا، لاغضاضة في أيها الا أن الفواصل أعم.[٣٥]

أما علة عدم تسمية ما في القرآن سجعاً فهي تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم، وهذا - كما يقول ابن سنان - غرض في التسمية قريب[٣٦] يقول التفتازاني: «ولا يقال في القرآن أسجاع رعاية للأدب وتعظيما له».[٣٧]

ومن ثَمّ نُؤْثِرُ - مع مجموعة من الباحثين وعلى رأسهم عائشة عبدالرحمن (الدكتورة بنت الشاطئ)[٣٨] - أن نمضي على تسمية مقاطع الآيات في القرآن بالفواصل، وهو الذي جرى عليه اكثر المفسرين. وبعد الذي سقناه من خلافهم، يكون من المجدي حسماً لكل خلاف أن نتدبر الفواصل القرآنية لنرى ما اذا كان البيان الأعلى يتعلق بفاصلة منها بمجرد رعاية شكلية للرونق اللفظي، أو أن فواصله تأتي لمقتضيات معنوية مع نسق للايقاع بهذه الفواصل وائتلاف الجرس لألفاظها التي اقتضتها المعاني على نحو تتقاصر دونه طاقة البلغاء.

٣ـ تناسب الفواصل ومخالفة الأصول:

التناسب هو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر، والقرآن العظيم كله متناسب لا تنافر فيه.[٣٩] ومن المواضع التي يتأكد فيها ايقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وايقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلابد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولا، والا خرج بعض الكلام عن بعض.[٤٠]

وقد أجمع علماء الاعجاز على أن التناسب من أوجه اعجاز القرآن، حتى ان ابن الأثير جعل مراعاة نظم الكلام أبلغ وأوكد من الاختصاص.[٤١]

وذهبوا في تفسير ميل العرب الى الايقاع النولي المتوازن الى أن النفس بطبيعتها تميل اليه، وأنه يقع منها موقع الاستحسان.[٤٢]

يقول ابن الأثير: «واذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت في النفس موقع الاستحسان، وهذا لا مراء فيه». وهو يرى أن الاعتدال مطلوب في جميع الأشياء والنفس تميل اليه بالطبع[٤٣] وهو مقصد من مقاصد العقلاء.[٤٤]

وايقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطّرد متأكد جدا ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً، ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع.[٤٥]

يقول ابن الصائغ في «إحكام الراي في أحكام الآي»: «اعلم أنّ المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول» قال: «وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكماً».[٤٦]

أحدها: تقديم المعمول إما على العامل كقوله تعالى ﴿أَهؤلاء ايّاكُم كَانُوا يَعبُدونَ﴾.[٤٧]

أو على معمول آخر أصله التقديم ﴿لِنُرِيَكَ من آياتِنا الكُبرى﴾ [٤٨] الكبرى مفعول نري.

أو على الفاعل ﴿ولقد جاءَ آلَ فرعونَ النُذُرُ﴾ [٤٩]

ومنه تقديم خبر كان على اسمها ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾.[٥٠]

٢ـ تقديم ما هو متأخر في الزمان كقوله ﴿فَلِلّهِ الآخرةُ والأولى﴾[٥١] ولولا مراعاة الفواصل لتقدمت الأولى كقوله ﴿لهُ الحمدُ في الأولى والآخرة﴾.[٥٢]

٣ـ تقديم الفاضل على الأفضل كقوله ﴿بِرَبّ هارونَ وموسَى﴾.[٥٣]

٤ـ تقديم الضمير على مايفسره كقوله ﴿فاوجسَ في نفسه خيفةً مُوسى﴾.[٥٤]

٥ـ تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة كقوله ﴿ونُخرجُ لهُ يومَ القيامةِ كتاباً يلقاهُ مَنشوراً﴾.[٥٥]

٦ـ حذف ياء المنقوص المعرف كقوله ﴿الكَبيرُ المُتَعَال﴾[٥٦] وقوله ﴿يومَ التّناد﴾.[٥٧]

٧ـ حذف ياء الفعل غير المجزوم نحو: ﴿والليل اذا يَسَر﴾.[٥٨]

٨ـ حذف ياء الاضافة كقوله ﴿فكيف

كان عذابي وَنُذُر﴾[٥٩] ﴿فكيفَ كانَ عِقَاب﴾[٦٠]

٩ـ زيادة حرف المد ﴿الظُنُونَا﴾ ﴿الرَّسُولا﴾ ﴿السَّبِيلا﴾.

١٠ـ صرف مالا ينصرف ﴿قَوَارِيرا ـ قَوَارِيرَا﴾.[٦١]

١١ـ ايثار تذكير اسم الجنس كقوله ﴿أعجازُ نخل مُنقَعِر﴾.[٦٢]

١٢ـ ايثار تأنيثه كقوله ﴿أعجازُ نخل خاوية﴾.[٦٣]

١٣ـ الاقتصار على أحد الوجهين اللذين قرئ بهما في السبع في غير ذلك كقوله ﴿فَأُولَئِكَ تَحرَّوا رَشدا﴾[٦٤] ولم يجئ ﴿رَشَدا﴾ في السبع.

١٤ـ ايراد الجملة التي رد بها ما قبلها على غير وجه المطابقة في الاسمية والفعلية كقوله ﴿ومن النَّاس مَن يقولُ آمنَّا باللّهِ وباليومِ الاخر وما هُم بمُؤمنينَ﴾.[٦٥]

١٥ـ ايراد أحد القسمين غير مطابق للآخر ﴿فليعلَمَنَّ اللّه الذينَ صدَقوا ولَيعلَمَنَّ الكاذبينَ﴾.[٦٦]

١٦ـ ايراد أحد جزأي الجملتين على غير الوجه الذي أورد نظيرها من الجملة الأخرى كقوله ﴿أولئِكَ الذينَ صدَقُوا واولئِكَ هُم المتّقونَ﴾.[٦٧]

١٧ـ ايثار أغرب اللفظتين كقوله ﴿قسمة ضيزَى﴾[٦٨]. ﴿وَليُنبَذنَّ في الحُطَمَةِ﴾.[٦٩]

١٨ـ اختصاص كل من المشتركين بموضع كقوله ﴿وليذَّكَّرَ أُولُوا الألباب﴾.[٧٠]

١٩ـ حذف المفعول كقوله ﴿فامَّا مَن أعطَى واتَّقَى﴾[٧١]، وقوله ﴿ما وَدَّعَكَ رَبكَ ومَا قَلى﴾.[٧٢]

٢٠ـ الاستغناء بالافراد عن التثنية ﴿فلايُخرجنَّكُما مِنَ الجنَّة فتشقى﴾.[٧٣]

٢١ـ الاستغناء به عن الجمع كقوله ﴿واجعلنا للمتّقينَ إمَامَا﴾.[٧٤]

٢٢ـ الاستغناء بالتثنية عن الافراد ﴿ولمن خاف مَقَام ربّه جَنَّتان﴾.[٧٥] قال الفراء: أراد جنة.

٢٣ـ اطلاق الاثنين على الجمع كقوله ﴿ولمن خاف مَقَامَ ربّه جَنَّتانِ﴾[٧٦] اراد جنات فأطلقَ الاثنين على الجمع لأجل الفاصلة.

٢٤ـ الاستغناء بالجمع عن الافراد ﴿لابيع فيه ولا خلال﴾[٧٧]، أي: ولا خلة.

٢٥ـ اجراء غير العاقل مجرى العاقل كقوله ﴿رَأَيتهُم لي ساجدينَ﴾.[٧٨]

٢٦ـ إمالة ما لا يمال كآي ﴿طه والنجم﴾.

٢٧ـ الاتيان بصيغة المبالغة كقدير وعليم كقوله ﴿وَما كان ربكَ نسيًا﴾.[٧٩]

٢٨ـ إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض كقوله ﴿إنَّ هَذَا لشيء عُجاب﴾[٨٠]، أوثر على عجيب.

٢٩ـ الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه كقوله ﴿ولولا كَلمَة سَبقَت من ربّكَ لكانَ لزاماً وأجل مُسمّى﴾.[٨١]

٣٠ـ إيقاع الظاهر موضع المضمر كقوله ﴿والذين يُمَسّكونَ بالكتاب وَأقامُوا الصّلاة إنّا لانُضيعُ أجرَ المُصلحين﴾.[٨٢]

٣١ـ ونوع (مفعول) موقع (فاعل) كقوله ﴿حجاباً مَستوراً﴾[٨٣] أي ساترا.

٣٢ـ ونوع (فاعل) موقع (مفعول) ﴿في عيشَة رَاضية﴾.[٨٤] أي مرضية.

٣٣ـ الفصل بين الموصوف والصفة كقوله ﴿أخرج المرعَى فجَعله غُثاءً أَحوىَ﴾[٨٥] أحوى حال للمرعى.

٣٤ـ إيقاع حرف مكان غيره كقوله ﴿بأنّ رَبّكَ اوحَى لَهَا﴾[٨٦] والاصل «أوحى إليها».

٣٥ـ تأخير الوصف غير الأبلغ عن الأبلغ كقوله ﴿الرّحمن الرّحيم﴾ ﴿رؤوف رَحيم﴾.[٨٧]

٣٦ـ حذف الفاعل ونيابة المفعول كقوله ﴿وَما لأحد عندَهُ من نعمة تُجزى﴾.[٨٨]

٣٧ـ إثبات هاء السكت ﴿مَاليَه﴾ ﴿سلطانيه﴾.

٣٨ـ الجمع بين المجرورات كقوله ﴿ثمّ لاتَجدُ لكَ به علينا تَبيعاً﴾.[٨٩]

٣٩ـ العدول عن صيغة المضي الى صيغة الاستقبال كقوله ﴿فَفَريقاً كذّبتُم وفَريقاًتَقتلون﴾[٩٠] والأصل «قتلتم».

٤٠- تغيير بنية الكلمة كقوله ﴿وطور سينينَ﴾[٩١] والأصل «سيناء».[٩٢]

تلك جملة من النماذج التي نُقل عن ابن الصائغ أنه جعلها من باب الخروج عن الأصل لأجل تناسب الفواصل، ويستفاد منها أنه اقتصر على بعض الأمثلة التي وقعت فيها مخالفة الأحكام والقوانين الصرفية المتعلقة ببنية الكلمة، والنحوية المتعلقة بالتراكيب، والدلالية التي لا صلة لهل بقواعد النحو.

إلا أن معظم ما ذكر لايخرج عن المسائل النحوية، يقول الحسناوي معلقا على نقول ابن الصائغ: «ونكاد نجزم بانفراد هذه الأحكام بالمسائل النحوية المتعلقة بالفواصل والآيات»[٩٣] وهذه الأحكام متعلقة إما بالحذف أو بالفصل أو بالتقديم والتأخير...

٤ـ التقديم ومراعاة الفاصلة:

إذا كان اللّه سبحانه قد اختار للقرآن ترتيلا تبدو فيه نغمة ألفاظه وزينتها

وحسنها فلابـد أن تكون ألفاظه قـد اختيرت لمزية في كل كلمة فضلا عن ترتيبها وطرق نظمها، وهذا الحكم إن كان ينطبق على سائر ألفـاظ القـرآن فإنـه ينطبق بـالأحـرى على الكلمات التي تقـع في فواصل الآيـات، فهذه أولى بـالعناية، لأنهـا تجمع بين الـوظيفتين المعنوية والإيقاعيـة، وبلاغة الكلام تقتضي أن يراعى في اختيارهـا أن تكون قادرة على الوفاء بحق المعنى وحـق التناسب الإيقاعي في آنٍ واحد.(٩٤)

وكمـا يعمل التقـديـم والتأخيـر الـذي يتيحه النظام اللغوي علـى إقامة وزن البيت يعمل كذلـك على تهيئة استواء بنـاء الجملة في اتجاه الفاصلة، وتأتي مستقرة غير جافية.

يقول محمد حماسة في السياق نفسه: «وفي القـرآن الكريم نمـاذجُ كثيرة للتقـديم والتأخير وخاصـةً عند نهاية الآيات القصيرة والطويلـة على السـواء حيث يُهيّئُ التقـديم والتأخيـر رعاية تـوافق كثير من الفـواصل القرآنيـة فضلا عمـا يمكن أن يُفهمَ مـن هذا التقديم والتأخير غير ضبط الإيقاع الصوتي للفاصلة القرآنية من معان أُخَرَ».(٩٥)

لقد أصبح من البيّن ـــ من خلال النظر في مصادر العربية وتتبـع حديث البلاغيين عن أحـوال المسند والمسند إليـه ومتعلقات الفعل ـــ أن مراعاة الفـاصلة(٩٦) من العلـل المعتبرة والأسبـاب الداعية الى التقـديم، أو لأن فـي التأخيـر إخـلالاً بـالتنـاسـب أو بالنظم...(٩٧) إلى درجـة أنّ ابـن الأثيـر قـد جعل مـراعـاة النظم أبلـغَ وأوكدَ وأهـمّ من الاختصاص عند حديثـه عن غرضي التقديم والتأخير.(٩٨)

* ففي قوله تعالى ﴿إيَّاكَ نَعبُدُ وإياك نَستَعينُ﴾(٩٩)، تـأخـرت الاستعـانـة عـن العبادة وهي قبلها، يقـول الزركشي: «وإنما أُخّرت لأجل فواصل السورة».(١٠٠)

ورفـض ابن الأثيـر تعليـل التقـديـم بـالاختصـاص في الآيـة قـال: «وقـد ذكـر الزمخشري في تفسيـره أنّ التقديم في هذه المواضع قُصدَ به الاختصاصُ وليس كذلك، فـإنـه لم يُقَـدّم المفعـولُ بـه على الفعـل للاختصاص، وإنما قُدّم لمكان نظم الكلام. لأنّه لو قال: نعبدك و نستعينك لم يكن له من الحسن مـا لقـولـه ﴿إيّـاكَ نعبُد وإيّـاكَ نستعينُ﴾ الا تـرى أنه تقـدم قولـه تعـالى ﴿الحمـدُ للـه رَبّ العـالمينَ * الـرحمـن الرّحيم * ملك يوم الدّين﴾ فجاء بعد ذلك قوله: ﴿إيّاكَ نعبدُ و إيّاكَ نَستَعينُ﴾ وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون.(١٠١)

* أما قوله تعالى ﴿فاوجَسَ في نفسه خيفةً موسى﴾(١٠٢)فقـد جعله الـزركشي

مثالا لتأخير ما أصله أن يقدم قال: «لأن أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول لكن أُخِّرَ الفاعلُ وهو موسى لأجل رعاية الفاصلة».[١٠٣]

قال ابن الأثير: «وتقدير الكلام: فأوجس موسى في نفسه خيفةً، وإنما قدم المفعول على الفاعل، وفُصِلَ بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصداً لتحسين النظم[١٠٤] أو لأن في التأخير إخلالاً بالتناسب، كما يقرر التفتازاني، لأن فواصل الآي على الألف».[١٠٥]

* ومنه قوله تعالى ﴿خُذُوهُ فغُلّوه * ثمَّ الجَحيمَ صَلّوة﴾[١٠٦] قال ابن القيم: «ولو قال: صَلّوهُ الجحيم لأفاد المعنى، ولكن كان يفوت السجع، فلذلك كان الأحسن تقديم الجحيم».[١٠٧]

* وفي قوله ﴿فأمّا اليَتيمَ فلا تَقهر * وأمّا السائل فلا تَنهر﴾[١٠٨] قُدِّمَ اليتيم والسائل للاحتفاظ بالموسيقى في الآيات القرآنية. قال ابن الأثير: «وإنما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعي».[١٠٩]

* ومثال آخر قوله تعالى: ﴿إنَّ اللّهَ لايظلمُ النّاسَ شيئاً ولكنَّ النّاسَ أنفسَهُم يظلمون﴾[١١٠]. فتقديم كلمة «أنفسهم» يخدم عددا من الجهات فهو من حيث النسق يؤدي إلى توافق الفاصلة القرآنية مع الفواصل السابقة واللاحقة، إذ تختم الفواصل بواو المد أو يائه والنون ولو تأخرت فقال «ولكن الناس يظلمون أنفسهم» لاختل نسق الفواصل القرآنية ورؤس الآي.[١١١]

* وقد استعمل تقديم الظرف في القرآن كثيرا مراعاة لحسن النظم. يقول ابن الأثير في قوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى رَبّها ناظرَة﴾[١١٢]: «فتقديم الظرف ههنا ليس للاختصاص، وإنما كالذي أشرت إليه في تقديم المفعول، وأنه لم يقدم للاختصاص وإنما قدم من أجل نظم الكلام لأن قوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾ أحسن من أن لو قيل: (وجوه يومئذ ناضرة، ناظرة إلى ربّها)، والفرق بين النظمين ظاهر».[١١٣]

وكذا قوله تعالى﴿والتفّت السّاقُ بالسّاق * الى ربِّكَ يومئذ المَسَاقُ﴾[١١٤] فإنَّ هذا رُوعيَ فيه حسنُ النظم لا الاختصاص في تقديم الظرف.[١١٥]

وقد أخر الفاعل لأجل الفاصلة في قوله تعالى ﴿ولقد جاءَ آلَ فرعونَ النّذُرُ﴾[١١٦] وقوله ﴿وممّا رَزَقناهُم يُنفقونَ﴾[١١٧] أخر الفعل عن المفعول فيها لتوافق رؤوس الآي.[١١٨]

وجعل السيوطي مما قدم فيه خبر كان

رعايـة للفاصلة قولـه تعالى ﴿ولم يكن لـهُ كفواً أحد﴾[١١٩].[١٢٠]

هذه بعض النماذج التركيبية التي قدمت فيهـا بعـض الكلمـات علـى بعض رعـايـة للفاصلة. ويمكن تتبع هذا الأمر فيما أسميته بالتقـديم الدلالي كتقـديم ما هو متـأخر في الزمـان نحو قـوله تعـالى ﴿فللّـهِ الآخـرةُ والأولى﴾[١٢١] قـال ابـن الصـائغ: «ولـولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى»[١٢٢] كقوله تعالى﴿له الحمدُ في الأولى والآخرة﴾.[١٢٣]

ومن أشهـر الأمثلة قـوله تعـالى﴿برَبّ هارونَ وموسَى﴾.[١٢٤]

قال الـرازي: «إنما قـدمه ليقع مـوسى مؤخرا في اللفظ فينـاسب الفواصل، وأقوى ما استدلوا بـه الاتفاق على أنّ موسى أفضل من هارون عليهما السلام، ولما كان السجع قيل فـي موضـع (هارون ومـوسى)، ولمـا كـانت الفـواصل فـي موضـع آخر بـالـواو والنون قيل (موسى وهارون).[١٢٥]

وقـد اقترن مـوسـى وهارون عليهمـا السلام في القرآن الكـريم عشر مرات، تسع منها بتقديم ذكر موسى على هارون، وتَقَدّم ذكرُ هارون في موضع واحد هو ﴿بربّهارونَ وموسى﴾[١٢٦] وذلك مراعاةً للفاصلة.[١٢٧]

وأخيرا فليـس من الخطأ في الـدين ولا في البلاغة أن نقول إن القرآن يهتم بالناحية اللفظية لأنهـا جزء من أسلـوبه، ولأنهـا من دواعي التـأثيـر، ولكن الخطـأ أن نقـول إن القرآن يختار الكلمـة أو الأسلوب أو العبارة مراعاة لتناسب الفـواصل وحده، ولهذا قال الزمخشـري إنه: «لاتحسن المحافظـة على الفواصل لمجردها إلا مـع بقاء المعاني على سـدادها علـى النهج الـذي يقتضيـه حسن النظم والتئامـه، كما لايحسن تخيّـرُ الألفاظ المونقة في السمـع السلسة على اللسان إلا مع مجيئهـا منقـادة للمعـانـي الصحيحـة المنتظمـة، فأمـا أن تعمل المعـانـي ويهتم بتحسين اللفظ وحده.. فليس من البلاغة في فتيل أو نقير».[١٢٨]

فقـد تبين أن مـا يُعطي التجنيـس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى يقول الجرجاني: «إن المعنى المقتضي اختصاص هـذا النحو بـالقبول هـو أن المتكلم لم يَقُد المعنى نحـو التجنيس والسجـع، بل قـاده المعنى إليهما وعثـر به عليهما، حتى أنـه لو رام تركهما إلى خلافهمـا مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقـوق المعنى، و إدخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنس المستكره والسجع النافر».[١٢٩]

وتقول عائشة عبدالرحمن: «فليس من القبول عنـدنا أن يقـوم البيان القـرآني على اعتبار لفظيّ، وإنما الحذف لمقتضى معنوي

بـلاغي يقويـه الأداء اللفظي دون أن يكـون الزخرف الشكلي هو الأصل، ولو كان البيان القرآنـي يتعلق بمثل هذا مـا عدل في رعـاية الفـاصلـة في آخـر سـورة الضحى ﴿فأمّا اليتيم فلا تَقهر * وأمّا السائلَ فلا تَنهر * وأمّا بنعمَـة رَبك فحَدّث﴾[130] وليس في السورة كلها ثاء فاصلـة بل ليس فيها حرف الثاء على الاطلاق.[131]

وقـد شذ ابـن الأثير عـن هذا الاجمـاع بذهـابه إلى أن مـراعاة نظم الكـلام هي أهم أغراض التقديم والتأخير وهي أبلغ وآكد من الاختصاص.[132]

والـذي نـراه صـائبـا هـو أنّ التقـديم والتـأخيـر في النظـم القـرآنـي يجمع بيـن الوظيفتين الجمـالية والمعنويـة على السواء وإلا فما الذي يمنع أن تقـول إن التقديم في ﴿إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعينُ﴾ وقع لإفادة الاختصـاص ولمراعاة نظـم الكلام معا ـ ولا منافاة بين هذين المطلوبين.[133]

فـالقـرآن العظيم كمـا جـاء في الأثـر لاتنقضي عجائبه ولذلـك لايمتنع في توجيه الروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرىمع وجه المناسبة كمليقرر ابن الصائغ.[134]

إن مـراعـاة نظـم الكـلام تُضيف إلـى أغـراض التصـرف في العبـارة بـالتقـديـم والتأخير بُعداً آخر يتمثـل في مراعاة بعض الممكنات الجمـالية في الكلام، وقـد تحولت إلى سبـب رئيس مـن أسباب التقـديـم في حـديث البلاغييـن وعلى رأسهم الـزركشي الـذي ذكر من بيـن الأسباب «أن يكـون في التأخير إخـلال بالتناسب، فيقدم لمشـاكلة الكلام ولرعاية الفاصلة.[135]

فمراعـاة الفاصلة تضيف بعدا جمـاليا وفنيـا للعبـارة القـرآنيـة ولـذلك قـال الزمخشري: «ولـو قال: نعبدك ونستعينك» لذهبت تلك الطـلاوة وزال ذلك الحسن وهذا غير خـاف على أحـد من الناس، فضـلا عن أربـاب علـم البيـان»[136] وبهـذا فضلـت فصاحـة القرآن كل نظـم، وتقدمت بـلاغته بـلاغة كـل قول، وحـاز المرتبـة العليـا من مـراتـب تاليـف الكـلام من حيثُ الألفـاظُ والمعاني والنظمُ ومطابقةُ الأحوال المختلفة وحسنُ التعبير وقوةُ التاثير.

الهوامش

(١) انظر: مثلا: النكت، الرماني: ٧٥.
(٢) نهاية الايجاز: ٨٢، وبيان إعجاز القرآن الخطابي: ٢٤.
(٣) التبيان: ١٩٥.
(٤) بيان إعجاز القرآن، الخطابي: ٢٧، وانظر: بديع القرآن لابن أبي الأصبع: ١٦٤.
(٥) نهاية الايجاز: ٨٣.
(٦) المثل السائر ١: ٢١٣.
(٧) الطبيعة والتمثال: ٢٥٦.
(٨) النحو والشعر، مصطفى ناصف: ٣٦.

(٩) البرهان ١:٥٧.
(١٠) المصدر السابق ١:٦٠.
(١١) الانبياء/١٠٨.
(١٢) البحر المحيط ٢:٢٤٢، والتناسب في القرآن الكريم، أحمد أبو زيد: ٦٥٠–٦٥١.
(١٣) نتائج الفكر: ٣٦٦، وبدائع الفوائد ١:٦١.
(١٤) البرهان، الزركشي ١:٥٣.
(١٥) النكت: ٩٧.
(١٦) إعجاز القرآن: ٢٧٠، وانظر: معجم المصطلحات البلاغية ١٢، والفاصلة في القرآن محمد الحسناوي:٢٦.
(١٧) مفتاح السعادة ١:١٧٨.
(١٨) التناسب في النظم القرآني، أحمد أبو زيد: ٦٢٥.
(١٩) هود/١٠٥.
(٢٠) الكهف/٦٣.
(٢١) الفجر/٤.
(٢٢) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن، فتحي عامر: ٢١٥.
(٢٣) الإتقان ٣:٢٩٠.
(٢٤) البرهان ١:٥٣.
(٢٥) الإشارات والتنبيهات: ٢٩٨.
(٢٦) مفتاح العلوم: ٤٣١.
(٢٧) البرهان ١:٥٥.
(٢٨) النكت، الرماني: ٩٧، وانظر: أسرار البلاغة، الجرجاني: ١٠ ـ ١٤.
(٢٩) البرهان، الزركشي ١:٥٤، وانظر: فكرة النظم: ٢٠١، ونصوص النظرية البلاغية: ١٣٥.
(٣٠) قانون البلاغة: ٣٠، وانظر: التبيان، الزملكاني:١٧٨.
(٣١) سر الفصاحة: ١٦٥ وما بعدها، وانظر: إعجاز القرآن، الباقلاني: ٩٠.
(٣٢) المثل السائر ١:٢٧٣.
(٣٣) الطراز ٣:٢٠.
(٣٤) الفوائد المشوق: ٨٤.
(٣٥) فكرة النظم: ٢١٦، ومقتضى الحال في القرآن الكريم، الطلحاوي: ٤٣٩.
(٣٦) سر الفصاحة: ١٦٥.
(٣٧) مختصر التفتازاني ٤:٤٤٥
(٣٨) الإعجاز البياني ومسائل نافع بن الأزرق، عائشة عبدالرحمن: ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٣٩) الفوائد المشوق: ٨٧، وجوهر الكنز: ٢٩٧.
(٤٠) البرهان ١:٨٧.
(٤١) المثل السائر ٢:٢٨.
(٤٢) الأسس النفسية لأساليب البلاغة: ٦٢.
(٤٣) المثل السائر ١:٢٧٥، والإتقان ٣:٢٩٥.
(٤٤) الطراز ٣:٢١.
(٤٥) البرهان ١:٦٠.
(٤٦) الإتقان ٣:٢٩٦.
(٤٧) سبأ/ ٤٠
(٤٨) طه/ ٢٢.
(٤٩) القمر/ ٤١.
(٥٠) الاخلاص/٤.
(٥١) النجم/٢٥.
(٥٢) القصص/ ٧٠.
(٥٣) طه/ ٦٩.
(٥٤) طه/٦٦.
(٥٥) الاسراء/١٣.
(٥٦) الرعد/ ١٠.
(٥٧) غافر/ ٣٢.
(٥٨) الفجر/٤.
(٥٩) القمر/١٦.
(٦٠) الرعد/٣٢.
(٦١) الانسان/ ١٥ ـ ١٦.
(٦٢) القمر/١٦.
(٦٣) الحاقة/٦.
(٦٤) الجن/ ١٤.
(٦٥) البقرة/ ٧.
(٦٦) العنكبوت/ ٢.
(٦٧) البقرة/ ١٧٦.
(٦٨) النجم/ ٢٢.
(٦٩) الهمزة/ ٤.
(٧٠) ابراهيم/ ٥٤.
(٧١) الليل/ ٥.
(٧٢) الضحى/ ٣.

(٧٣) طه/١١٤.
(٧٤) الفرقان/٧٤.
(٧٥) الرحمن/٤٥.
(٧٦) الرحمن/٤٥
(٧٧) ابراهيم/٢٣.
(٧٨) يوسف/٤.
(٧٩) مريم/٦٤.
(٨٠) ص/٤.
(٨١) طه/١٢٧.
(٨٢) الاعراف/١٧٠.
(٨٣) الاسراء/٤٥
(٨٤) الحاقة/٢٠.
(٨٥) الاعلى/٤ـ٥
(٨٦) الزلزلة/٥
(٨٧) التوبة/١٢٩.
(٨٨) الليل/١٩.
(٨٩) الاسراء/٦٩.
(٩٠) البقرة/٨٦.
(٩١) التين/٢.
(٩٢) انظر: الإتقان ٣:٢٩٦، وما بعدها، و معترك الاقران ١:٣٢، ومفتاح السعادة ٢: ٤٧٠.
(٩٣) الفاصلة في القرآن: ٥٧
(٩٤) التناسب في النظم القرآني: ٦٢٢ـ٦٢٣.
(٩٥) في بناء الجملة العربية: ٤٤٣.
(٩٦) أو مراعاة النظم ـ أو مراعاة المناسبة.
(٩٧) انظر مثلا المطول٢٠٢، شرح التلخيص للبابرتي:٣١٨.
(٩٨) الفاتحة/٤.
(٩٩) المثل السائر ٢:٢١٨.
(١٠٠) البرهان ١:٦٢. والإتقان ٣:٢٩٦.
(١٠١) المثل السائر ٢:٢١٢.
(١٠٢) طه/٦٦.
(١٠٣) البرهان ١:٦٢، والاتقان ٣:٢٩، والخواطر الحسان:٦٤.
(١٠٤) المثل السائر ٢:٢١٢ ـ ٢١٣.
(١٠٥) المطول: ٢٠٢، وشرح التلخيص للبابرتي: ٣١٨.
(١٠٦) الحاقة/٣٠ ـ ٣١.
(١٠٧) الفوائد المشوق: ٤، وانظر: من أسرار اللغة:٢٢٣.
(١٠٨) الضحى/٩ ـ ١٠.
(١٠٩) المثل السائر ٢:٢١٤، وانظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن: ٢١٠.
(١١٠) يونس/٤٤.
(١١١) في بناء الجملة العربية: ١٨١ ـ ١٨٢.
(١١٢) القيامة/٢١ ـ ٢٢.
(١١٣) المثل السائر ٢:٢١٧.
(١١٤) القيامة/٢٨ ـ ٢٩.
(١١٥) المثل السائر ٢:٢١٨.
(١١٦) القمر/٤١.
(١١٧) البقرة/٢.
(١١٨) البرهان ١:٦٢.
(١١٩) الاخلاص/٤.
(١٢٠) الإتقان ٣:٢٩٦.
(١٢١) النجم/٢٥.
(١٢٢) المصدر السابق.
(١٢٣) القصص/٧٠.
(١٢٤) طه/٦٩.
(١٢٥) البرهان ١:٥٥
(١٢٦) الفاصلة في القرآن الكريم: ١١٧.
(١٢٧) المصدر السابق.
(١٢٨) قاله الزمخشري في كشافه القديم، البرهان١:٧٢.
(١٢٩) أسرار البلاغة، الجرجاني:١٤.
(١٣٠) الضحى/٩ ـ ١١.
(١٣١) التفسير البياني للقرآن الكريم: ٥٧ ـ ٥٨.
(١٣٢) انظر: المثل السائر ٢: ٢١٢ ـ ٢١٣ ـ ٢١٨.
(١٣٣) الفلك الدائر ٤: ٢٤٧ ـ ٢٤٨، وانظر: مبحث تعدد النكت:٤٠٦ من هذا المبحث.
(١٣٤) الإتقان ٣:٣٠١، وانظر: التناسب في النظم القرآني: ٢٧٦، والفاصلة في القرآن الكريم: ٧٧.
(١٣٥) البرهان ٣:٢٤٣.
(١٣٦) الكشاف ١:١٣، والمثل السائر ٣:٣٩، وانظر: النكت، الرماني: ٨٧، والبلاغة للمبرد: ٩١، وإعجاز القرآن، الباقلاني:٢١٥.

* * *

آية الليل هل هي منسوخة؟

السيد أحمد مير عمادي

لا شك ان في القرآن ناسخاً ومنسوخاً وقد ثبت هذا بالدليل العقلي والنقلي كرواية زرارة عن ابي جعفر(ع) قال: نزل القرآن ناسخاً ومنسوخاً[1].

وعن ابي عبد الرحمن السّلمي ان عليّاً(ع) مرّ على قاض فقال، هل تعرف الناسخ والمنسوخ؟ فقال لا فقال هلكت واهلكت[2].

ولذلك كان من المهم لنا الاهتمام بتمييز الناسخ عن المنسوخ بشكل قاطع: ومن الآيات الّتي قيل بوقوع النسخ فيها آية قيام الليل. قال الله تعالىٰ: ﴿قم الليل الاّ قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً﴾[3]هذه ثلاث آيات تأمر النبي(ص) بقيام الليل والصلاة فيه؛ لان المراد بالقيام المتقدم من قوله ﴿قم الليل﴾ هو القيام الى الصلاة عند اكثر المفسرين، وظاهر الامر للوجوب، وامّا الترديد بين الثلاثه (بين قيام النصف وقيام اقل من النصف بقليل وقيام اكثر منه بقليل) للتخيير لقد خيّره الله سبحانه في هذه الساعات القيام بالليل للصلاة وجعل ذلك موكولاً برأيه، وكان النبيّ(ص) وطائفةٌ من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير.

ولكن اختلف العلماء في الناسخ للامر بقيام الليل، فعن ابن عباس «ان الناسخ للامر بقيام الليل قوله تعالى ﴿ان ربّك يعلم انّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفةٌ من الذين معك والله يقدّر الليل والنهار علم انْ لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾[4].

وعن ابن عباس أيضاً قال: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿علم ان سيكونُ منكم

مرضى وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه﴾[٥].

قال ابو عبدالرحمن السلمي: لما نزلت ﴿يا ايها المزمل﴾ قاموا حتى ورمت اقدامهم وسوقهم ثم نزل قوله تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسّر منه﴾[٦].

وعن سعيد بن هشام قال قلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله(ص) فقال: الست تقرأ يا أيّها المزّمل؟ قلت: بلى، قالت: فان الله افترض قيام الليل من اول هذه السورة فقام نبيّ الله واصحابه حولاً امسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً من السماء حتى انزل الله في آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعاً بعد ان كان فريضة[٧].

وقال سعيد بن جبير: كان بين اول السورة وآخرها الذي نزل فيه التخفيف عشر سنين. وقال ابن كيسان ومقاتل: كان هذا بمكة قبل فرض الصلوات الخمس ثم نسخ بالخمس [٨].

وقال السيوطي: انها منسوخة بآخر السورة ثم نسخ الآخر بالصلوات الخمس[٩].

عن المحدث الفيض الكاشاني في تفسيره نقلاً عن القمّي عن الباقر(ع) في قوله تعالى ﴿ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه﴾ ففعل النبي(ص) ذلك وبشّر الناس به، فاشتدّ ذلك عليهم. و﴿علم ان لن تحصوه﴾ وكان الرجل يقوم ولا يدري متى ينتصف الليل ومتى يكون الثلثان وكان الرجل يقوم حتى يصبح مخافة ان لا يحفظه فأنزل الله ﴿ان ربك يعلم انك تقوم﴾ الى قوله ﴿علم ان لن تُحصوه﴾ يقول متى يكون النصف والثلث نسخت هذه الآية ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾[١٠]

وذكر في التمهيد[١١] في عداد الايات التي قيل بنسخها القول: بنسخ آية ﴿قم الليل﴾ بآية ﴿الا قليلاً﴾ وآية ﴿قليلاً﴾ بآية ﴿نصفه﴾ وآية ﴿نصفه﴾ بآية﴿وانقص منه قليلاً﴾.

على اي حال فتلخص مما ذكرنا ان القائلين بنسخ آية قيام الليل اختلفوا على اربعة اقوال في الناسخ لها وفي مقابل القائلين بالنسخ قال الطبرسي في مجمع البيان: «وليس في ظاهر الآيات ما يقتضي النسخ فالاولى ان يكون الكلام على ظاهره فيكون القيام بالليل سنة مؤكدة مرغّبا فيه وليس بفرض»[١٢].

اما نسخ الآية بالصلوات الخمس فلا دليل عليه الاّ ما احتمله[١٣] الشافعي وهو ضعيف جداً واما القول بنسخ آية ﴿قم الليل﴾بآية ﴿الاّ قليلاً﴾ بآية.... فانه مردود لان ظاهرها استثناء بيان والاستثناء والبيان يغايران النسخ كما قال به الاستاذ معرفة.

وامّا نسخ الآية الاولى بآية آخر السورة فمتوقف على التنافي بين الآيتين بالكليه وعلى اثبات ان يكون القيام فُرض على النبي(ص) وعلى اصحابه وذلك مشكل. لان التهجد وقيام الليل ما كان واجباً قط الاّ على النبي(ص) والدليل عليه قوله تعالى ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾[١٤] اي زيادة لك على الفرائض. وقال الطبرسي: ان صلاة الليل كانت فريضة على النبي(ص) ومكتوبة عليه ولم تكتب على غيره وكانت فضيلة لغيره[١٥] فتبيّن ان قيام الليل كان مستحباً مؤكّداً وما كان واجباً الاّ على النبي(ص) فلا مانع من ان يكون الشيء واجباً عليه ومستحبّاً لامته لانه من اختصاصاته.

وفي الواقع ان شبهة النسخ في هذه الآية ناشئة من الارتكاز الذهني للمسلمين في اوائل البعثة في ان كل ما يقوم به النبي(ص) فرض عليهم فلذا اهتمّوا بامر قيام الليل حتى ورمت اقدامهم مع ان الخطاب في الآية للرسول(ص) وكان ذلك سبب نزول آية آخر السورة ﴿ان ربك يعلم...﴾ لرفع هذه الشبهة، والشاهد عليه قول ابي جعفر(ع) وابي عبد الرحمن السلمي و... فتكون هذه الآية بياناً لا نسخاً فبالنتيجة جميع الآيات باقية على ظاهرها.

بعد ان اتّضح ان قيام الليل والصلاة فيه امر مستحبّ مؤكد، نرى من المناسب ان نشير الى بعض الروايات التي وردت في ذيل الآيات وفسرتها بصلاة الليل الدالة على فضيلتها، نرجو من الباري تعالى ان يجعلنا من القائمين في الليل وان لا يحرمنا من فضل ثوابه وبركاته.

قال رسول الله(ص) «افضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»[١٦].

وروي عن النبي(ص) إنه قال: «شرف المؤمن صلاته بالليل وعزّه استغناؤه عن الناس»(١٧).

وقال(ص) في وصيته لأمير المؤمنين(ع): «وعليك بصلاة الليل» ـ وكرر ذلك ثلاثاً ـ وقال: «ألا ان المصلّين بالليل هم أحسن الناس وجوهاً لانهم خَلَوْا بالليل لله سبحانه فكساهم من نوره»[١٨].

وقال الصادق(ع) «عليكم بصلاة الليل فانها سنة نبيّكم. ودأب الصالحين قبلكم. ومطردة الداء عن اجسادكم»[١٩]. وروى هشام بن سالم عنه (ع) أنه قال في قول الله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل هي اشدّ وطئاً واقوم قيلاً﴾ قال: «قيام الرجل عن فراشه يريد به وجه الله لا يريد به غيره»[٢٠]. وساله عبدالله بن سنان عن قول الله عزّوجلّ: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال: «هو السهر في الصلاة»[٢١] وقال (ع)

في قول الله عزوجلّ ﴿إن الحسنات يذهبن السيّئات﴾ قال: «صلاة المؤمن في اليل تذ هب بما عمل من ذنب في النهار»[٢٢].

وعن ابي جعفر(ع) في قول الله عزّوجلّ: ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه﴾ قال «يعني صلاة الليل»[٢٣] وقيل على قراءة القرآن وقيام الليل.

وعنه (ع) عن قول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون﴾ قال «يعني ترفع جنوبهم عن مواضع اضطجاعهم لصلاة الليل وهم المتهجدون بالليل الذين يقومون عن فرشهم للصلاة»[٢٤].

وعن ابي الحسن (ع) في قوله تعالى: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الاّ ابتغاء رضوان الله﴾ قال: «صلاة الليل»[٢٥].

وعن ابي عبدالله(ع) أنه قال: «ان كان الله عزّوجلّ قال ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ إن ثماني الركعات يصليها العبد آخر الليل زينة الاخرة»[٢٦].

وعنه (ع) أنه جاءه رجل فشكا اليه الحاجة وأفرط في الشكاية حتى كاد أن يشكو الجوع. فقال له أبو عبدالله (ع) «يا هذا أتصلّي»؟ فقال الرجل: (نعم) فالتفت ابو عبدالله (ع) الى اصحابه فقال «كذب من زعم أنه يصلّي بالليل ويجوع بالنهار ان الله ضمن بصلاة الليل قوت النهار»[٢٧].

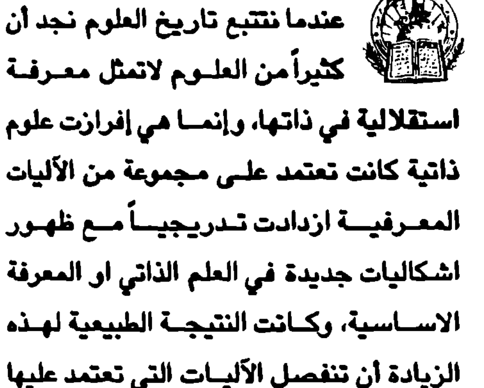
الهوامش

(١) تفسير العياشي ١:١١.
(٢) المصدر السابق ١:١٢.
(٣) المزمل: ٤ ـ ٢.
(٤) المزمل: ٢٠.
(٥) المزمل: ٢٠.
(٦) تفسير القرطبي ١٩:٣٥.
(٧) مجمع البيان ١٠:٧٧٣.
(٨) المصدر السابق.
(٩) فتح المنان من نسخ القرآن: ٥٣٢
(١٠) تفسير الصافي ٥:٢٤٢.
(١١) التمهيد ٢:٢٩٣.
(١٢) مجمع البيان ٢٠:٢٧٧.
(١٣) قال: وجدنا من السنة من ان الزيادة على الصلوات الخمس تطوّع.
(١٤) الاسراء: ٧٩.
(١٥) مجمع البيان ٤:٤٢٤.
(١٦) المحجة البيضاء ٢:٣٩٠.
(١٧) ارشاد القلوب، الديلمي ص٨٦
(١٨) المصدر نفسه: ص٩٢.
(١٩) المحجة البيضاء ٢:٣٩١.
(٢٠) المصدر نفسه ـ وسائل ٥: ٢٦٩.
(٢١) المصدر السابق.
(٢٢) المصدر السابق ص٣٩٢ ـ وسائل ٥: ٢٦٩.
(٢٣) مجمع البيان ٨:٤٦١
(٢٤) مجمع البيان ٨:٣٣١.
(٢٥) الوسائل ٥:٢٧٠.
(٢٦) المصدر السابق: ٢٧١.
(٢٧) المصدر السابق : ٢٧١ المحجة البيضاء ٢ : ٣٩٢.

* * *

علوم القرآن الكريم رأي في المنهج والتجديد

السيد محيي الدين المنعل



عندما نتتبع تاريخ العلوم نجد أن كثيراً من العلوم لاتمثل معرفة استقلالية في ذاتها، وإنما هي إفرازت علوم ذاتية كانت تعتمد على مجموعة من الآليات المعرفية ازدادت تدريجياً مع ظهور اشكاليات جديدة في العلم الذاتي او المعرفة الاساسية، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الزيادة أن تنفصل الآليات التي تعتمد عليها المعرفة الذاتية لتؤسس لها علماً مستقلاً يمثل في كثير من الأوقات، منهجاً نظرياً للعلم الذاتي يتم تطبيقه فيه.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ومختلفة، فلو لاحظنا على سبيل المثال، علم أصول الفقه الذي هو منطق الفقه ـ كما يعبر عنه السيد الشهيد ـ لما عثرنا له على أساسٍ بدون علم الفقه، فإن المطلوب من الفقه، ومن الفقيه هو أن يقدم حكماً شرعياً يمثل حكم اللّـه تعالى في الحياة ليعمل به المكلف، وحينئذ فما على الفقيه إلا ان يبحث عن مصادر الحكم كالكتاب والسنة في مختلف اقسامها لياخذ منها حكم اللّـه، و يبلغه للمكلفين. ولكنه عندما تعامل مع هذه المصادر وجد أنه امام كم هائل من الأشكاليات التأسيسية التي لايمكنه بدون حل جذري لها أن يقدم أي حكم من الأحكام، فأخذ يقدم لها حلاً في ضمن العملية الاستنباطية للحكم الشرعي ويدمجها مع المسألة الفقهية، ولكن كلما كثرت الحاجة من خلال تعقيد الحياة الاجتماعية إلى احكام جديدة، قد لاتكون موجودة في النصوص، زادت معها الاشكالات المنهجية التي هى بحاجة ماسة الى حل، فبدأ ـ وبشكل تدريجي ـ يتبلور علم جديد عبر عنه بعلم أصول الفقه، لم يكن ليوجد أساساً لو لا علم الفقه نفسه، وهكذا

علم الرجال، والدراية. وكثير من العلوم الأخرى.

والعلم المعبر عنه بعلوم القرآن هو الآخر له حالات، ومراحل تطورية تشبه الى حد كبير حالات علم أصول الفقه.

فإن علم (علوم القرآن) لم يكن ليوجد اساساً لولا علم التفسير، ولذلك أتصور أنه من غير المناسب أن يجعل علم التفسير واحداً من ضمن علوم القرآن، وإنما ينبغي أن يكون علم التفسير هو المنطق لتاسيس علوم القرآن التي تسهم في تفسيره، وتوضيح مرادات الله من خلاله.

فعندما كان القرآن ينزل على رسول الله(ص)، ما كان أحد بحاجة إلى معرفة المكي و المدني، والناسخ، والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، و غير ذلك لأن تفسير القرآن وبيان أحكامه المختلفة من فقهية، واقتصادية، واجتماعية، وغيرها كانت لها مرجعيتها المتمثلة في رسول الله(ص) وأهل بيته(ع) من بعده، وربما تمثلت هذه المرجعية بمظهر ضئيل جداً في بعض اصحاب رسول الله(ص) و بعض أصحاب أهل بيته(ع) ولكن بعد أن بَعُد الناس عن عصر النزول، وكذلك عن عصر ظهور المعصوم، وتراجده بين الناس، اضحت العملية التفسيرية لكتاب الله عملية معقده جداً خصوصاً مع امكان تحريف المعنى القرآني وتوجيهه بحسب الرغبة والهوى.

لذا كان لزاماً أن يكون هناك منهج متكامل بحفظ العملية التفسيرية على مستوى النص كما صرح به تبارك وتعالى في قوله: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾(الحجر:٩) كما يبقى مصوناً على مستوى المعنى والمضمون، من خلال عملية التفسير الصحيح والموضوعي.

لذلك كان لزاماً علينا أن نعيد النظر في المنهج الذي اتبعه العلماء في تأسيس مباحث علوم القرآن لنجد أن هناك علوماً لامدخلية لها في قضية التفسير، أو أنه لها دخالة ضئيلة جداً، كما أن هناك بحوثاً في علوم القرآن أمرها كذلك.

وعلى سبيل المثال يبحث في علوم القرآن أمر الاعجاز القرآني الذي هو بحث عقائدي في حقيقته، لان إعجاز القرآن ليس أمراً مرتبطاً بالتفسير، فإن التفسير الذي هو من التغير يعني كشف القناع عن وجوه اللفظ لمعرفة معانيها، وبالتالي اكتشاف المراد الحقيقي لله من خلال الاعتماد على الظاهر، وعلى أساليب المحاورة العرفية في اللغة العربية، وهذا أمر يتسنى بدون ان نبحث في معنى الاعجاز، ومظاهره، ومميزات المعجز كما نراه في كتب علوم القرآن التي تبحث المسألة بحثاً كلا سيكياً.

نعم لاشك أن البحث في المجال العقائدي لابد منه، بل هو من الضرورات الدينية التي لايختلف عليها أحد من المسلمين، وذلك لأن قضية إثبات كون القرآن قد نزل من عند اللّه متوقفة على كونه معجزاً ليس في مقدور البشر الاتيان به، ومن ثَمّ يمكن لنا أن نبحث بحثاً تفصيلياًفي الأصل الثالث من أصول الدين وهو النبوة عن قضية الإعجاز، ومظاهره المختلفة،وما يرتبط بهذا المطلب.

أما أن نبحث القضية في مباحث علوم القرآن بعد التسليم بأن مباحث علوم القرآن هي مباحث العلوم التي تخدم القرآن في تفسيره، فهذا من الأمور التي تخالف المنهج الصحيح في هذا العلم.

وكذلك نجد بحوثاً مفصلة حول ظاهرة الوحي في كتب علوم القرآن، وهذا المبحث أيضاً مبحث عقائدي من جهة تشابه الجهة التي توجد في مبحث الاعجاز، وكذلك هو تفسيري من جهة أخرى لاشتمال الكثير من الآيات على الاشارة إليه.

ولا أتصور أيضاً ان العملية التفسيرية متوقفة على معرفة تفاصيل هذا المبحث إذ أن المفسر لايتعامل مع القرآن الا على أساس أنه الوحي الذي انزل على رسول اللّه(ص)، والذي اعجز الانس والجن، وهذا مبحث عقائدي لابد من تأسيسه في البحث في أصول الدين.

نعم ربما يحاول بعض رواد تيار الحداثة الذين يرون أن السلطة الأولى والأخيرة للنقد، وللنقد فقط، أن يتعاملوا مع القرآن على أساس أنه نص أدبي مجرد من المقدسية، وتالياً ينفون عنه جهة الوحي، الأمر الذي قد يحتم على الباحث في علوم القرآن أن يدرس هذين الجانبين في هذا العلم ليقول للآخر بأن هذا الكتاب معجز بما يشتمل عليه من مستوى بياني فارد، وأُفُق بلاغي فريد، وبالتالي فهو وحي الهي، لايمكن نفي القداسة عنه بوجه من الوجوه.

لكن من الواضح جداً أن هذا البحث عقلي، ارتباطه بالجهة العقائدية اكبر بكثير من ارتباطه بالجهة التفسيرية. فما لم يؤسّس في البحث العقيدي ويُقبَل هناك فانه في علوم القرآن لن يكون مقدمة، وممهداً للعملية التفسيرية كما هو واضح.

ونجد أيضاً،عندما نراجع كتب علوم القرآن، بحوثاً تفصيلية حول طرق كتابة القرآن، وتاريخها، و تطورها، وهو بحث قد تكون له جدواه العلمية بل ربما حتى العملية ولكن لا ارتباط له بالتفسير، ولا اعتقد أن المفسر قد يرتطم في مقام البحث التطبيقي للعملية التفسيرية باشكالية لها علاقة بنقط المصحف، أو طريقة كتابة الكثير من الكلمات التي تفتقد بعض الحروف المقروءه

كـالسمٰوات وكـالصلٰوة، أو بعض الكلمـات التي فيها حروف زائدة غير مقروءة كما في قولـه تعالى في سـورة الكهف ﴿ولا تقولن لشَـايءٍ إني فاعـل ذلك غداً الا أ ن يشـاء اللّـه، واذكـر ربـك اذا نسيـت﴾.(الآية ٢٣/٢٤)

خصوصـاً وأن الفقهاء لايستشكلـون في كتابه القرآن بنصه بحرف غير عربي كما لـو أراد الانجليـزي أن يقـرأ القـرآن، وهـو لايعرف الحـرف العربي فبامكانـه أن يكتبه بحرفه الانجليزي ليقـرأه كما يقرأه العربي، كما أن الأعمى يمكنه أن يكتب النص القرآني بلغة (برايل) التي تعتمد على تخريق الورقة وهكذا...

وبشكل عـام فهناك بحـوث في علـوم القـرآن لاتخدم التفسيـر، ولاتمثل آليـة من آلياته تحتاج إلى دراسـة مستوعبة ليتعرف على فوائدها في مجال آخر غير التفسير إن كانت، وإلا فلا داعي لبحثها، واضاعة الوقت فيها.

كمـا أن هناك بحـوثـاً يشعر المفسـر المعـاصر بأنـهـا تخدم العمليـة التفسيريـة خـدمة مهمـة وأساسيـة ينبغي درجهـا في مباحث العلوم القرآنية، وعدم إغفالها كبعض نظريات اللغـة التي اكتشفت أخيراً، و بعض الآليات الحـديثة التي تسهم فـي فهم النص واستنطـاقه، كمـا فعل (السيـوطي) قديمـاً عنـدما أفـرد في كتـابه (الاتقـان في علـوم القرآن) بحوثاً لغويـة يفيد منها المفسر في العملية التفسيرية فائدة كبيرة.

والخـلاصـة أن المنهج العلمـي الـذي ينبغي أن يبتنى على أساسه قبول بحث ما، أو رفضـه ورده وجعلـه من مبـاحث علـوم القـرآن، أو اخراجـه منها هـو كـون البحث قـادراً على أن يكـون خـادمـاً للعمليـة التفسيريـة، وسهيما في نتـاج قرآني قـدير على مواكبة العصر، وحل اشكالياته.

وهذا قد يجعلنا نرفض الكثير مما يعده البعض مـن مبـاحث علـوم القـرآن، ونقبل الكثير أيضـاً مما قد لايعـدونه من مبـاحث علوم القرآن.

وعليـه فنحن لابـد لنـا دائمـاً ان نبـدأ بالتفسير من خلال مـا أسس لانجاح عملية التفسير، فإذا وجدنـا أننا لانحتاج إلى بحث من مباحـث علوم القرآن المدونـة، حتى في عملية واحدة من عمليـات التفسير يمكننا أن نستغني عن ذلك البحث، وإذا وجـدنا تكرر آلية معينة من مباحـث علوم القرآن في أكثر عمليـات التفسير، بحيث تمثـل ظاهـرة في العمل التفسيري، فـإنها لامحالـة تكون من مباحث علوم القرآن الأساسية والأولية، واذا وجدت آلية يقل استخدام المفسـر لها فإنها يمكن أن تـدرج في مبـاحـث علوم القـرآن، ويحسن تسميتها علـوم القرآن الثانـوية، أو غير الأساسية.

* * *

قصة آية
المعركة الأصعب

السيد مالك الموسوي



﴿واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انّها لكم وتودّون انّ غيرَ ذات الشوكة تكون لكم...﴾ (الانفال:٧)

افاقت من نومها مذعورة فزعة، عن رؤيا غريبة مروّعة.. وسرعان ما أخبرت أخاها برؤيتها: «رأيت رجلاً على بعير له ينادي يا آل غالب، اغدوا الى مصارعكم. ثمّ وافى بجمله على جبل ابي قُبَيس، فأخذ حجراً فدهدأه في الجبل، فما ترك داراً من دور قريش إلاّ واصابته منه فلذة»[١].

وانطلق العباس بن عبد المطّلب الى عتبة بن ربيعة، ليقصّ عليه رؤيا اخته عاتكة، فقال عتبة: «هذه مُصيبة تحدث في قريش».

وبلغت رؤيا عاتكة كلّ بيت من بيوت مكّة، واصبحت حديث الناس، حتّى بلغ نبأها ابا جهل، فاعتبر ذلك دعاية يبثّها بنو هاشم وسيلةً من وسائل الحرب النفسيّة... فقال مستهزئاً: «هذه نبيّة من بني عبد المطّلب؟! واللات والعُزّى لننظرنّ ثلاثة ايّام، فان كان ما رأت حقّاً، وإلاّ لنكتبنّ كتاباً بيننا انّه ما من أهل بيت اكذب رجالاً ونساءً من بني هاشم»[٢]. ثمّ قال: «ما يرضى رجالهم ان يتنبّأوا حتّى تتنبأ نساؤهم»[٣].

وما ان حلّ اليوم الثالث واذا برجل قد اقبل من خارج مكّة، والشررُ يتطاير من عينيه، قد جدّع أُذني بعيره، وشقّ قميصه، وحوّل رحله، وراح يصيح باعلى صوته:

يا آل غالب... يا آل غالب... اللطيمةَ اللطيمةَ[٤]... العيرَ العيرَ[٥]... أدركوا وما أراكم تُدركون... إنّ محمّداً والصُّباة[٦] من أهل يثرب قد خرجوا يتعرّضون لعيركُم، فتهيأوا للخروج».

لقد هزّ صوتُ مبعوث أبي سفيان الجهوري أحياء مكّة وبيوتها، وما بقي من

كبراء قريش إلاّ أخرج مالاً لتجهيز الجيش واصدروا قراراً صارماً: «من لم يخرج تهدم داره»[٧].

«ولم تملك قريش من أمرها شيئاً حتّى نفروا على الصعب والذلول[٨]، وتجهّزوا في ثلاثة أيّام، وهم تسعمئة وخمسون مقاتلاً، وقادروا مئة فرس عليها مئة دارع سوى دروع المشاة، وكانت ابلهم سبعمئة بعير، وهم كما ذكر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بَطَراً ورئاءَ الناس﴾[٩]»[١٠].

كان الرسول القائد صلّى الله عليه وآله قد خرج في ثلاثمئة وثلاثة عشر، يطلبون قافلة عظيمة لقريش، مقبلة من الشام، بقيادة ابي سفيان، قوامها الف بعير، تحمل النفيس من الطيب والحرير، ولم يكن عليها غير اربعين رجلاً وقيل سبعين.

وتسرّبت الأنباء الى ابي سفيان، فارسل ذلك الرجل لاستنفار قريش على أموالها وتجارتها، وحاول تغيير مسير القافلة باتّجاه ساحل البحر، بعيداً عن طريق المدينة، وترك بدراً يساراً، وانطلق سريعاً.

كان الركب الاسلامي يعيش الآمال العريضة بملاقاة العِير، وانّها لَمعركة قصيرة ويسيرة، سرعان ما تنتهي بغنيمة كبيرة... انّها ُغنم من دون غُرم، ونصر من غير جهد وعزم.

وبينما كان بعض الصحابة غارقاً في آماله وتطلّعاته، واذا بنبأ مسيرة الجيش الزاحف نحوهم لخوض معركة حاسمة، ينزل به جبرائيل على الرسول الكريم .

واراد الرسول القائد ان يَخْبُرَ نوايا اصحابه وعزائمهم، فاستشارهم في مواجهة النفير... وكم كانت صدمة فريق منهم كبيرة، ورأى انّ تطلّعاته تلك الّتي حدته للخروج ماهي إلاّ احلام واوهام، فأين العير من النفير؟! واين الاربعون من جيش جرار من المقاتلين؟!

لم يكن في معسكر المسلمين إلاّ فرسان، فرس للمقداد وآخر للزبير، وسبعون جملاً كانوا يتعاقبون عليها. وكان رسول الله وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد، يتعاقبون على جمل واحد!

ولمّا رآه صاحبا الفرسين جاءا اليه يرجوانه ان يأخذ احدهما فأبى، وحينما الحّ عليه صاحباه بان يبقى في ركوبه على الجمل دونهما، قال لهما: ما انتما بأقوى منّي على المشي، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما!

وانطلق بعض يجادل القيادة النبوية جدالاً طويلاً ومريراً، ليثبتوا له خطأ قرار المواجهة الصعبة القادمة، مع قوم ما ذلّوا مذ عزّوا، وما آمنوا منذ كفروا.

وانّها لمعركة معلومة النتائج سلفاً، خسارة جازمة مؤكّدة:

﴿كما اخرجك ربّك من بيتك بالحقّ وانّ فريقاً من المؤمنين لَكارهون * يُجادلونك في الحقّ بعدما تبيّن كانما يُساقُون الى الموت وهم ينظرون﴾ (الانفال: ٥ ـ٦)

«تلك هي حالتهم النفسية المتوترة، فيما كانوا يعيشونه من الهول والرعب والفزع، تماماً كما هي حالة المحكوم بالاعدام الّذي يمشي الى الموت امام جلّاديه، وهو يتطلّع الى المصير المحتوم بعينيه الخائفتين الغائمتين. وتتردد في مشاعرهم القلقة كلمة الخوف الساحق، انّها قريش، كيف نقاتلها بكلّ قوّتها وجبروتها؟»[11].

وقام احد الصحابة وخاطب الرسول القائد بقوله: «يا رسول اللّه! إنّها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت! ولا ذَلّت منذُ عزّت! ولم نخرج على هيئة الحرب. فأمره الرسول صلّى اللّه عليه وآله بالجلوس فجلس»[12].

وقام الآخر، فقال بمثل ما قام الأوّل: «يا رسول اللّه! إنّها واللّه قريش وعزّها، واللّه ما ذلّت منذُ عزّت، واللّه ما آمنت منذُ كفرت، واللّه لاتسلّم عزّها أبداً...»[13].

ثمّ قام المقداد بن الاسود بعدما راى غضب الرسول القائد وانزعاجه، فقال بكلّ صرامة وحزم: يا رسول اللّه! إنّها قريش وخيلاؤها، وقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا انّ ما جئت به حقّ واللّه لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس(١٤) لخضناه معك! واللّه ـ يا رسول اللّه ـ لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: **﴿اذهب انت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون﴾**... ولكنّا نقول: امض لأمر ربّك فانّا معكَ مقاتلون»[15]، «والّذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا الى برك الغماد لسرنا»[16].

يقول الصحابي عبد اللّه بن مسعود: «لقد شهدت من المقداد مشهداً لان اكون أنا صاحبه احبُّ اليّ ممّا في الأرض من شيء، كان رجلاً فارساً، وكان رسول اللّه اذا غضب احمرّت وجنتاه، فأتاه المقداد على تلك الحال، فقال: أبشر يا رسول اللّه، فواللّه لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: **﴿اذهب انتَ وربّك ...﴾** والّذي بعثك بالحقّ لنكوننّ من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك...»[17].

واستبشر الرسول الكريم صلّى اللّه عليه وآله بموقف المقداد خيراً، فقال: «اشيروا عليّ ايّها الناس»، وانّما كانَ يريد الانصار، لأنّ أكثر الناس منهم، ولانّهم

حينما بايعوه في العقبة لم يبايعوه على قتال خارج المدينة، فلهم الحقّ في اتّخاذ الموقف الّذي يرون، ولا غضاضة عليهم لو امتنعوا عن القتال.

احسّ الانصار انّ الرسول صلّى اللّه عليه وآله ينصدهم، فقام صاحب رايتهم سعد بن معاذ، فقال: بأبي انت وأمّي يا رسول اللّه! كأنّك أردتنا؟

فقال صلّى اللّه عليه وآله: نعم.

فقال سعد: «بأبي أنت وأمّي يا رسول اللّه! إنّا قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند اللّه، فمرنا بما شئت، وخذ من اموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت... وما اخذت من اموالنا احبُّ الينا ممّا تركت!

واللّه يا رسول اللّه لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك، وإنّا لَصُبُّر في الحرب، صُدُّق في اللقاء، ولعلّ اللّه عزّوجلّ أن يريك منّا ما تَقَرّ به عينك فسر بنا على بركة اللّه»[18].

ولم يكد سعد بن معاذ ان يتمّ كلامه حتّى اشرق وجه الرسول الكريم فرحاً، وتلألأ سروراً، فقال مخاطباً الجيش الإسلامي: «سيروا على بركة اللّه عزّوجلّ، قد وعدني احدى الطائفتين، ولن يخلف اللّه وعده...»[19].

﴿واذ يَعدُكم اللّهُ إحدى الطائفتَين انّها لكم وَتَودّون أنّ غيرَ ذات الشوكة تكونُ لكم ويُريد اللّه ان يُحقّ الحقّ بكلماته ويقطَعَ دابرَ الكافرين * ليُحقّ الحقّ ويُبطلَ الباطلَ ولوكَره المجرمون﴾(الانفال:٧ـ٨).

وفي الآيات المباركة وقصتها دروس رائعة، وعبر نافعة، لابدّ من الوقوف عندها ونحن نعيش صراع الحقّ مع الباطل في وقتنا الحاضر، ولعلّ من اهمّها:

الدرس الأوّل:

في مواقف الشدّة والكرب، يتمايز قلب عن قلب.. وتتبدّى خبيئة النفس على شكل عواطف ومشاعر ومواقف.

فالّذين يخفّون بالخروج، ويسرعون في تلبية نداء القيادة الشرعية في المعركة السهلة المتيقنة الغنيمة، يتثاقلون الى الأرض في المعركة الصعبة، ومواجهة ذات الشوكة.

لقد انطلق المسلمون من المدينة بسرعة الريح، يطلبون تلك القافلة الدسمة السمينة المحمّلة بأموال قريش وتجارتها، من الطيب والمسك والحرير، حتّى انها تسمّى اللّطيمة، ليس معها إلاّ أربعون رجلاً يحرسونها، لايملكون عدّة الحرب ومستلزماتها.

وبينما كان المسلمون يعيشون تطلّعات اللّقاء المرتقب مع تلك القافلة، وما يسفر عنها من نتائج ايجابية طيّبة، على مختلف الأصعدة، جاء الأمر الربّاني بالاستعداد لمواجهة النفير بعد أن فاتهم العِير، والتهيؤ لملاقاة جيش جرّار قوامه ألف فارس إلاّ خمسين، قد اعدّوا للحرب عدّتها وللمعركة اسلحتها!

وما ان ابلغهم الرسول القائدصلّى الله عليه وآله بالنبأ، اذا ببعض منهم تتكسّر أحلامهم على صخرة الحقيقة، وباتت أقدامهم ليست بقادرة على أن تحمل اجسامهم الّتي كانت خفيفةً كالريشة قبل قليل، بل وصلت الجرأة بفريق منهم أن يقفوا وجهاً لوجه أمام الرسول الكريم ليمعنوا في الجدال والخصومة، وليثنوه عن أمر ربّاني، وقرار الهي، نزل به جبرائل الأمين: ﴿وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحقّ بعدما تبيّن﴾ (الأنفال: ٥-٦).

فرغم تبيّن الأمر، وصدور القرار، بالتوجّه الى ملاقاة النفير، لخوض المعركة الأصعب مهما كانت التضحيات والمتاعب، رغم كلّ ذلك ما فتيءَ هؤلاء يجادلون وهم يستعرضون القوّة الاسطورية التاريخية للعدو الّذي ما عرف الذّل والهوان يوماً من الأيّام!

هكذا دائماً وابداً يحاول المبطّئون الكارهون للنزال والمواجهة والقتال، أن يفلسفوا تخلّفهم وانهزامهم، ليُضفوا على مواقفهم المتخاذلة مسحةً شرعية، وسمة «عقلانية»، تظهرهم في موقف الحريص على الاسلام ودولته وقيادته، وليس على انفسهم وذواتهم، فيما ينظرون إليه من نظرة «واقعية»، مستمدّه من معرفة بقوى الصراع المحلّية والاقليمية والدولية.

ولكنّ القرآن الكريم دائماً وابداً يقف لهؤلاء بالمرصاد، فيفضح كوامنهم، وما يعتمل في داخلهم من رعب وخوف وجبن، ليكشف للملأ حقيقتهم.

﴿يجادلونك في الحقّ بعدما تبيّن كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون﴾(الأنفال٦).

إنّه تصوير رائع ساخر لاذع، للرعب والقلق والفزع، الّذي تشرّبت به النفوس، وفاضت به القلوب، ففقدت كلّ أمل في الحياة، ويئست من روح اللّه، فانهارت كلّ التطلعات الّتي كانوا عليها قبل لحظات، قبل ان يتبيّن الحقّ بانفلات القافلة الّتي لم تُبق لهم غير خيار واحد، وطائفة واحدة، ولكنّه الخيار الأصعب، والطائفة ذات الشوكة والقوّة والمنعة.

وكأنّهم بذهاب القافلة وانفلاتها، ذهبت

قلوبهم، وانفلتت عقولهم، فعاشوا وجهاً لوجه أمام غول الموت الرهيب، وهم يرونه بأمّ أعينهم القلقة الحائرة فاغراً فاه ليبتلعهم!!

وهكذا هي طبيعة القرآن في صناعة الأمّة الشاهدة القائدة من خلال الأحداث والمحن والابتلاءات، إنّه يتابع خطواتها في ساحة الصراع وميدان المواجهة، ليسجل انكساراتها وانتصاراتها على حدّ سواء، ويرسم حركة المهزومين والثابتين معاً، بل يخترق النفوس والقلوب ليصوّر مدى رعبها أو اطمئنانها، شكّها او يقينها، لتتجلّى المواقف الصادقة من غيرها.

من هذا المنطلق فانّ الحديث القرآني عن نقاط الضعف انّما هو «حديث توعية وتنبيه وتحذير، من اجل أن نراقب ذلك كلّه في انفسنا، لنواجه حالات الاهتزاز الداخلي والخارجي بالمزيد من عوامل التركيز والتثبيت... فانّ الانسان الّذي لايكتشف نقاط الضعف في حياته، لايستطيع تنمية عناصر القوّة في ذاته، لانّ الهروب من وعي المشكلة، لايهزمها بل يُعقّدها ويشلّ فيها ارادة الحلّ، وهذا هو السبيل الّذي يُريد الاسلام للمسلم ان يسير فيه: أن يواجه الواقع كما هو فيه، فيعترف بسلبياته وايجابياته، ثمّ يعالج السلبيات من مواقع الايجابيات، لينتهي الى النتيجة الحاسمة في النصر والفلاح من موقع المواجهة القويّة، بكلّ ما تستلزمه من آلام وتضحيات»[٢٠].

ففي معركة الأحزاب، حينما: «زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر»، وانطلقت الظنون السيئة بانكسار الاسلام واندحاره والى الأبد، تلعبُ دورها: ﴿وتظنّون بالله الظنونا﴾[٢١]، وشاعت الأراجيف تملأ ساحة المواجهة، لتثبط الهمم الضعيفة: ﴿يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا﴾، ممّا حدا بهم لأنّ ﴿يستأذن فريق منهم النبيّ﴾، مختلقاً الحجّة والعذر ﴿يقولون إنّ بيوتنا عورة﴾... هنا... كان لابد للقرآن من أن يقول كلمته، بافتضاح الأسرار الكامنة وراء تلكم الأعذار ﴿وما هي بعورة إن يُريدون إلاّ فراراً﴾[٢٢].

ولقد صوّر لنا القرآن بصورة متحرّكة «كاريكاتوريّة» هؤلاء المتخاذلين المهزومين من الداخل والخارج، الّذي يعيشون ساعة العسرة، وكأنّها ساعة الاحتضار، بكلّ ما فيه من رهبة ومرارة وسكرة: ﴿اشحّة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالّذي يُغشى عليه من الموت﴾[٢٣].

انّها «صورة شاخصة، واضحة الملامح، متحرّكة الجوارح، وهي في الوقت

ذاته مضحكة، تُثير السخرية من هذا الصنف الجبان، الّذي تنطلق اوصاله وجوارحه في لحظة الخوف والجبن المرتعش الخوار!»[٢٤].

ولكن هؤلاء المتخاذلين المختبئين في الجحور، والصامتين كصمت أهل القبور، اذا ما وضعت الحرب أوزارها، وذهب الخوف والرعب، ينزلون في وسط الميدان، وتنطلق السنتهم الحداد بفنون البيان، ليدّعوا في غير حياء «ما شاء لهم من الادّعاء، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال والشجاعة والاستبسال»[٢٥]: **﴿فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد اشحّة على الخير...﴾**[٢٦]!!

* * *

الدرس الثاني:

لقد اراد اللّه سبحانه للمسلمين أن يخوضوا المعركة الأصعب، بدلاً من المواجهة مع القافلة، لأنّ النصر المؤزّر يأتي في ساحات الجهاد الصعبة، والّتي من خلالها تتحقق الأهداف الكبرى من هيمنة الحقّ المتمثّل بالمنهج الربّاني على الحياة، وهزيمة اعداء الاسلام في مواقع التحدّي، واستئصال قوّتهم وتوهين دولتهم: **﴿وإذ يعدُكم اللّه احدى الطائفتين أنّها لكم وتَوَدّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم﴾**(الأنفال:٧).

ذلك لأنّ طبيعة النفوس البشرية تتطلّع الى نصر من دون جهد ومعاناة، وظفر من غير اقتحام للعقبات، وهذا ما يرفضه منطق التاريخ وسنن الصراع: **﴿ويريد اللّه أن يُحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليُحقّ الحقّ ويُبطل الباطلَ ولو كرهَ المجرمون﴾** (الأنفال:٧ـ٨).

ذلك لأنّ الحقّ لايحقّ إلاّ من خلال المعارك الحاسمة، الّتي يبذل فيها المجاهدون كلّ ما لديهم من قوى كامنة، فلا يدّخرون وسعاً ولا جهداً، فالارادةُ الالهية بنصر المؤمنين وتمكينهم في الأرض لاتتحقّق بصورة اعجازية أو عفوية، ولا على ايدي الملائكة المنزلين، بل تتحقّق على ايدي المؤمنين المجاهدين الصابرين.

وحتّى لو نزلت الملائكة، فانّها لاتكون بديلاً عن ضرباتهم ورميتهم، ولا تقاتل نيابةً عنهم، بل انّ دورها ـ كما هو ظاهر ـ تسديد ضرباتهم، وتثبيت اقدامهم، وارعاب اعدائهم: **﴿اذ يوحي ربّك الى الملائكة إنّي معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سالقي في قلوب الّذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان﴾** (الأنفال:١٢).

بل إنّ نزول الملائكة نفسه، مرتبط

بالجهد البشري، والإرادة الانسانية، وما يوفره المجاهدون في ساحة التحدّيات من جهد وتقوى وثبات: ﴿بلى ان تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾ (آل عمران: ١٢٥).

يقول المرجع الشهيد محمد باقر الصدر: «هناك امداد الهي غيبي، ولكنّه شُرطَ بسنّة التاريخ شُرطَ بقوله: ﴿بلى ان تصبروا وتتّقوا﴾ اجملت هنا شروط التاريخ الّتي فُصّلت في الآيات الأخرى. اذن هذا الامداد الغيبي أيضاً مرتبط بسنّة التاريخ»[٢٧].

إنّ حرص القرآن على تأكيد الارادة الانسانية واعطائها الدور الفاعل في حركة التاريخ، من خلال ربط الامدادات الغيبيّة بها، يعبّر عن مدى الطابع السنني الموضوعي في تفسير التاريخ وما يزخر به من احداث ووقائع، ليعيش المؤمنون البصيرة في تفسير الهزيمة والنصر، فالنصر والفوز والظفر ليست «حقّاً إلهياً» للمسلمين على إيّة حال، بل هو «حقّ طبيعي» لهم بقدر ما يمكن أن يوفروا «الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ الّتي وضعها اللّه سبحانه وتعالى كونياً لاتشريعياً»[٢٨].

«بل يذهب القرآن الى أكثر من ذلك، يهدد هذه الجماعة البشريّة بأنّهم اذا لم يقوموا بدورهم التاريخي، واذا لم يكونوا على مستوى مسؤولية رسالة السماء ، فانّ هذا لايعني أن تتعطّل رسالة السماء، ولايعني أن تسكت سنن التأريخ عنهم، بل انّهم سوف يستبدلون»[٢٩]: ﴿إلاّ تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً واللّه على كلّ شيء قدير﴾ (التوبة: ٣٩).

من هذا المنطلق فانّ الارادة الالهية في بدر لم تشأ للمسلمين القافلة والعير، رغم ارادتهم لها، وكراهيتهم لمواجهة الجيش والنفير، لأنّ إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل لايتحققان في غير ذات الشوكة، حيث المارك الصعبة، وما تتطلبه من جهود وآلام وتضحيات جسام.

يقول المفسّر الشهيد سيّد قطب في ظلاله: «وينظر الناظر اليوم، وبعد اليوم، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وما أراده اللّه لها، بين ما حسبته خيراً لها وما قدّره اللّه لها من الخير، ينظر فيرى الآماد المتطاولة؛ ويعلم كم يخطئ الناس حين يحسبون أنّهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً ممّا يختاره اللّه لهم؛ وحين يتضرّرون ممّا يريده

الله لهم ممّا قد يعرّضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى، بينما يكمن وراءه الخير الّذي لايخطر لهم ببال، ولا بخيال!

فاين ما ارادته العصبة المسلمة لنفسها ممّا اراده اللّه لها؟ لقد كانت تمضي ـ لو كانت لهم غير ذات الشوكة ـ قصّة غنيمة، قصّة قوم أغاروا على قافلة فغنموها! فأمّا بدر فقد مضت في التأريخ كله قصة عقيدة، قصّة نصر حاسم وفرقان بين الحقّ والباطل، قصّة انتصار الحقّ على اعدائه المدجّجين بالسلاح المزوّدين بكلّ زاد؛ والحقّ في قلّة العدد، وضعف في الزاد والراحلة. قصّة انتصار القلوب حين تتصل باللّه وحين تتخلّص من ضعفها الذاتي. بل قصّة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال! ولكنّها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادّي، وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها، قد انتصرت على نفسها، وانتصرت على من فيها، وخاضت المعركة والكفّة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل؛ فقلبت بيقينها ميزان الظاهر؛ فاذا الحقّ راجح غالب»[٣٠].

وتبقى معركة بدر بكلّ فصولها وملابساتها الّتي عرضتها سورة الأنفال، «كتاباً مفتوحاً» تقرؤه الأجيال، لتأخذ منه دروس النصر والهزيمة، وسنن الانتصار والانكسار، وتبصر فيه حركة التأريخ، وتداول الأيّام، بحقائقها الثلاث: الربّانية والإنسانية والاطراد[٣١]: **﴿فلم تقتلوهم ولكنّ اللّه قتلهم، وما رميت اذ رميت ولكنّ اللّه رمى وليُبليَ المؤمنين منه بلاءً حسناً إنّ اللّه سميع عليم * ذلكم وانّ اللّه موهن كيد الكافرين﴾** (الأنفال:١٧ـ١٨).

الهوامش

(١) الطبرسي: مجمع البيان،٤:٨٠٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الزمخشري: الكشّاف،٢:١٩٧.

(٤) اللّطيمة: وهي العِير التي تحمل الطيبَ والمسكَ والثيابَ، وليس فيما تحمله طعام يؤكَل.

(٥) العِير: القوم الّذين معهم احمال الميرة، وذلك اسم للرجال والجمال الحاملة للميرة، وإن كان قد يستعمل في كُلّ واحد من دون الآخر. «مفردات الراغب».

(٦) الصّباة: المرتدون. ويقصد المسلمين باعتبارهم قد صباوا عن دين قريش!

(٧) الطبرسي: مجمع البيان، ٤:٨٠٣.

(٨) الذلول: الدابّة الّتي ليست بصعبة.

(٩) الانفال:٤٧.

(١٠) سيّد قطب: في ظلال القرآن، ٣:١٤٥٥، نقلاً عن «امتاع الاسماع» للمقريزي.

(١١) فضل اللّه: من وحي القرآن، ١٠:٢٦٠.

(١٢) الطبرسي: المجمع، ٤:٨٠٣، وقد صرّحت الرواية بذكر القائل وهو الصحابي ابو بكر.

(١٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢:١٤٥٦، نقلاً عن «إمتاع الأسماع» للمقريزي، حيث صرّحت بذكر القائل وهو الصحابي عمر بن الخطّاب.

(١٤) الغضا: شجر عظيم من الأثل، خشبُه من أصلب الخشب، ولهذا يكون في فحمه صلابة، وجمره يبقى زماناً طويلاً لاينطفئ.

الهراس: شجر شائك.

(١٥) المجمع، ٤:٨٠٣.

(١٦) الظلال، ٣:١٤٥٦، نقلاً عن «إمتاع الأسماع» للمقريزي، راجع كذلك مجمع البيان.

(١٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٢:١٤٠.

(١٨) المجمع، ٤:٨٠٣.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) فضل الله: من وحي القرآن، ١٠:٣٦٢.

(٢١) الأحزاب:١٠.

(٢٢) الأحزاب:١٣.

(٢٣) الأحزاب:١٩.

(٢٤) سيّد قطب: في ظلال القرآن، ٥:٢٨٤٠.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) الأحزاب:١٩.

(٢٧) محمّد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ٨٢.

(٢٨) المصدر نفسه:٥٠.

(٢٩) المصدر نفسه:٥١.

(٣٠) سيّد قطب: في ظلال القرآن، ٣:١٤٨٢.

(٣١) راجع: محمّد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، الدرس الخامس.

* * *

منهج السُّيوري في آيات الأحكام

علي الكعبي



يتناول هـذا المـوضـوع عـرضـاً لكتـاب (كنـز العرفـان في فقـه القرآن) للفاضل المقـداد السُّيوري، المتوفّى سنة ٨٢٦هـ مع تعريفٍ بحياة المؤلّف.

اسمه وكنيته وأشهر ألقابه[١]:

هو أبو عبد الله بن محمّد بن الحسين بن محمّـد السُّيـوري[٢]، الحلـي، الأسـدي، المعـروف بالفـاضل السُّيـوري، والفـاضل المقداد.

مشايخه:

لم يُعـرَف من مشايخـه غير محمّـد بن مكي النبطي، العاملي، الجذيني، الشهيد سنة ٧٨٦هـ والمعروف بالشهيد الأوّل، فقد تلمذ السُّيوري له، وأخذ عنه.

* * *

تلامذته:

تلمذ له وروى عنه جملـة من الأفاضل المعروفين في عصره، ومن أشهرهم:

١ ـ الشيخ حسن بن راشد الحلّي.

٢ ـ الشيخ سيف الدين الشفرابي.

٣ ـ الشيخ ظهير الدين بن عليّ بن زين الدين العاملي العيناثي.

٤ ـ الشيخ عبد الله بن المقداد السُّيوري.

٥ ـ الشيخ عبدالملك بن إسحاق الحافظ القمّي القاساني.

٦ ـ الشيخ زين الـديـن عليّ التـوليني النحاريدي العاملي.

٧ ـ الشيخ عليّ بن الحسن بن غلالة،أو علالا.

٨ ـ الشيخ عليّ بـن هلال الجـزائري العراقي.

٩ ـ الشيخ محمّد بـن شجاع القطّـان الانصاري الحلّي.

مصنَّفاته:

ترك الفاضل المقداد ثروة فكرية كبيرة، تـدلّ على سعـة اطـلاعـه، وتنوّع ثقـافتـه وغزارتها، فقد كان فقيهـاً وأُصولياً ومتكلّماً ومفسّراً، ومن أهم مصنّفاته:

١ ـ آداب الحجّ، رسالة ألّفها سنة ٧٧٩هـ.

٢ ـ الأدعية الثلاثون.

٣ ـ الأربعون حديثاً، ألّفه لولده عبدالله، سنة ٧٩٤هـ.

٤ ـ إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين، في أُصول الدين وهو شرح كتاب (نهج المسترشدين) للعلامة الحلّي، المتوفّـى سنة ٧٩٢هـ وهو مطبوع في بومبي سنة ١٣٠٣هـ.

٥ ـ الأسئلة المقدادية، وهي تضمّ ٢٧٠ مسألـة، سألها مـن شيخه محمّـد بن مكّي العاملي، الشهيد سنة ٧٨٦هـ مع أجوبتها.

٦ ـ الأنوار الجلاليّة في شرح الفصول النصيريـة المعرّبة، للخـواجه نصير الـدين الطوسي المتوفّى ٦٧٢.

٧ ـ تجـويد البداعـة في شرح تجـريد البلاغة، للعلاّمة ابن ميثم البحراني المتوفّى بعد سنة ٦٨١هـ.

٨ ـ تفسير مغمضات القرآن.

٩ ـ التنقيح الرائع في شـرح مختصر الشرائع، للمحقّق الحلّي، المتوفّى سنة ٦٧٦هـ.

١٠ ـ جامع الفوائد في تلخيص القـواعد، وهو ملخّص لقواعد أُستاذه الشهيد الأول.

١١ ـ رسالة في وجـوب مراعاة العدالة في من يأخذ حجّة النيابة.

١٢ ـ شرح الفية الشهيد الأول.

١٣ ـ كنز العرفان في فقه القرآن، وهو مورد بحثنا في هذا المقام.

١٤ ـ اللـوامع الالهيـة فـي المسـائل الكلامية، في علم الكلام.

١٥ ـ النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، للعلامة الحلّي.

١٦ ـ نضد القواعـد الفقهية على مذهب الاماميـة، في ترتيب قـواعد شيخـه الشهيد الأول، وأضاف إليه فوائد جليلة.

١٧ ـ نهـاية المأمول في شـرح مبادئ الوصول للعلامة الحلّي والكتاب في علم الأُصول.

١٨ ـ نهـج السداد إلى شـرح رسالـة واجب الاعتقاد على جميع العباد، للعلامة الحلّي.

وفاته:

توفّي ـ كمـا أرّخه تلميذه الشيخ حسن بن راشـد الحلّـي ـ في المشهـد الغـروي، ضحى نهار الأحد، السـادس والعشرين من جمادى الآخـرة سنة ٨٢٦هـ ودفن بمقابر المشهد المذكور.

كنز العرفان في فقه القرآن:

قصر السُّيوري كتابه هذا على تفسير

الآيات المتضمّنة للأحكام الشرعية، وسنتعرف في ما يلي على طبعات الكتاب، والدوافع إلىٰ تأليفه، ومحتواه، وأُسلوب المؤلّف في التفسير.

طبعات الكتاب:

١ ـ طُبع في ايران سنة ١٢١٥هـ على حاشية التفسير المنسوب إلى الامام العسكري(ع).

٢ ـ طُبع مستقلاً في طهران سنة ١٣٣١هـ وفي أوّله ترجمة المؤلّف عن كتاب (روضات الجنات)، وفيه هوامش كثيرة عن كتب التفسير.

٣ ـ طُبع بجزأين في طهران سنة ١٣٤٣هـ نشر المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، تعليق: الشيخ محمّد باقر شريف زاده، تصحيح وتخريج: محمّد باقر البهبودي.

الدوافع إلىٰ تأليفه:

بيّن المصنّف في خطبة الكتاب الدوافع التي حدَتْه إلى تصنيف هذا الكتاب، بقوله: «أما بعد، فإن القرآن بحر لا تغنى عجائبه، ولجّ لا تنقضي غرائبه... وكانت الآيات الكريمة التي هي مرجع جملة من مسائله، أجلّ حجج فتواه، وأكبر دلائله، قد اعتنى العلماء بالبحث عنها، واستخراج السرّ الدفين منها، لكنّي لم أظفر بكتاب في تنقيح تلك الآيات بما يبرد الغليل، ويشفي العليل، ويحتوي على جملة ما يبتغيه الراغب، ويستطرفه الطالب، بل إمّا مسهب بذكر الأقاويل والأخبار، أو مقصّر قد ملّ بالايجاز والاختصار، فحداني ذلك على وضع كتاب يشتمل على فوائد قد خلا عنها أكثر التفاسير، وفرائد لم يعثر عليها إلاّ كلّ نحرير، وضممت الى ذلك فروعاً فقهية تقتضيها نصوص تلك الآيات أو ظواهرها»[٣].

ترتيبه ومحتواه:

رتّب المصنّف تفسيره هذا على مقدّمة وكتب، أمّا المقدّمة فقد ضمّنها ثلاث فوائد، ثمّ شرع في الكتب، وهي: الطهارة، الصلاة، الصوم، الزكاة، الخمس، الحجّ، الجهاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المكاسب، البيع، الدين وتوابعه، كتاب فيه جملة من العقود[٤]، النكاح، المطاعم والمشارب، المواريث، الحدود، الجنايات، القضاء والشهادات.

ومن هذا يتّضح أن الكتاب مرتّب طبقاً لترتيب أبواب الفقه، وهو لم يتّبع طريقة تفسير الآيات بحسب ترتيبها في القرآن الكريم سورة سورة، ذاكراً ما في كلّ سورة

مـن آيـات الأحكـام، كمـا فعـل الجصّـاص المتوفّى سنه ٣٧٠هـ في (أحكام القرآن)، وابن العـربـي المتـوفّى سنـة ٥٤٦هـ في (أحكام القـرآن)، والقرطبـي المتوفّى سنـة ٦٧١هـ فـي (الجـامـع لأحكـام القـرآن) وغيرهم، بل إنّه عقد كتباً طبقاً لترتيب أبواب الفقه، جـاعلاً في كلّ بابٍ منهـا الآيات التي تنضوي تحت موضوعٍ واحدٍ، ثمّ يشرع في تفسيرهـا، كما أنّـه ألحق في كلّ كتـاب عدّة فوائد وفروع تتعلّق به، وتنتظمُ معه انضماماً موضوعياً رائعاً.

ولعلّـه تأثـر بقطب الـدين الـراونـدي المتوفّـى سنة ٥٧٣هـ صاحب كتاب (فقه القرآن) حيث رتّبه طبقـاً لأبواب الفقه أيضاً، مع بعـض الاختلاف في التقـديم والتأخيـر وفي الفروع والفوائد، وقـد اعتمده الفاضل المقداد في تفسيره هـذا، وردّ على جملةٍ من آرائه.

طريقته وأسلوبه في التفسير:

يعتبر هذا التفسير مـن أجلّ التفاسير، وأكثرها دقّـةً في طريقة الاخـراج والتبويب، وقد أثبت فيـه مصنّفه أحكام القـرآن الكريم واستنباط الأدلة الشرعية بطريقةٍ فائقةٍ، تلمّ بشتات الموضوع، وتنمّ عن خبرةٍ فائقةٍ في هـذا المجـال، ويمكن تحـديـد معـالم هـذه الطريقة بالنقاط التالية:

١ ـ يشرع تفسيره في كلّ كتاب ببيان المعنى اللغوي والشرعي لكلّ باب مشفوعاً بذكر الشـواهد القرآنية واللغويـة، فمثلاً في أول كتاب الصلاة، قال: «وهـي لغة: الدعاء، قال الله تعـالى: ﴿وصلّ عليهم﴾[٥] أي ادع لهم، وقال الأعشىٰ:

عليك مثل الذي صلّيت فاغتمضي
نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا

وقيـل: أصلهـا من رفـع الصـلاة فـي الركوع، وهو عظم في العجز.

وشرعاً، قيل: هي أذكار معهودة مقترنة بحركات وسكنات يتقرب بها إلى الله تعالى. قيل: هـو منقـوض طرداً بـأذكار الطـواف، وعكساً بصلاة الأخـرس، والأولى أنّها أفعال معهودة يجب فيها القيـام اختياراً، افتتاحها التكبير، واختتامها التسليـم، يتقرّب بها إلى الله تعالى»[٦].

٢ ـ ثمّ يعدّد الآيات التي تخصّ كلّ باب أو فرع أو فائدة، ويبدأ بتفسيـر الآيات فقرة فقرة، شـارحاً غـريبها، ملخّصـاً أحكامهـا، ويتعرّض لـلاعراب والقراءات بالقـدر الذي يـرتبـط بمعنـى الآيـة والحكـم الشـرعـي المستنبط منها.

كمـا ويسـرد أقـوال أئمـة المـذاهـب الاسـلاميـة المختلفـة، مالكيـة وشـافعيـة وحنبلية وحنفية وظاهرية ومعتزلة وغيرهم،

لاسيّما في مسائل الخلاف، ويتعرّض أيضاً لأقوال المفسرين لاسيّما الطوسي والطبرسي والزمخشري وغيرهم.

٣ ــ يعتمد الدليل النقلي والعقلي في ردوده على بعض أقوال أئمة المذاهب والمفسرين، وأكثر اعتماده في هذا الباب على الأحاديث المروية عن الرسول الأكرم(ص) وأهل بيته الطاهرين (ع) وأقوال الأصحاب من فقهائنا المتقدّمين. ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾[٧]، قال: «اتفق المفسّرون على أنّ المراد بالنداء هنا الأذان، فيستدلّ بذلك على مشروعيته... واختلف في سبب الأذان، فعند العامّة: أن أبا محذورة رأى في المنام أنّ شخصاً على حائط المسجد يورد هذه الألفاظ المشهورة، فانتبه فقصّ الرؤيا على رسول الله(ص)، فقال له: إنّه وحي، انده على بلال، فإنّه أندى منك صوتاً. وأنكر أئمّتنا ذلك، وقالوا: إنّه وحي من الله تعالى على لسان جبرئيل[٨] ثمّ أورد الرواية عن منصور بن حازم، عن الصادق(ع).

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿فصلّ لربّك وانحر﴾[٩]، قال: «أكثر المفسّرين على أنّ المراد صلاة العيد، والنحر: الهدي أو التضحية. قال أنس: كان النبي(ص) ينحر قبل أن يصلّي الغداة، فأمره الله أن يصلّي ثم ينحر.

وقيل: معناه صلّ لربك الصلاة المكتوبة، واستقبل القبلة بنحرك، يقول العرب: منازلنا تتناحر، أي هذا ينحر هذا، أي يستقبله، وأنشد:

أبا حكم ها أنت عمّ مجالد
وسيّد أهل الأبطح المتناحر

أي ينحر بعضه بعضاً، قاله الفرّاء.

وروى الجمهور عن عليّ(ع): أنّ معناه ضع يدك اليمنى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة، وهذا نقل باطل عنه، بل كذب وزور عليه، لأنّ عترته الطاهرة مجمعون على خلافه، والذي ورد عنهم روايات:

الأولى: روى عمر بن يزيد، قال: سمعت الصادق(ع) يقول في قوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ هو رفع يديك حذاء وجهك.

الثانية: عبدالله بن سنان، عنه مثلها.

الثالثة: عن جميل بن دراج، قال قلت للصادق (ع): ما معنى ﴿فصلّ لربك وانحر﴾[١١]، إلى آخر ما ذكره من الروايات.

٤ ــ لم يكن الفاضل المقداد متأثّراً بمن سبقه من مفسّري أحكام القرآن الكريم وغيرهم من المفسّرين إلى الحدّ الذي يتعبد

بآثارهم، ويقتصر على نقل أقوالهم، بل نجده كثيراً ما يردّ حتّى على الشيعة الاماميه منهم ـ كالقطب الراوندي المتوفّى سنة ٥٧٣هـ صاحب (فقه القرآن)، ومعاصره الشيخ أحمد بن عبدالله بن المتوّج البحراني، صاحب (منهاج الهداية في شرح آيات الأحكام الخمسماية) ـ فضلاً عن الزمخشري وغيره، بل ويبيّن رأيه في مزيدٍ من المسائل، ممّا يدلّ على سعة علمه وتفقّهه واجتهاده.

ففي تفسيره لقوله تعالى: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي﴾**[١٢] الآية.

قال: استدلّ بهذه الآية المعاصر على قتال البغاة وهو خطأ، فإن الباغي هو من خرج على الامام العادل بتأويل باطل وحاربه، وهو عندنا كافر لقوله(ص) لعليّ(ع): يا علي، حربك حربي، وسلمك سلمي. فكيف يكون الباغي المذكور مؤمناً حتّى يكون داخلاً في الآية؟

ولا يلزم من ذكر لفظ البغي في الآية أن يكون المراد بذلك البغاة المعهودين عند أهل الفقه، كما قال الشافعي: ما عرفنا أحكام البغاة إلّا من فعل عليّ. يريد فعله في حرب البصرة والشام والخوارج من أنّه لم يتبع مدبري أهل البصرة والخوارج، ولم يجهز على جريحهم لأنّهم ليس لهم فئة، وتبع مدبري أهل الشام وأجهز على جريحهم؛ ولذلك لم يجعلها الراوندي حجة على قتال البغاة، بل جعلها في قسم من يكون من المسلمين أو المؤمنين، فيقع بينهم قتال، وتعدّي بعض على بعضٍ، فيكون البغي بمعنى التعدّي، فيقاتَلُ المتعدّي حتّى يرجع عن تعدّيه إلى طاعة الله، وامتثال أوامره.

قال الراوندي: ذكر الطبري أنّها نزلت في طائفتين من الأنصار، وقع بينهما حرب وقتال. نعم استدلّ الراوندي على قتال أهل البغي بقوله تعالى: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله﴾**[١٣] أي انفروا شُبّاناً وشيوخاً وأغنياء وفقراء ومشاةً وركباناً. قال: وظاهر الآية يقتضي قتال البغاة؛ وهو أيضاً غلط، فإنّ أي ظاهر فيها يدلّ على قتال البغاة حتّى يكون حجّة على المطلوب؟ بل ظاهرها يفيد تأكيد الأمر بالجهاد والمبالغة في ذلك، كذا ذكره الطبرسي وغيره، فيكون المراد بذلك جهاد الكفّار المعهودين.

نعم، إن كان ولابدّ يستدلّ على قتال البغاة بعموم وجوب طاعة أولي الأمر في قوله تعالى: **﴿يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر**

منكم﴾[14]، أو بقوله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم﴾[15].

والمنافق من ظاهره الاسلام، والباغي كذلك، لاظهاره الاسلام وخروجه عنه ببغيه على إمامه، فهو حقيق باسم النفاق، ولذلك قال النبي(ص) لعليّ(ع): لا يحبّك إلا مؤمن تقيّ، ولا يبغضك إلاّ منافق شقيّ. (رواه النسائي في صحيحه)، ورويناه نحن أيضاً في أخبارنا، ومن يحاربه لا يحبّه قطعاً، فيكون منافقاً وهو المطلوب.

ولا يلزم من عدم جهاد النبي(ص) للمنافقين عدم ذلك بعده ولذلك قال عليّ (ع) يوم الجمل: والله ما قوتل أهل هذه الآية إلاّ اليوم. يريد به قوله تعالى:﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر﴾[16] الآية»[17].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾[18].

قال: « قال المعاصر: ويمكن الاستدلال بها على أنّ مانع الزكاة مستحلٌ مشرك، وهو حقّ لأنّ من لا يعتقد وجوبها كافر.

قلت: في هذا الكلام خطأ لفظاً ومعنى: أمّا لفظاً فقوله (مشرك)، فإنّ المشرك من يجعل مع الله شريكاً، ومعلوم أنّ ذلك غير لازم من منع الزكاة، فلو قال (كافر) لكان أولى. وأمّا معنىً فلأنّ منطوقها أنّ المشرك لا يؤتي الزكاة، ولا يلزم منه أنّ الذي لا يؤتي الزكاة يكون مشركاً، لأنّ الموجبة الكلية لا تنعكس كنفسها، ولو انعكس جزئياً فلا دلالة له على المطلوب بنفسه، بل بدليل خارج، وذلك كافٍ في المطلوب، فلا تكون الآية هي الدالّة، بل غيرها»[19].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وثيابك فطهّر﴾[20]، قال: «قال المعاصر: قيل: أُريدَ بالثياب الزوجات، لقوله: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾[21] فينبغي أن يتخيّر لنفسه من النساء العفيفة الكريمة الأصل، ويؤيده قوله: ﴿والبلد الطيّب يخرج نباتُهُ بإذن ربّه والذي خبُثَ لا يخرج إلاّ نكداً﴾[22].

قلت: وعندي فيه نظر، لمنع دلالتها على ذلك، فإن الثياب حقيقة في الساتر للجسد، واستعمال اللباس في النساء مجازاً في موضع لا يستلزم استعماله في غيره، لأنّ المجاز لا يطّرد كما تقرر في الاصول، وأيضاً الطهارة حقيقية في استعمال الماء، فاستعمالها في غير ذلك مجاز، والأصل عدمه.

نعم، يدلّ على المطلوب قوله (ص): تخيّروا لنطفكم. وكذا قوله: ﴿الزاني لا ينكح إلاّ زانيةً أو مشركةً﴾[23] أي لا يرغب إلاّ في نكاح الزانية، وفي ذلك دلالة على

استحباب اختيار العفيفة، وكراهة اختيار غيرها، وكذلك قوله: ﴿الطيبات للطيبين﴾[٢٤]، وهو خبر في معنى الأمر»[٢٥].

٥ـ لم يذكر المقداد في تفسيره هذا ما لا يمتّ إلى الفقه بصلة، لاسيّما القصص القرآني وأسباب النزول، وإذا ذكرها فبالقدر الذي يتعلّق باستنباط الأحكام، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمةَ وفصلَ الخطاب﴾[٢٦]، قال: وقد ذكر المعاصر والراوندي في هذه القصّة أشياء لا تعلّق لها بالفقه، أعرضنا عنها[٢٧]. وذلك بعد أن ذكر ما فيها من أحكام.

الهوامش

(١) للتوسّع في ترجمة المؤلّف، انظر: الاجازة الكبيرة للتستري: ١٩، الأعلام للزركلي ٧: ٢٨٢، أعيان الشيعة ١٠: ١٣٤، أمل الآمل ٢: ٣٢٥، إيضاح المكنون ١: ٢٢٩ و ٣٣١ ، ٢ : ٣٨٦ و٤١٢و٦٥٥ و٦٩٤، التفسير والمفسرون ٢: ٤٦٥، تنقيح المقال ٣: ٢٤٥، الذريعة: في مواضع متفرقة على وفق ترتيب مصنّفاته، روضات الجنات ٧: ١٧١، رياض العلماء ٥: ٢١٦، ريحانة الأدب ٤: ٢٨٢، الفوائد الرضوية: ٦٦٦، كنز العرفان في تفسير القرآن: المقدّمة، لؤلؤة البحرين: ١٧٢، المستدرك للنوري ٣: ٤٣١ و ٤٣٥، معجم رجال الحديث ٨١: ٣٢١ / ١٣٦٠٨، معجم المؤلّفين ١٢: ٢١٨، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: ١٧٧٢، معجم المفسرين لعادل نويهض ٢: ٦٨٣، مفتاح الكنوز الخفية ١: ٣١ و٨٣ و١٢٥، هدية العارفين ٢: ٤٧٠.

(٢) قال الخوانساري في الروضات: السُّيوري ـ بضمّ السين مع الياء المخفّفة التحتانية ـ كما هو مشهور، نسبة إلى سُيور، وهي قرية من قرى الحلّة، كما في الفهرست المنسوب إلى والد شيخنا البهائي غفر له؛ وقيل في هذه النسبة غير ذلك.

(٣) كنز العرفان ١: ٢.

(٤) وهي الشركة، المضاربة، الابضاع، الايداع، العارية، السبق والرماية، الشفعة، اللقطة، الغصب، الاقرار، الوصية وأحكامها، أحكام الحجر، الوقف والسكنىٰ والصدقة والهبة، النذر وأحكامه، العهد وأحكامه، اليمين وأحكامه، العتق وتوابعه.

(٥) التوبة: ١٠٣.

(٦) كنز العرفان ١: ٥٧.

(٧) المائدة: ٥٨.

(٨) كنز العرفان ١: ١١٢.

(٩) الكوثر: ٢.

(١٠) أي أشار.

(١١) كنز العرفان ١: ١٤٦.

(١٢) الحجرات: ٩.

(١٣) التوبة: ٤١.

(١٤) النساء: ٥٩.

(١٥) التوبة: ٧٣.

(١٦) التوبة ١٢.

(١٧) كنز العرفان ١: ٢٨٦.

(١٨) فصّلت: ٦و٧.

(١٩) كنز العرفان ١: ٢٢٢.

(٢٠) المدّثر: ٤.

(٢١) البقرة: ١٨٧.

(٢٢) الأعراف: ٥٨.

(٢٣) النور: ٢.

(٢٤) النور: ٢٦.

(٢٥) كنز العرفان ٢: ٢٢٨.

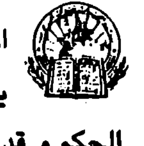
(٢٦) ص: ٢٠.

(٢٧) كنز العرفان ٢: ٢٨٣.

* * *

الشورى في القرآن و الحديث

الشيخ محمد مهدي الآصفي



الشورى هو العنصر الثاني الذي يشكل أساس نظرية الاسلام في الحكم و قد سميت في القرآن سورة كامله باسم الشورى ونـزل في القرآن اكثر من آية في الشورى نستعرضها واحدة بعد اخرى.

الشورى في القرآن

١ ـ يقول تعالى ﴿فَبِمَا رَحمَةٍ منَ اللّه لنتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظّاً غَليظَ القَلب لانفضُوا من حولِكَ فَاعفُ عَنهُم وَاستغفر لَهُم وَشَاورهُم في الامر فاذَا عَزَمتَ فَتَوَكَّل عَلَى اللّه انَّ اللّه يُحبُّ المُتَوَكّلينَ﴾ (١)

ولاشك ان الخطاب في هذه الاية الكريمة موجه الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله)، و فيه يأمره اللّه تعالى بالشورى و استشارة المسلمين ، واذا كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله) مكلّفا بالشورى من جانب اللّه فغيره من اولياء امور المسلمين و خلفائهم اولى بذلك قطعاً.

و ليس من شك في ان خطاب رسول اللّه(ص) بالشورى لم يكن لحاجته(ص) الى رأى الناس فان اللّه تعالى قد عصمه و سدده، و انما كان لغايات اخرى منها تأليف قلوب الناس و اشعارهم بالمشاركة في شؤون الولايه و الحكم، و ليكون رسول اللّه(ص) اسوة لسائر الحكام و الولاة .

و قد احرج ابن عدى و البيهقي بسند حسن عن ابن عباس قال لما نزلت (وشاورهم في الامر) قال رسول اللّه(ص): اما ان اللّه و رسوله لغنيان عنها، و لكن جعلها اللّه رحمة لامتى. فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، و من تركها لم يعدم علماً.(٢)

قال قتاده و الربيع بن انس و محمد بن اسحاق انما أمره بها تطييباً لنفوسهم و

رفعاً من اقدراهم، اذ كانــوا ممن يوثق بقوله و يرجــع الى رأيه. و قــال سفيان بــن عيينة أمــره بالمشــاوره لتقتدى بــه امته فيهــا و لاتراها منقصة، كما مــدحهم اللّه تعالى بان امرهم شورى بينهم.[٣]

و(الامــر) في الايــة الكــريمــة بمعنــى الــولاية و شــؤون الــدولة و السيــاســة في السلم و الحرب. و هو تعبيــر شــائع في هذا المعنى. كما قال اميرالمؤمنين(عليه السلام) «فلمــا نهضت بالامــر نكثت طــائفة»، وكمــا ذكرنا من قبل في حديث مجاري الامور على ايدي العلمــاء ثم تقول الاية الكــريمة ﴿فاذا عزمت فتوكل على اللّه﴾ و هو صريح ي ان الراى الــذي يتمحض عن الشورى ليــس له في الاسلام قيمة القرار و انما القرار و العزم لرســول اللّه(ص) في حيــاته فــي الشؤون السيــاسيــة، ثــم من بعـــده لخلفــائه ائمــة المسلمين.

٢ ـ ويقول تعالى ﴿فبشر عباد الذين يستمعــون القــول فيتبعــون احسنــه. اولئــك الــذين هــداهــم اللّــه، واولئك هــم اولوالالباب﴾.[٤]

ان استمــاع القول من عــدو او صـــديق حسنة في الانسان، و عبــاد اللّه الصالحون يتميزون بهذه الحسنة. و استماع القول غير الاتباع. و لايتأتى اتبــاع الاحسن من الاقوال الابعد استماع القول كله من عدو أو صديق، ومــن بعيــد أو قــريــب... و انمــا يستطيــع الانسان ان يميز بين الاقوال و يقارن بينها، ثم يختــار الاحسن منهــا اذا استمع القــول كله.

ان حالة الانفتــاح على الناس جميعاً و محــاولة فهم النــاس و استيعاب مــايقولــه الناس مــن خصائص المؤمنين. فــلا ينغلق المؤمن على قول ورأي وفكر مهما كان ذلك التصور الا ان يستمعه ويفكر فيه ويحاكمه، فيأخــذ منــه مــوقفــاً بــالايجــاب او السلب، ويتبعه او يرفضه، و حالة الاتباع او الرفض تأتى بعد الانفتاح و الاستماع للآخرين.

وهذا الانفتاح والاستمــاع الى الآخرين وتصوراتهــم و افكارهم و منــاقشاتهــم هو حقيقة (الشورى) وجوهرها.

٣ ـ ﴿والذين يجتنبون كبائرَ الاثم و الفواحش و اذا ماغضبــوا هم يغفرون * والذين استجابوا لــربِّهم و أقاموا الصلاةَ و أمــرهم شورى بينهــم و مما رزقنــاهم يُنفقون * و الذين اذا أصــابهم البغيُ هم ينتصرون﴾[٥]

وفي هذه الاية المباركة يدعو اللّه تعالى عبــاده الى الشــورى على نحــو الاخبــار و التقرير لأحوال وخصــائص المؤمنين، فيما يــذكر من خصــائصهم وصفــاتهم كالايــة السابقة.

ولـلآية الكـريمـة ﴿وامرهـم شورى بينهم﴾ اطلاق يشمل كل شـيء من امورهم العامة و الخاصة.

الشورى في سيرة رسول اللّه

وقد ورد فـي سيرة رسول اللّـه(صلّى اللّه عليه وآله وسلّـم) نماذج كثيرة للشورى نذكر جملة منها.

١ ــ قال ابن اسحـاق: ان الحبـاب بن المنذر بن الجمـوح قال «عندما نـزل رسول اللّه(ص) منزلاً ببدر»: يا رسول اللّه. أرأيت هذا المنزل انزلكه اللّه، ليس لنا ان نتقدمه و نتأخر عنه، أم هو الرأى و الحرب و المكيدة؟ قال: بل هو الرأى و الحرب و المكيدة. فقال: يا رسول اللّه، فان هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى ادنى ماء للقوم، منزله ثم نُغَوّرُ مـاوراءه من القُلُب، ثـم نبني حوضـاً فنملـؤه مـاء، ثم نقـاتـل القـوم فنشـرب و لايشـربون. فقـال رسـول اللّه(ص): (لقـد اشرت بالرأي). فنهض رسول اللّه و من معه من النـاس فسار حتّى اذا اتى ادنى مـاء من القوم نزل عليه.(٦)

يقول الواقدي في احداث معركة (اُحُد): ان رسـول اللّه(ص) خطب النـاس ثم قـال: «ايها الناس اني رأيت في منامي رؤيا: رأيت كـأني فـي درع حصينـة، ورايت ان كـان سيفي ذا الفقـار انقصم مـن عند ضبتـه، و رأيت بقراً تذبح، و رأيت كأني مردف كبشاً. فقال الناس: يا رسول اللّـه فما أولتها؟ قال: اما الدرع الحصينه فالمـدنية، فامكثوا فيها، و اما انقصام سيفي من عند ضبته فمصيبة في نفسـي، و اما البقـر المُذبَّح، فقتلـى في أصحابي.

وقال النبى(ص): اشيـروا عليّ! و راى رسول اللّه(ص) ان لايخرج من المدينة لهذه الرؤيـا، فرسـول اللّه(ص) يحب ان يـوانق على مثل مـا راى وعلى ماعبر عليه الـرؤيا. فقام عبداللّه بن أبي فقال: يا رسول اللّه، كنا نقاتل في الجاهليـة فيها، و نجعل النسـاء و الذراري في هذه الصيـاصي و نجعل معهم الحجارة... و نشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصـن من كل ناحيـة و ترمـي المرأة و الصبي مـن فـوق الصيـاصي و الاطـام، و نقاتل باسيافنا في السكك، يا رسول اللّه: ان مدينتنا عذراء مافضت علينا قطُّ.

وكان رأي رسول اللّه(ص) مع رأي ابن أبي، و كـان ذلك رأي الاكـابر من اصحـاب رسول اللّه(ص) من المهاجرين و الانصار. فقال رسول اللّه(ص): امكثوا في المدينه، و اجعلـوا النساء و الـذراري في الاطام، فـان دخلوا علينـا قاتلناهم في الازقـة فنحن اعلم بهـا منهم، و ارموا مـن فوق الصيـاصي و

الاطـام ... نقال فتيـان احـداث لم يشهـدوا بدراً، وطلبـوا من رسول اللّـه(ص) الخروج الى عـدوهم، و رغبوا في الشهـاده، و احبوا لقاء العدو: اخرج بنا الى عدونا. و قال رجال من اهل السن و اهل البنيـه، منهم حمزه بن عبدالمطلب، و سعد بـن عباده و النعمان بن مـالك بن ثعلبـه، فـي غيرهـم من الاوس و الخزرج: انـا نخشى يا رسول اللّـه ان يظن عدونـا انا كـرهنا الخـروج اليهم جبنـاً عن لقائهـم، فيكون هذا جـرأةً منهم علينـا، وقد كنتَ يوم بـدر في ثلاثمئة رجل فظفـرك اللّه عليهم، و نحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم و ندعو اللّه به، فقد ساقه اللّه الينا في ساحتنا. ورسول اللّه(ص) لما يرى من الحاحهم كاره، و قد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم، يتسامون كـانهم الفحول. و قال مالـك بن سنان أبـوأبي سعيد الخـدري: يا رسول اللّه، نحن و اللّه بين احدى الحسنين اما يُظفِّرنا الله بهم فهـذا الذي نريد، فيذلهم اللّه لنا فتكون هذه وقعـة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم الا الشريد، و الاخـرى يا رسول اللّه، يـرزقنا اللّه الشهـادة. واللّه يـا رسول اللّه، ما ابالي ايهمـا كان، إن كلاً لفيه الخير! فلم يبلغنـا ان النبـي(ص) رجع اليـه قـولاً، وسكت. فقال حمزة بن عبدالمطلب(رض) و الذي انزل عليك الكتاب، لا اطعم اليوم طعاماً حتى اجالدهم بسيفي خارجاً من المدينه. و كان يقـال كان حمزة يـوم الجمعة صـائماً، ويوم السبت صائماً فلاقاهم وهو صائم ...

قالوا: فلما ابوا الا الخروج صلى رسول اللّه(ص) الجمعة بالنـاس، ثم وعظ الناس و أمرهـم بالجـد و الجهاد، و أخبـرهم ان لهم النصر مـاصبروا، ففرح الناس بـذلك حيث اعلمهم رسـول اللّه(ص) بـالشخـوص الى عدوهـم، وكره ذلك المخـرج بشر كثيـر من اصحاب رسول اللّه(ص)، و امرهم بالتهيؤ لعدوهم، ثم صلى رسـول اللّه(ص) العصر بـالناس. وقـد حشر النـاس و حضـر اهل العوالي، و رفعـوا النساء في الاطـام، فدخل رسول اللّـه(ص) بيته... و صف النـاس له مابين حجرته الى منبره، ينتظرون خروجه، فجاءهـم سعد بن معـاذ واسيد بـن خضير فقـالا: قلتم لـرسول اللّـه(ص) مـا قلتم: و استكـرهتموه على الخـروج، و الامر ينـزل عليه من السمـاء ، فردوا الامر اليه، فما امركم فـافعلـوه ومـا رأيتم لـه فيـه هـوى او رأي فـاطيعوه. فبينـا هم علـى ذلك من الامـر، و بعض القـوم يقـول القول مـا قال سعـد! و بعضهـم على البصيـرة علـى الشخـوص وبعضهم للخـروج كـاره، اذ خـرج رسـول اللّه(ص) وقـد لبس لامته، وقد لبـس الدرع فاظهرها، و حزم وسطها بمنطقة من حمائل

سيف من أدم، كانت عند آل ابي رافع مولى رسول الله(ص) بعد، واعتم، و تقلد السيف. فلما خرج رسول الله(ص) ندموا جميعاً على ماصنعوا، وقال الذين يلحون على رسول الله(ص): ما كان لنا ان نلح على رسول الله في امر يهوى خلافه. وقد فهم اهل الرأي الذين كانوا يشيرون بالمقام، فقالوا: يا رسول اللّه، ما كان لنا ان نخالفك فاصنع مابدا لك. (وما كان لنا ان نستكرهك والامر الى الله ثم اليك) فقال: قد دعوتكم الى هذا الحديث فأبيتم، ولاينبغي لنبي اذا لبس لامته ان يضعها حتى يحكم الله بينه و بين اعدائه. ثم قال رسول الله(ص) انظروا ما امرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم اللّه فلكم النصر ماصبرتم.(٧)

٣ ــ وروى الواقدي في المغازي في أحداث حرب الخندق: أو شاورهم رسول الله(ص) و كان رسول الله يكثر مشاورتهم في الحرب. فقال أنبرز لهم من المدينة ام نكون فيها و نخندقها علينا؟ فاختلفوا، فقالت طائفة نكون مما يلي بُعاث الى ثنية الوداع الى الجرف. فقال قائل ندع المدينه خلوفاً فقال سلمان: يا رسول الله إنّا إذ كنا بارض فارس و تخوّفنا الخيل خندقنا عليها فهل لك يا رسول اللّه ان تُخندق؟ فاعجب رأي سلمان المسلمين، وذكروا حين دعاهم النبى(ص) يوم أحد ان يقوموا و لايخرجوا فكره المسلمون الخروج و أحبوا الثبات.(٨)

٤ـ وفي الحديبية حيث جاء رسول اللّه(ص) و اصحابه للعمرة، فخرجت اليهم قريش لتمنعهم عن دخول مكة.

قال رسول الله(ص) للمسلمين يومذاك (أشيروا عليّ أتَرون أن نميل الى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم فان قعدوا قعدوا موتورين محزونين، و ان نجوا تكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدناقاتلناه؟)

فقال ابوبكر: الله ورسوله أعلم. يا نبي الله إنما جئنا معتمرين ولم نجئ نقاتل أحداً. ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه فقال النبي(ص) فروّحوا إذاً. قال الزهري وكان ابوهريرة يقول ما رأيت احداً قط كان اكثر مشورة لاصحابه من رسول الله.(٩)

الشورى في سيرة أهل البيت(ع)

وفي سيرة اهل البيت(عليهم السلام) نماذج من الشورى نورد فيما يلى بعضاً ومنها عن كتاب وسائل الشيعة ومستدركه.

١ ـ عن النهشلي عن أبيه في حديث ان موسى بن المهدي هدّد موسى بن جعفر(عليهما السلام)، وقال: قتلني الله إن

ابقيت عليه. قال وكتب علي بن يقطين الا ابي الحسن موسى بن جعفر(عليهما السلام) بصورة الامر، فورد الكتاب. فلما أصبح احضر أهل بيته وشيعته فأطلعهم أبوالحسن(عليه السلام) على ماورد عليه من الخبر، و قال لهم ماتشيرون في هذا؟ فقالوا نشير عليك، أصلحك الله، وعلينا معك، ان تباعد شخصك من هذا الجبار.[١٠]

٢ ـ عن معمر بن خلاد قال: هلك مولىً لابي الحسن الرضا(ع) يقال له: سعد، فقال لي: اشر عليّ برجل له فضل وامانة، فقلت: انا اشير عليك؟ فقال شبه المغضب: ان رسول الله(ص) كان يستشير اصحابه ثم يعزم على مايريد.[١١]

٣ ـ عن الفضيل بن يسار قال استشارني ابوعبدالله(ع) مره في امر فقلت: اصلحك الله مثلي يشير على مثلك؟ قال: نعم اذا استشرتك.[١٢]

٤ ـ عن الحسن بن جهم قال: كنا عند ابي الحسن الرضا(ع) فذكر اباه(ع) فقال: كان عقله لاتوازن به العقول، و ربما شاور الاسود من سودانه فقيل له: تشاور مثل هذا؟ فقال: ان الله تبارك وتعالى ربما فتح على لسانه؟

قال: فكانوا ربما اشاروا عليه الشيء يعمل به من الضيعة و البستان.[١٣]

٥ ـ عن اميرالمؤمنين(ع) انه قال لعبدالله بن العباس وقد اشار عليه في شيء لم يوافق رأيه: عليك ان تشير عليّ فاذا خالفتك فاطعني.[١٤]

٦ ـ عن علي بن مهزيار قال: كتب الي ابوجعفر(ع) ان سل فلانا ان يشير علي ويتخير لنفسه فهو أعلم بما يجوز في بلده، وكيف يعامل السلاطين، فان المشوره مباركة، قال الله لنبيه في محكم كتابه: ﴿وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله﴾ فان كان مايقول مما يجوز كتبت اصوب رأيه، وان كان غير ذلك رجوت ان اضعه على الطريق الواضح انشاء الله.[١٥]

الشورى في الحديث

عن اميرالمؤمنين(ع): «افضل الناس رأياً من لايستغني عن رأي مُشير».[١٦]

وعنه(ع)ايضاً: ـ «انما حضّ على المشاورة لان رأي المشير صرف ورأي المستشير مشوب بالهوى».[١٧]

وعنه(ع) ايضاً: ـ «حق على العاقل ان يضيف الى رأيه راي العقلاء ويضم الى علمه علوم الحكماء».[١٨]

وعنه(ع) ايضاً: ـ «من لزم المشاوره لم يعدم عند الصواب مادحاً وعند الخطأ عاذراً».[١٩]

وعنـــه(ع) : «لامظـاهـــرة أوثـق مــن المشاوره».[٢٠]

وعنه(ع) أيضاً: «من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها».[٢١]

وعنه عليه السـلام ايضاً: «الاستشارة عيـن الهدايـة، وقـد خـاطـر من استغنـى برأيه».[٢٢]

وعنه عليه السـلام ايضاً: «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الاخطاء».[٢٣]

وعنه(ع) أيضاً: «فلا تكلموني بما تكلم بها الجبـابرة و لاتتحفّظوا مني بمـا يتحفّظ عند أهل البادرة، ولاتخالطـوني بالمصانعة، ولاتظنوا بـي استثقالاً في حـق قيل لي، ولا التمـاس إعظام لنفســي، فـانه مـن استثقل الحق أن يُقـال له، أو العدل أن يعـرض عليه كـان العمل بهمـا أثقل عليه، فـلاتكفّـوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل، فاني لست فوق ان أُخطيـئ ولا آمـن ذلك مـن فعلـي، الا ان يكفي الله من نفسي ماهو أملك لي».[٢٤]

عن جعفر بن محمـد، عن ابيه(ع) قال: قيل: يا رسول الله ما الحزم،؟ قال: مشاورة ذوي الرأي واتباعهم.[٢٥]

عن ابي عبدالله(ع) قال: فيما اوصى به رسول اللّـه(ص) علياً(ع) قـال: لامظاهـرة اوثق من المشاورة، ولاعقل كالتدبير.[٢٦]

عن ابـي جعفـر(ع) قـال: في التـوراة اربعـة اسطر: من لايستشـر يندم، والفقـر المـوت الاكبر، كمـا تديـن تدان، ومـن ملك استأثر.[٢٧]

عن ابي عبدالله(ع) قال: لن يهلك امرؤ عن مشورة.[٢٨]

عن اميـرالمؤمنين(ع) انه قـال: لاغنى كالعقل، ولافقر كـالجهل، ولاميراث كالادب، ولاظهير كالمشاورة.[٢٩]

وعنـــه(ع) قـــال: الاستشــــاره عيـن الهداية.[٣٠]

وعنـه(ع) قـال: خـاطـر بنفســه مـن استغنى برأيه.[٣١]

قال الصـادق جعفر بن محمد(ع) قال: من لـم يكن لـه واعظ من قلبـه، وزاجـر من نفســه، ولم يكن لـه قريـن مرشـد استمكن عدوه من عنقه.[٣٢]

عـن علي بـن محمـد الهـادي(ع) عـن ابائه(ع) قال: قال اميـرالمؤمنين(ع) خاطر بنفسـه من استغنى برايه.[٣٤]

عن ابي عبـدالله(ع) قال: استشـر في امرك الذين يخشـون ربهم.[٣٥]

وعنه ايضــاً(ع) قال: قـال على(ع) في كلام له: شـاور في حديثك الذيـن يخافون الله.[٣٦]

عن سليمان بـن خالد قـال: سمعت ابا عبدالله(ع) يقول: استشر العاقل من الرجال

الورع، فانه لايأمر الا بخير، واياك والخلاف فان مخالفة الورع العاقل مفسدة في الدين الدنيا.[٣٧]

عن ابي عبدالله(ع) قال: قال رسول الله(ص): مشاورة العاقل الناصح رشد ويمن وتوفيق من اللّه، فاذا اشار عليك الناصح العاقل فاياك والخلاف فان في ذلك العطب.[٣٨]

عن ابي عبدالله(ع) قال: مايمنع احدكم اذا ورد عليه مالاقبل له به ان يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع، ثم قال ابوعبدالله(ع) امّا انه اذا فعل ذلك لم يخذله الله بل يرفعه الله ورماه بخير الامور وأقربها الى الله.[٣٩]

عن ابي عبداللّه(ع) قال: قال ان المشورة لاتكون الا بحدودها فمن عرفها بحدودها، والا كانت مضرتها على المستشير اكثر من منفعتها له، فاولها ان يكون الذي تشاوره عاقلاً، والثانية ان يكون حراً متديناً، والثالثه ان يكون صديقاً مؤاخياً، والرابعة ان تطلعه على سرك فيكون علمه به كعلمك بنفسك، ثم يسر ذلك ويكتمه، فانه اذا كان عاقلاً انتفعت بمشورته، واذا كان حراً متديناً اجهد نفسه في النصيحة لك، واذا كان صديقاً مؤاخيا كتم سرك اذا أطلعته عليه، واذا اطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك به تمت المشورة، وكملت النصيحة.[٤٠]

فقه الشورى

هناك مجموعة مسائل في فقه الشورى، ضمن النصوص السابقه نستعرفها فيما يلي واحدة بعد اخرى:

١ ـ الالزام بالشورى

يكفي في الزام الامام والحاكم بالشورى، وفي وجوب الشورى قوله تعالى مخاطباً رسوله(ص) ﴿وشاورهم في الامر﴾ فان الآيه الكريمه صريحة في الأمر بالشورى. والأمر ظاهر في الوجوب.[٤١]

واذا كان رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) مكلّفاً بالشورى في آية واضحة وظاهرة من القرآن الكريم فغيره(ص) أولى بهذا الوجوب والالزام.

وفي النصوص التي نقلناها عن المعصومين(عليهم السلام)، نصوص واضحة وصريحة في الأمر بالشورى. وعليه فإن ولي الأمر الحاكم مأمور بالشورى، ولابد أن يستشير المسلمين فما يهمهم من امور الدوله في الحرب والسلم وشؤون الأمن والاقتصاد والعمران وما إلى ذلك.

وليس في الآية الكريمة تفصيل لطريقة الشورى ولكنها تدعو الى استشارة المسلمين ﴿وشاورهم﴾ وحيث لايمكن

استشارة المسلمين جميعاً فلابد من الأخذ بالميسور في هذه الاستشارة، وهو استشارة ذوي الرأي والخبرة والفهم منهم.

وقد يكون هؤلاء معينين مشخصين في مجتمع ما بحيث لايختلف فيهم الناس . وقد لايكونون كذلك، وعندئذ يكون اقرب الطرق والوسائل للشورى هو انتخاب مجلس للشورى من قبل الأمة بالطرق المألوفة ممن تتوافر فيهم شروط الشورى والخبرة والنصح والعقل والتقوى

٢ ـ الالزام بالشورى الزام طريقي

لاشك ان الشورى ليست مطلوبة في حد نفسها، ولا هي موضوع مستقل للطلب، وانما الشورى طريق الى تحقيق غايات أخرى، وأهم هذه الغايات التعرف على وجهات نظر الآخرين وتصوراتهم و مناقشاتهم وافكارهم. وهذه التصورات والافكار عندما تتوارد من منابع مختلفة ويجتمع في موضع واحد تكون لها قيمة كبيرة في توجيه سياسة الحكم والادارة والاقتصاد والأمن والحرب وغير ذلك في البلد (وهذا الوجه يتم في غير المعصومين من أولياء الأمور).

كما ان للشوى اثراً كبيراً في اشراك فئات الأمة في مسالة الحكم، واشعارهم بان سياسة الحكم لاتجري مستقلة منفصلة عن إرادتهم.

وتحقيق هذه الغايات وغيرها هو الغاية من وجوب الشورى. فلايجوز ان يكون نظام الشورى في المجتمع نظاماً صورياً غير قادر على تحقيق هذه الغايات.

القيمة الشرعية للشورى

والآن نطرح السؤال التالي:

ما هي القيمة الشرعية للشورى؟ أوَ تعتبر النتيجة التي تتمخض عنها الشورى بالاجماع او بالاكثرية قراراً ملزماً لولي الامر ام لا؟

وقبل ان ندخل في تفصيل البحث في هذه النقطه احب ان أشير إلى أن نتيجة هذه النقطة لاعلاقة لها بنتيجة النقطة السابقة، فنحن حتى لو انتهينا في هذه النقطة الى نتيجة سلبية وقلنا إن النتيجة الى تتمخض عنها الاكثرية ليست ملزمة لولي الأمر، فلا ينافي ذلك ما انتهينا إليه في النقطة السابقة من ان الشورى ركن أساسي في نظام الحكم في الاسلام، وان الشورى ليست مطلوبة بالاستقلال، وإنما هي طريق ووسيلة لتسديد القرار السياسي والاداري في المجتمع، فان تكريس حالة الشورى في

النظام والعمل على تسديد قرارات الدولة من خلال الشورى لايتوقف على الالتزام الحرفي بنتيجة الشورى دائماً، وانما يتحقق كل ذلك بانفتاح ولي الامر واجهزة الدولة على الشورى، وإعطاء الشورى دوراً وتوجيهياً اساسياً في قرارات الدولة. وهذا كله لاينافي ان يكون القرار الاخير الحاسم ولي الامر.

وبعد هذه المقدمة يقول:

ان جمعاً من العلماء والفقهاء يرون أن نتيجة الشورى ملزمة لولي الامر وللنظام بشكل عام.

ومن هؤلاء الشيخ محمد عبده في ماكتبه تلميذه الشيخ محمدرضا في تفسير المنار:

يقول في تفسير (أولي الأمر) «فقد علمنا ان أولي الأمر معناه اصحاب أمر الأمه في حكمها وهو الأمر المشار اليه في قوله تعالى ﴿وامرهم شورى بينهم﴾، ولايمكن ان يكون شورى بين جميع افراد الامة فتعين ان يكون شورى بين جماعة تمثل الامة ... وما هؤلاء الا أهل الحل والعقد الذين تكرر ذكرهم».(٤٢)

ويقول صاحب المنار «ويجب على الحكام الحكم بما يقرره أولوالأمر (اصحاب الشورى) وتنفيذه».(٤٣)

ويبالغ الشيخ محمد عبده في اعطاء مثل هذه القيمة الشرعية للشورى، حتى أنه يعتقد أن قوله تعالى في (آية الشورى من سورة آل عمران ﴿فاذا عزمت فتوكل على اللّه﴾ لاينافي الالتزام الدقيق بنتيجة الشورى، وبناء عليه فان معنى الآية تكون كما يقول ﴿فاذا عزمت﴾ بعد المشاورة في الأمر على إمضاء ما ترجحه الشورى، وأعددت له عدته ﴿فتوكل على اللّه﴾ في إمضائه وكن واثقاً بتاييده ومعونته).(٤٤)

ويقول الدكتور محمد رأفت عثمان في كتابه (رئاسة الدولة في الفقه الاسلامي):

«ولهذا فانا نميل الى إقامة الصلة الوثيقة بين اراء مجالس الشورى ... وبين رأى الامام، فيجب ان يكون خاضعاً لرأي الاكثرية من المشيرين».(٤٥)

ويقول الاستاذ عبدالرحمن عبدالخالق بهذا الصدد (وعلم يقيناً بالادلة الصريحة ان من مقتضيات الحكم الشوري في الاسلام الاخذ برأي الاغلبية المستشارة. و «المستشار مؤتمن» كما قال رسول اللّه(ص) فمن تأتمنهم الامة وتوليهم مهمة النظر في امورها وتصريف سياستها يجب على الحاكم المسلم ان ينفذ ما اجمعوا عليه، ويجب ايضاً ان يكون رأي اغلبيتهم هو الرأي الراجح الذي يجب الاخذ به، وليس هذا

النظام نظاماً من صنع الغرب، ومن اختراع الديمقراطية كما ادعى المدعون، ولكنه نظام اسلامي خالص. انتقل من حضارتنا الى حضارة الغرب كما انتقلت حسنات كثيرة، واليوم ينكره فريق منا اشد الانكار لانهم عاشوا في ظروف التسلط والقهر، وألفوا نظماً فاسدة انتسبت للاسلام زوراً». [٤٦]

ومن العلماء من يرى أن للشورى قيمةً توجيهيةً فقط، وليس قيمة شرعية في إلزام ولي الأمر بالتنفيذ.

وقد ذهب القرطبي من علماء السنة الى هذا المذهب اذ يقول في تفسيره: «والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف، وينظر أقربها قولاً الى الكتاب والسنة ان أمكنه، فاذا ارشده اللّه تعالى الى ماشاء منه عزم عليه وانفذه متوكلا عليه). [٤٧]

وفقهاء الامامية يذهبون هذا المذهب في تفسيرآية الشورى منه سورة آل عمران.

يقول الشيخ محمدجواد البلاغي في تفسيره (آلاء الرحمن) «﴿وشاورهم في الأمر﴾ الذي يعرض، واستصلحهم، واستمل قلوبهم بالمشاورة، لا لانهم يفيدون سداداً وعلماً بالصالح، كيف وان اللّه مسدده ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو الاوحي يوحى﴾ ﴿فاذا عزمت﴾ على ما أراك اللّه بنور النبوة وسدّدك فيه ﴿فتوكل على اللّه﴾». [٤٨]

ويقول السيد عبداللّه شبر في تفسير الآية الكريمة ﴿فاذا عزمت﴾ على شيء ﴿فتوكل﴾ على اللّه في امضائه. [٤٩]

ويقول الفيض الكاشاني في تفسير الآية الكريمة:

«﴿فاذا عزمت﴾ فاذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى فتوكل عى اللّه في امضاء امرك على ماهو أصلح لك فانه لايعلمه سواك». [٥٠]

واراء سائر العلماء على هذا المنوال أو قريب منه

ولنطرح الموضوع على مائدة البحث من خلال هذه الآية الكريمة، وهو أصرح النصوص التي نعتمده في هذا الامر والمسألة على وجه الدقة هي:

أَللشورى قيمة شرعية في وجوب التنفيذ ام لا؟ وبتعبير آخر أإنّ الشورى مصدر من مصادر القرار والطاعة في النظام الاسلامي ام لا؟

وآية الشورى من سورة آل عمران هي أوضح الادلة التي يتمسك بها المثبتون.

وما يمكن أن يستدل به هؤلاء من خلال هذه الاية المباركة أمران:

اولاً: إن الأمر بالشورى يستبطن الأخذ برأي أهل الشورى (اذا اتفقوا على رأي، أو اجتمع اكثرهم على رأي).

ونحن لانرى في الأمر بالشورى هذا

المعنى اطلاقاً. نعم لو كان يقترن بالأمر بالشورى النهي عن مخالفة الرأي الذي تتمخض عنه الشورى، لكان لهذا الرأي معنى معقول. ولكن اذا كان الدليل يدل فقط على وجوب الاستشارة من غير ان ينهى عن مخالفة الرأي الناتج من الشورى، فلا يدل على الالزام بموجب الشورى.

وثانياً: ان وجوب الشورى كما ذكرنا في النقطة السابقة وجوب طريقي. وليست الشورى مقصودة بالذات وانما مطلبها الشارع لتسديد القرار السياسي وتنضيجه. ولايتم ذلك الا بالزام الحاكم بموجب الشورى، و اعطاء صفة القرار الشرعي الملزم لرأي أهل الشورى.

والمناقشة في هذا الأمر أيضاً واضحة، فان الوجوب الطريقي للشورى لتنضيج القرار وتوجيهه وتسديده. وهذا لايقتضي الزام ولي الأمر بموجب رأي أهل الشورى، وإنما يلزم ولي الامر فقط بتفهم الآراء، واستيعابها، والاستنارة بها والانفتاح على مختلف وجهات النظر المطروحة ... وبذلك تتمّ الفائدة المطلوبه من الشورى. ولولي الأمر بعد ذلك ان يعزم على الرأي الذي يختاره، وافق رأي الاكثرية في الشورى او خالفه، اذا استمع الى وجهات النظر المختلفة في الشورى وعمل بقوله تعالى **﴿فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه﴾**.[٥١]

فان القرار من حق ولي الأمر فقط بموجب قوله **﴿وأطيعوا اللّه واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾**.[٥٢]

ولاتعتبر الشورى مصدراً آخر للقرار الشرعي.

ويؤيد ذلك مارواه الشريف الرضي في نهج البلاغة عن اميرالمؤمنين(عليه السلام) انه قال لعبداللّه بن عباس وقد اشار عليه في شيء لم يوافق عليه رأيه: «عليك ان تشير علي فاذا خالفتك فاطعني».[٥٣]

وما رواه العياشي في تفسيره عن احمد بن محمد عن علي بن مهزيار قال كتب إليّ ابوجعفر(عليه السلام) «أن سل فلاناً أن يشير عليّ، ويتخيّر لنفسه، فهو أعلم بما يجوز في بلده، وكيف يعامل السلاطين، فإنّ المشورة مباركة. قال اللّه لنبيه في محكم كتابه **﴿وشاورهم في الأمر، فاذا عزمت فتوكل على اللّه﴾** فان كان مايقول مما يجوز كتبت أصوب رأيه، وان كان غير ذلك رجوت ان اضعه على الطريق الواضح ان شاء اللّه».[٥٤]

نظرة في روايات الباب

وعلينا الآن ان نلقي نظرة في نصوص الأحاديث الواردة على الالزام والايجاب.

والنصوص الواردة في الشورى على طوائف:

الطائفه الأولى و هي من أوسع هذه الطوائف، الأحاديث التي تدل على الحث والترغيب في الشورى بغير صيغة الأمر، على طريقة النصوص الاخلاقية التى ترغّب في الفضائل الاخلاقية وذلك مثل قوله عليه السلام في رواية القداح «قيل يا رسول اللّه ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوي الرأي واتباعهم» ورواية السري بن خالد عن ابي عبداللّه الصادق(ع) عن رسول اللّه(ص): «لامظاهرة اوثق من المشاورة ولاعقل كالتدبير» والاحادث ١٥٥٨٨ و ١٥٥٩٠ و١٥٥٩٢ و١٥٦٠٠ و١٥٦٠٤ و١٥٦٠٥ من كتاب وسائل الشيعة كتاب الحج ابواب العشرة. وهذه الطائفة من النصوص لادلالة لها اطلاقاً على ان للشورى صفة الزام أو قرار.

الطائفة الثانية من الروايات الواردة بصيغة الارشاد الى حكم العقل باهمية وضرورة الشورى كرواية ابن الجارود عن ابي جعفر(عليه السلام): في التوراة اربعة اسطر (من لم يستشر يندم). ورواية سماعة بن مهران عن ابي عبداللّه(ع) (لن يهلك امرؤ عن مشورة».

ومن هذا القبل الاحاديث ١٥٥٩٣ و١٥٥٩٤ و١٥٥٩٥ من احاديث وسائل الشيعة في الكتاب نفسه، والابواب نفسها. وهذه الطائفة من الأحاديث لادلالة فيها على وجوب الشورى فضلا عن وجوب العمل به، واكثر مافيها الارشاد الى حكم العقل باهمية وضرورة اجراء الشورى، وليس العمل بالشورى: ولانقاش في أنه ليس للعقل حكم عام بضرورة الشورى دائماً فضلا عن العمل بها.

الطائفة الثالثه من الروايات، هي الروايات الواردة بصيغةالوجوب المولوي، ولكنها وردت في الأعم من الشؤون السياسيه والعامة والشؤون الشخصية. كما في رواية معاوية بن وهب عن ابي عبداللّه(ع) «استشر في أمرك الذين يخشون ربهم» ورواية الحسين بن مختار عن الصادق(ع) عن اميرالمؤمنين «شاور في حديثك الذين يخافون اللّه»، والحديثان ١٥٥٩٨ و١٥٦١٣ من احاديث وسائل الشيعة. وهذه الطائفة من الروايات لاتدل على الوجوب في الاستشارة، فضلاً عن الامتثال والتنفيذ، ضرورة وضوح عدم وجوب الاستشارة في الشؤون الشخصية والروايات واردة في الاعم منها ومن الامورد السياسية العامة.

الهوامش

(١) آل عمران: ١٥٩

(٢) الدرالمنثور للسيوطي ٢: ٩٠

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢: ٤٠

(٤) الروم: ١٨

(٥) شورى: ٣٥ ـ ٣٩

(٦) سيرة ابن هشام ٢: ٢٧٢

(٧) مغازي الواقدي ١: ٢٠٩ ـ ٢١٤ نقلنا النص باختصار واختزال

(٨) المغازي للواقدي ٢:٤٤٥

(٩) سنن البيهقي ٩: ٢١٨

(١٠) مستدرك الوسائل ٢:٦٦الطبعه الحجريه الاولى

(١١) المحاسن:٦٠١ (عن وسائل الشيعه ٨:٤٢٨)

(١٢) المحاسن:٦٠١ (عن وسائل الشيعه ٨:٤٢٨)

(١٣) المحاسن:٦٠١ (عن وسائل الشيعه ٨:٤٢٨)

(١٤) نهج البلاغه: القسم الثاني ص٢٢١ (عن وسائل الشيعه٨:٤٢٨)

(١٥) تفسير العياشي (مخطوط) (عن وسائل الشيعه ٨:٤٢٨)

(١٦) الغرر والدرر ٢، الحديث٣١٥٢

(١٧) الغرر والدرر ٢:٤٢٩، الحديث٣١٥٢

(١٨) الغرر والدرر ٢:٤٢٩، الحديث ٣١٥٢

(١٩) الغرر والدرر ٢:٤٢٩، الحديث ٣١٥٢

(٢٠) نهج البلاغه صبحي الصالح٤٨٨،الحكمه

(٢١) المصدر السابق: صبحي الصالح ٥٠٠، الخطبة١٦١

(٢٢) م.س: صبحي الصالح ٥٠١، الخطبة١٧٣

(٢٣) المصدر نفسه: صبحي الصالح ٥٠٦، الخطبة٢١١

(٢٤) المصدر نفسه: صبحي الصالح٣٢٥ ، الخطبة٢١٦

(٢٥) المحاسن للبرمي: ٦٠٠ (من وسائل الشيعه٨/٤٢٤)

(٢٦) م.س ص٦٠١ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٤)

(٢٧) م.س ص٦٠١ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٤)

(٢٨) م.س ص٦٠١ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٤)

(٢٩) نهج البلاغه القسم الثاني:١٥٥ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٥)

(٣٠) م.س: ١٨٤

(٣١) م.س: ٢٩٢

(٣٢) م.س: ٢٩٢

(٣٣) المحاسن للمفيد:٢٦٥ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٥)

(٣٤) م.س: ٢٨٦ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٥)

(٣٥) م.س: ٦٠١ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٦)

(٣٦) م.س: ٦٠١ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٦)

(٣٧) م.س: ٦٠٢ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٦)

(٣٨) م.س: ٦٠٢ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٦)

(٣٩) م.س: ٦٠٢ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٦)

(٤٠) م.س: ٦٠٢ (من وسائل الشيعه ٨/٤٢٦)

(٤١) تفسير مفاتيح الغيب للامام فخرالدين الرازي ٢:٨٣، (المطبعة الخيريه١٣٠٨ هـ)

(٤٢) تفسير المنار ٥:١٨٨

(٤٣) المرجع السابق ٥:١٨٧

(٤٤) تفسير المنار ٤:٢٥

(٤٥) رياسة الدوله في الفقه الاسلامي للدكتور محمد رافت عثمان ص٣٦٣

(٤٦) عبدالرحمن عبدالخالق ؛ الشورى في ظل نظام الحكم الاسلامي، ٥:١١٣ـ ١١٤، مطبعه الرأي الجديد، بيروت

(٤٧) تفسير القرطبي ٤:٢٥٢

(٤٨) الاء الرحمن ١:٣٦٤

(٤٩) تفسير شبّر: ١٦٥

(٥٠) تفسير الصافي ١:٣١٠

(٥١) الزمر: ١٨

(٥٢) النساء: ٥٩

(٥٣) وسائل الشيعه ٨:٤٢٨ ح٤، وفي نهج البلاغه «أشيرعليّ وأرى، فان عصيتك فاطعنى القسم الثاني ص٢١، محمد عبده

(٥٤) وسائل الشيعه ٨:٤٢٨ ح٥ عن تفسير العياشي

* * *

الاستعاذة في القرآن الكريم

محمد علي النجدي



ان القرآن الكريم المنزل على رسول الله محمد(ص) هو الكتاب المتكفل بهداية البشرية وتربيتها بالشكل الذي يؤدي الى علاج أمراض القلب وان رحمة الله تبارك وتعالى هي التي تفضل بها على عباده ليخرجهم من الظلمات الى النور.

وان هذا الكتاب هو الذي يدعو الى الحق والسعادة ويعرف البشرية على اهم العلوم الانسانية والمعارف الربانية من خلال ذكره لقصص الانبياء والأوصياء عليهم السلام، واعلانه لرسالة الاسلام التي هي خاتمة الرسالات ،كذلك يحتوي هذا السفر العظيم على الحكم والمواعظ التي يطمح أصحاب القلوب الطاهرة الى الاخذ والنيل من هذا الينبوع الصافي.

ويعطينا هذا الكتاب الشريف احوال المعاد يوم القيامة ويفصل لنا حالة الثواب والعقاب والجزاء وذكر الجنة والنار.

فالدخول الى هذا الكتاب الجامع لهذه الخصائص الكبرى لا يمكن ان يتيسّر لعموم الناس الا إذا كان الانسان مؤمنا لان القرآن يلامس القلوب في حالة كونها مؤمنة لذلك قال الله تعالىٰ: **﴿وإذا ما أُنزِلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه ايماناً فاما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسِهم وماتوا وهم كافرون﴾**[1] فهي تحكي لنا قصة الذين في قلوبهم مرض حيث تحُدث تأثيراً عكسياً.

ان نقطة البداية الصحيحة في قراءة القرآن الكريم والدخول الى هذا العالم الواسع هي التركيز على القلب حتى تصل به الى القمة لانه يمثّل هذا النوع من السير الذي يطمئن على وضع الانسان وعلى خروجه من دائرة إغراء الشيطان ووسوسته

وفتنته سواء كان الشيطان شيطان إنس أو جن قال تعالى ﴿شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعضٍ زُخرُفَ القول غروراً...﴾ فالذي يصغي قلبه الى شياطين الانس والجن ويرضى هذه الوسوسة هو الانسان الذي لا يؤمن بالاخرة، فاذا ما اردنا ان نخرج إنساناً عن دائرة وساوس الشيطان فإن علينا ان نبدا بالقلب وإصلاحه.

إن الإنسان بين أمرين إما ان يوجه قلبُه سلوكَه كلَّه أو يكون قلبُه موجَّهاً باشياء كثيرة، فالقلب عندما يكون قليل النور ضعيف الايمان أو اليقين أو عندما يكون مريضا أو قاسياً فانه في هذه الاحوال كلها يكون موجَّهاً.

من هنا تبدأ اهمية ذكر الله تبارك وتعالى في تصفية القلب في ابتداء سيره واستغراق الانسان في ذكر الله والخلوة المليئة بالتعبد وقيام الليل الذي لاشك وانه معين على طرد الشيطان من بيت الله الحقيقي الذي هو القلب الطاهر الصافي المليء بالحب لله وبالرضا والتوكل والتسليم له في كل شيء، وهذا لن يكون الا بالاستعاذة من الشيطان لان الاستعاذة هي غاية التوكل على الله تبارك اسمه ﴿فان تولَّوا فقل حسبي الله لا الهَ الا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم﴾[2].

قال الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿فإذا قراتَ القرآن فاستعذ باللهِ من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سُلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانُهُ على الذين يَتَولَّونَهَ والذينَ هم به مشركون﴾[3].

الاستعاذة لغةً:

الاستعاذة مشتقة من قولنا اعوذ الذي هو من «اعاذ به يعوذ عوذا وعياذاً ومعاذاً لاذ به ولجأ إليه واعتصم به ومعاذ الله اي عياذاً بالله قال الله تعالىٰ: **﴿معاذًا الله ان ناخذَ الا من وجدنا متاعنا عنده﴾** اي نعوذ بالله معاذاً ان نأخذ غير الجاني بجنايته»[4].

والعوذ « الالتجاء الى الغير والتعلق به يقال عاذ فلان بفلان، ومنه قول الله تعالى **﴿أَعوذ بالله أن اكون من الجاهلين﴾**[5] **﴿وإني عُذت بربي وربكم ان ترجمون﴾**[6] والعوذة ما يعاذ به من الشيء ومنه قيل للتميمة والرقية عُوذه وعوذهُ إذا وقاه، وكل انثىٰ وضعت فهي عائذ الى سبعة أيام»[7].

من ذلك يظهر لنا ان العوذ له معنيان «احدهما الالتجاء والاستجارة، وثانيهما الالتصاق ،يقال اطيب اللحم أعوَذُهُ وهو

المتلصق منه بالعظم، فعلى الاول معنى اعوذ بالله التجئ الى رحمته وعصمته وعلى الثاني معناه الصق نفسي بفضل الله ورحمته»[٨].

الاستعاذة الوارد ذكرها في القول الكريم، والمؤكد عليها في احاديث الرسول محمد(ص) والائمة الاطهار(ع) جاءت في سور متعددة ومن خلال التدبر في الآيات التي جاء ذكر الاستعاذة وطلب العون والالتجاء الى الله تبارك وتعالى يظهر ان الاستعاذة «عبارة عن حالة وكيفية نفسانية تحصل من العلم الكامل البرهاني بمقام التوحيد الحق الفعلي والايمان به»[٩].

فقراءة القرآن الكريم، او الاقدام على اي عمل صالح يستدعي بلا شك الى طلب الاعانة والعون والتوكل على الله سبحانه وتعالى وعلى طلب الاستعاذة منه تبارك اسمه من حبائل الشيطان ومصائده، وبالاخص في قراءة السفر العظيم والدستور الكريم الذي حمل للبشرية رسالة الاسلام الخالدة ونطق على لسان صاحب الشريعة(ص) بالحكم والمواعظ والقصص واحوال الامم والملوك، فطلب الاستعاذة بالله من الشيطان أمر في غاية الاهمية، لأن «الغور في الصورة الظاهرية للقرآن أيضاً اخلاد الى الارض ومن وساوس الشيطان ولابدّ من الاستعاذة بالله منها»[١٠].

لان القرآن الكريم بحر متلاطم وعميق الاغوار ولا يمكن لعموم الناس الدخول له الا بتوفيق الله تبارك وتعالى وطرد شيطان النفس عن القلب الذي يعي القرآن ويتدبر آياته.

فقوله تعالى ﴿فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾[١١].

معنى ذلك انك اذا قرأت القرآن «فاطلب منه تعالى ما دمت تقرؤه ان يعيذك من الشيطان الرجيم أن يغويك فالاستعاذة المأمور بها حال نفس القارئ مادام يقرأ، اما قول القارئ « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم» او ما يشابهه من اللفظ فهو سبب لايجاد الاستعاذة في النفس وليس بنفسها الا بنوع المجاز ،وقد قال سبحانه ﴿استعذ بالله﴾ ولم يقل قُل اعوذ بالله»[١٢].

فالالتجاء الى الله تبارك اسمه والاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن الكريم دليل على ان النظر في هذا السفر الكريم والفرقان العظيم يحتاج الى اعلى المقامات لغرض قراءته وسماعه، وان يعود الانسان في ذلك الى ربه بقلب مطمئن ونفس ساكنة ويلوذ بجنابه. عند ذلك يستحق مقام ان يكون قارئاً للقرآن الكريم.

فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم هي «تمهيد للجو الذي يُتلى فيه كتاب الله، وتطهير له من الوسوسة، واتجاه بالمشاعر

الى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان»[١٣].

وليست الاستعاذة بالله من الشيطان خاصة بقراءة القرآن الكريم، بل انها تعتبر من الآداب المهمه للقراءة في الصلاة «التي هي السفر الروحاني الى الله والمعراج الحقيقي ومرضاة وصول اهل الله، الاستعاذة من الشيطان الرجيم الذي هو شوكة طريق المعرفه ومانع السير والسلوك الى الله كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوله في الآية ١٦ من السورة المباركة الأعراف حيث قال ﴿فبما اغويتني لاقعدن لهم طراطك المستقيم﴾[١٤].

فهي من آداب قراءة السور في الصلاة وهي من حيث الذكر لها تعطي المذاكر ثواباً جزيلاً وعطاءً كثيراً لان قوله تبارك اسمه ﴿فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ «ايذان لنا بان الاستعاذة من جملة الاعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب»[١٥] والمعنى لهذا الثواب غير منحصر في قراءة القرآن الكريم او في غيرها من الاعمال التي أمر الله تبارك اسمه بالاستعاذة به من الشيطان الرجيم لاجلها ولاجل القيام بها على الوجه الاحسن والصورة المقبوله طمعاً في حصول الثواب منه تبارك وتعالىٰ.

«ولا تتحق هذه الاستعاذة بلقلقة اللسان والصورة بلا روح، والدنيا بلا آخرة، كما هو مشهور في أشخاص قالوا بهذا القول منذ اربعين أو خمسين سنة وما نجوا من شرّ هذا القاطع للطريق ،ويتبعون الشيطان في الاخلاق والاعمال بل في العقائد القلبية»[١٦].

فالاستعاذة لا تتحقق بقولٍ ليس له معنى يدل عليه ويدعو القائل الى تحري الصدق في طلب العون والالتجاء منه تبارك اسمه. فقراءة سريعة للآيات الكريمة التي تحدثت عن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم والتدبر في فهم هذه الآيات يعطي لنا آداب الاستعاذة وشروطها، بل يبين لنا اركانها وجوانبها، الاستعاذة التي سيأتي ذكر معظمها وبشكل مختصر.

فقوله تبارك وتعالى: ﴿وقل ربّ اعوذُ بك من همزات الشياطين واعوذُ بك ربّ أن يحضرون﴾[١٧].

وقوله سبحانه تعالىٰ: ﴿وإنّي أعيذُها بكَ وذرّيّتها من الشيطانِ الرجيم﴾[١٨]، كذلك قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وإمّا ينزغَنّكَ من الشيطانِ نزغٌ فاستعِذْ باللهِ إنّه سميعٌ عليم﴾[١٩].

وغيرها من الآيات الكريمة التي وردت في السور الشريفة «فصلت الآية ٣٦، وغافر اية ٥٦، وفي سور اخرىٰ وبالفاظ مختلفة» هي التي تحدد لنا ما أردنا ذكره وبيانه.

حقيقة الاستعاذة:

ان صفاء قلب الانسان ولطافته بالاصل المخلوق فيه فطرةً له استعداد لقبول الخواطر التي تكون إما من المَلَكِ وتسمىٰ الهاماً، واما من الشيطان وتعرف بالوسواس، وكلاهما يعتبر تهيؤاً من قبل القلب لقبول هذا العارض الذي كثيرا ما يتساوى بالايجاد والظهور، والفرق ان الاول يسمى توفيقاً من الله تبارك اسمه، والثاني وسواس اي اغواء واضلال وخذلان. و الجانب الأخير من حيث اتباع الانسان للهوىٰ والميل الى الشهوات والاعراض بالكامل عن الله وطريقة اهل الله، فيكون عندئذ القلب عشاً للشهوات وبيتاً للمهلكات التي هي معدن الشيطان ومملكة جنوده، لأن الهوى مرعى الشيطان ومرتعه هذا في ما يخص القلب باعتباره الاساس في هداية الانسان وكماله.

اما الذي هو اكثر من ذلك فتعرض الانسان المؤمن والعبد السالك للذنوب والشرور والآفات وغيرهن، مما يحتم عليه بل يضطره من باب طلب العون والمعين ان يلتجئ الى الله ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. فالعمدة في الاستعاذة اذن «في ازالة الشبهات ودفع الاغاليط والوساوس والشكوك»[٢٠].

وهذه لا تتحق بالمعنى الكامل ما لم يتوجه الانسان اولاً الى نفسه ومعرفتها، ثم الى معرفة ربه اللطيف الذي يمنحه اللطف في سيره هذا نحو غاية الغايات ودرجة اليقين وهي رضا تبارك اسمه. فالعمدة الحقيقية في الاستعاذة بالله من الشيطان اللعين هو «علم العبد بنفسه وربه، فما لم يعرف احد عز الربوبية وذلة العبودية لا تصح منه الاستعاذة بالله»[٢١].

وان ذلك لا يمكن تحققه في النفس ما لم يسعَ العبد الى المجاهدة والرياضة والاقبال بالكل على الله تبارك اسمه، عليه نرى ان الاستعاذة لا تكون الا بعلم وحال وعمل.

١ ـ العلم ،هو احساس العبد بالضعف وعدم القدرة على رد شيء أو جلب شيء الا بقدرة الله سبحانه وتعالى.

٢ ـ الحال ،اليقين الكامل بحصول الذلة والانكسار الروحي في القلب ،وهي التي نسميها بالتضرع والخضوع الى الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ العمل ،وهي السعي قلباً ولساناً لتحقيق هذه الاستعاذة بقلب طاهر ولسان معبر عما يضمر العبد في وجدانه.

فما احوج الانسان الى الاستعاذة بالله! لان الانسان كلما كان ايمانه اكمل ودرجته أعلى اصبح شيطانه اقوى واكثر غوايةً

واضلالاً، وله في «لطائف الحيل وجوه ادق واخفى واكثر اعوجاجاً، وعن طريق الاستقامة وعن سنن الاهتداء اميل، وعن رؤية الحق احول. ولما كان مقام قراءة الوحي وسماع الآيات اجل المقامات، وقع الامر بالاستعاذة بالله فيه من شيطان معروف بالبعد والطرد عن جناب الاحدية»[٢٣].

اركان الاستعاذة:

حقيقة الاستعاذة تقوم على اركان أربعة ولا يمكن ان تتحق الاستعاذة بالشكل المطلوب ويصل فيها العبد الى غاية التوكل على الله الا بتحقق هذه الاركان التي هي الله تبارك أسمه، والعبد الفقير الى الذات الاحدية المسجون في ظلمات عالم الطبيعة، وابليس وشياطينه المبعدين المطرودين من الحضرة القدسية ،والركن الرابع غاية الاستعاذة وما يستعاذ له من شرور وآفات وأمراض وعقائد باطلة ومكائد شيطانية.

الركن الأول:

وهو قول العبد «اعوذ بالله» وهي التوجه الى الله وحده بخلوص القلب الكامل وعدم الاستسلام لغيره تبارك اسمه والانقياد التام الذي يحقق معنى قولك اعوذ بالله، لان الاستعاذة باسم الله «تناسب جميع المقامات وهي في الحقيقة الاستعاذة المطلقه وسائر الاستعاذات استعاذات مقيدة»[٢٣] والاشارة في ذلك الى(المقيدة) تعني قول العبد اعوذ بكلمات الله أو اعوذ برسول الله أو اعوذ بجلال الله والى غير ذلك مما يصح الاستعاذة به في المراتب الاولى لسير العبد الى الله تبارك اسمه.

وتحقيق ذلك لا يكون بمجرد القول باللسان بل هو انعقاد بالقلب على اساس اليقين الكامل بأن الله هو المعين والمعيذ من جيمع الشرور والآفات الروحانيه والجسمانية غير المتناهية، عندما تتحق الاستعاذة في السالك الى الله في سيره وسلوكه الى الحق على حسب مقاماته التي يسير فيها ومدارجه.

الركن الثاني: «العبد»

الظاهر من الآيات الكريمة والاخبار ان الانسان مأمور بالاستعاذة بالله من الشيطان على مختلف حالاته وتباين درجات كماله .والأمر كما هو موجه الى الرسول محمد (ص) فهو موجه للأمة أيضاً بذلك،

والآيات التي مرّ ذكرها في أول الحديث شاهد على هذا الوجوب وعلى هذا الأمر، بالاضافة الى الآيات الاخرىٰ التي في سورتي الفلق والناس التي تدعو للاستعاذة من الشرور العارضه في هذا العالم .

والانسان يحتاج الى الاستعاذة اذا كان في مقام السير الى الله فقط، أما قبل السير والعروج فهو لاشك يعيش «حالة الاحتجاب المحض تحت تصرف الشيطان وسلطنته»[٢٤].

والمقام الآخر وهو الوصول، وما يطلق عليه تمام السير والفناء الذاتي حيث «لا يكون ثمة خبر من المستعيذ والمستعاذ له والاستعاذه»[٢٥].

فقولنا احتياج العبد الى الاستعاذة ما دام في مقام السير والسلوك لا تعني ان هذا العبد يعيش عزلة وحالة من الرهبانية والخلوة التي تبعده عن الواقع الذي خلق الانسان من أجل تحقيق حاكمية الله في كل شيء، والتي هي من معاني العبودية الحقيقية. بل ان السير والسلوك المطروح هنا هو خلاصة افعال واعمال وحالات الرسول الاعظم(ص) والأئمة الاطهار (ع) وأولياء الله الكمّل الذين تجل ساحتهم عن النيل بأفكار الغافلين. وان ذلك مؤجل الى مكان آخر خارج عن المطلب هذا.

والعبد لا يصل الى غاية الاستعاذة الا بالاخلاص والتوكل على الله تبارك وتعالى.

فقول الشيطان وقسمه بالاغواء والإضلال واستثناء المخلَصين في قوله تعالى﴿ فبعزتك لأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلَصين﴾[٢٥]. دليل على الخلوص لله تبارك اسمه والتوكل عليه ومانع وحاجب روحي في طريق اغواء واضلال الشيطان اللعين، فالاخلاص «خلوص الهوية الانسانية بجميع شؤونها»[٢٦].

والانسان المخلَص هو الانسان الذي اصطفاه الله وأذهب عنه زيغ الشيطان فأصبحت كل عباداته وطاعاته وافعاله خالصة لله، وكما قال الشيخ البهائي «تنزيه العمل ان يكون لغير الله فيه نصيب»[٢٧].

لان عبادة الانسان المخلَص هي «رسم تجليات المحبوب ولا يوجد في قلوبهم سوى الحق المتعال الواحد»[٢٨].

فالعبد لا يصل الى ذلك الا بتحقق هذا المعنى بالاضافة الى توكله ويقينه وتفويض الأمر الى الحي القيوم.

الركن الثالث : الشيطان

الشيطان لغة من شطن لأن النون فيه اصلية : «أي تباعد ومنه بئر شطون

وشطنت الدار وغربة شطون، وقيل بل النون فيه زائدة من شاط يشيط احترق غضباً، فالشيطان مخلوق من النار كما دل عليه ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾[٢٩] ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة وامتنع من السجود لآدم. قال ابو عبيدة: الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات قال تعالى ﴿شياطين الانس والجن﴾[٣٠] وقال ﴿وإن الشياطين ليوحون﴾[٣١]. ﴿وإذا خلوا الى شياطينهم﴾[٣٢] اي اصحابهم من الجن والانس وقوله ﴿كانه رؤوس الشياطين﴾[٣٣] قيل هي حية خفيفة الجسم وقيل أراد به عارم الجن فتشبه به لقبح تصورها، قوله ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين﴾[٣٤] منهم مردة الجن ويصح ان يكونوا هم مردة الانس أيضاً[٣٥]، من ذلك يظهر ان معنى الشيطان يحتمل في معنيين اولهما البعد وهو المقصود من شيطن دارك، لذلك سمي كل متمرد من المخلوقات شيطانا سواء كان جناً أو انساً اولى به، وثانيهما انه «مشتق من شاط اذا بطل، ولما كان كل متمرد كالباطل في نفسه لكونه مبطلا لمصالح نفسه سمي شيطانا»[٣٦].

لما كان الشيطان بنوعيه الانسي والجني ينازع الانسان في سبيل اغوائه واضلاله بما يوقع في قلبه من شك ووسوسة في قوته المتخيلة ويحرك قواها النفسية لقوله(ص) «ان الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم»[٣٧] وقوله (ص) «ما من احد الا وله شيطان»[٣٨] وان الشيطان أقسم بعزة الله جل جلاله على الترصد في سبيل اغواء الانسان كلما صعد في سلم الكمال وسار في طريق الله من أجل غايته وان هذا النزاع وهذه العداوة من قبل الشيطان لبني آدم هي اضلالهم عن الصراط المستقيم المؤدي بسالكه الى الوصول بالحق وجنة النعم ودعوته اياهم الى ما فيه هلاكهم قال (ص) «ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمّه فأمالمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب الخير، وامالمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمده ومن وجد الآخر فليتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾[٣٩]، [٤٠] ولذلك تبين ان كل ما يمنع الانسان عن الحق ويحجبه عن جمال المحبوب فهو شيطان، سواء كان هذا الشيطان، في صورة انسان أو جن، ويدخل في هذا المعنى كل ما يمنع الانسان عن هذا المقصود فهو أيضاً من حبائل ومكائد

الشيطان وان القوى الواهمة الجزئية الملكية من مظاهر ابليس وشؤونه التي توقع في القلب الوسوسة والشك الذي ينتهي الى الاغواء والاضلال «وبالجملة ما كان في هذا السلوك الالهي والسير الى الله مانعا من السير وشوكا في الطريق فهو الشيطان أو مظاهره التي أعمالها أيضاً عمل الشيطان»[41] وبما ان الشيطان في عقيدتنا يبدو وكأنه شيء ملموس لذلك ترى ان الآيات الكريمة والاخبار الشريفة توجه القلب الى مواضع الحذر منه والى اعلان العداء له لأننا لا يمكن ان نتصور ان هناك انساناً ينفك من وسوسته لذلك قال امامنا السجاد(ع) في الصحيفة السجادية من دعائه السابع عشر الفقرة الخامسة «اللهم اجعلنا في نظم اعدائه، واعزلنا عن عداد اوليائه، لا نطيع له اذا استهوانا، ولا نستجيب له اذا دعانا. اللهم واهزم جنده، وابطل كيده، واهدم كهفه، وارغم انفه.» فنحن اذن نستعيذ بالله السميع العليم من إبليس وشياطينه وجنده مما يضر في الآخرة ويضار سعادتها الخالدة، ومما هو شر في الدنيا وشر في تحقيق ديمومة السعادة في هذه الدار الفانية التي لاسعادة فيها الا برضا الله تبارك وتعالى.

الركن الرابع:غاية الاستعاذة

وغاية الاستعاذة او ما يستعاذ له ولاجله فهو جميع الآفات والشرور والخواطر والعاهات، وآفات وحوادث الدنيا النازلة بالانسان المتجه الى ربه والكادح اليه كدحاً رغبة في اللقاء وطمعاً في الوصال الذي يحقق حالة العشق المقدس لحقيقة الحقائق وغاية الغايات: الحضرة الالهية التي لا طمع لأرباب العقول في الوصول الى معرفتها بل تتيه العقول في نور جمالها السرمدي.

فالانسان بحسب تكوينه واختلافه عن الموجودات الاخرى في هذا الكون الواسع محتاج «الى تحصيل جميع الخيرات، والاستعاذه من جميع الشرور المقابلة للخيرات، وهي اما ان تكون من الاعتقادات الحاصلة في النفوس او من باب الاعمال الصادرة من قوى النفوس والابدان أو الانفعالات الواردة على الإنسان من الخارج»[42].

فغاية الاستعاذة هو نوع من الكمال والخير الذي يختلف ودرجة ايمان العبد ونوع مقامه في خط السير والسلوك الى الله تبارك اسمه الذي ينتج عنه مقدار توظيف العبد لجملة الاعتقادات التي تعيش في العقل

الى صورة حية سواء على مستوى العلم او مستوى العمل، وفي مجال الروح او مجال حركة البدن اليومية التي تحوم حولها اغواءات واضلالات الشياطين «فالسّالك غايته الحقيقية في كل مقام حصول الكمال والسعادة بالذات، وحيث ان مع السعادات والكمالات في كل مقام شيطانها هو لها قرين، وحبالة من حبائله مانعة للحصول، فلابد للسالك ان يستعيذ بالحق تعالى من ذلك الشيطان وشروره وحبائله للوصول الى المقصود الاصلي والمنظور الذاتي»[٤٣].

ولما كانت جملة الشرور والآفات والحوادث الواردة الى النفس من الداخل او الآتية الى البدن من الخارج تتوقف ازالتها والتوقي منها على الاستعاذة بالله منها، فمن الافضل لنا تحديدها بشكل مفيد ومناسب لهذا المطلب البسيط:

اولها: الافكار والعقائد الباطلة، والتي تدخل ضمنها الآراء والافكار التي تؤدي الى اضلال واغواء الأمة، ومنها اي من هذه الافكار و «التصرفات الخبيثة للشيطان إضلال القلب وازاغته عن الصراط المستقيم وتوجيهه»[٤٤] نحو غاية وهدف بعيد كل البعد عن قوله تعالى ﴿افمن يمشي مكبا على وجه أهدى ام من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾[٤٥] قال الامام أبو الحسن الماضي قال «قلت ﴿افمن يمشي مكبا على وجهه أهدى ام من يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ قال ان الله ضرب مثلاً من حاد عن ولاية علي (ع) كمن يمشي على وجهه لا يهتدي لأمره وجعل من تبعه سويا على صراط مستقيم والصراط المستقيم أمير المؤمنين (ع)»[٤٦].

ثانيها: كافة المتاعب والآلام والامراض التي تظهر في اعضاء البدن بل في كافة اعضائه الصغيرة.

ثالثها: وتشمل «جميع المكروهات الواصلة الى الانسان من الحرق والغرق والفقر والقتل والنهب والشتم وآثار الجور والظلم والبهتان والافتراء عليه وشهادة الزور مما لا يعد ولا يحصى. فقوله اعوذ بالله يجب ان يتناولها كلها ويجب على كل عاقل ان يستعيذ منها وان يستحضر الاجناس الثلاثة وانواعها كذلك»[٤٧].

وختام الكلام ان الانسان المؤمن مكلف بتطهير قلبه وتصفية نفسه من الوان الخواطر المضلة المكدرة لصفو اللقاء مع المحبوب وكأنه تعالى اسمه يقول لعبده «اني جعلت جنتي لك وانت جعلت جنتك لي لكنك ما انصفتني فهل رأيت جنتي الآن وهل دخلتها؟ فيقول العبد لا يا رب فيقول تعالى :

وهل دخلت جنتك؟ فلابد ان يقول العبد نعم يا رب، فيقول تعالى انك ما دخلت جنتي ولكنه لما قرب دخولك اخرجت الشيطان من جنتي لاجل نزولك وقلت له اخرج منها مذموما مدحورا، فاخرجت عدوك قبل نزولك واما انت فبعد نزولك في بستانك بسبعين سنة كيف يليق بك ان لا تخرج عدوي ولا تطرده. فعند هذا يجيب العبد ويقول الهي انت قادر على اخراجه من جنتك واما أنا فعاجز ضعيف ولا اقدر على اخراجه، فيقول الله تعالى العاجز اذا دخل في حماية الملك القاهر صار قويا فادخل في حمايتي حتى تقدر على اخراج العدو من القلب فقل اعوذ بالله من الشيطان الرجيم»(٤٨).

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

الهوامش

(١) التوبة: ١٢٤ـ١٢٥.

(٢) التوبة: ١٢٩.

(٣) النحل: ٩٨ ـ ١٠٠.

(٤) لسان العرب لابن منظور ٩ : ٤٦٤.

(٥) البقرة : ٦٧.

(٦) الدخان: ٢٠.

(٧) معجم مفردات الفاظ القرآن ، للراغبالاصفهاني: ٣٦٥.

(٨) تفسير القرآن لصدر المتالهين ١ : ٣.

(٩) الآداب المعنوية للصلاة للامام الخميني ٢٤٢.

(١٠) المرجع السابق.

(١١) النحل: ٩٨.

(١٢) الميزان للعلامة الطباطبائي ١٢: ٣٤٣.

(١٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥: ٢٨٠.

(١٤) الاداب المعنوية للصلاة : ٣٧٠.

(١٥) الكشاف للزمخشري ٢: ٦٣٣.

(١٦) الآداب المعنوية للصلاة.

(١٧) المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨.

(١٨) آل عمران: ٣٦.

(١٩) فصلت : ٣٦.

(٢٠) تفسير القرآن وصدر المتالهين ١:٥.

(٢١) المصدر السابق ١: ٥ـ٦.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) الآداب المعنوية للصلاة : ٢٨٥.

(٢٤) الآداب المعنوية للصلاة : ٢٨١.

(٢٤) المرجع السابق.

(٢٥) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢٦) الاربعون حديثا للامام الخميني : ٢٧١.

(٢٧) المرجع السابق.

(٢٨) المرجع نفسه.

(٢٩) الرحمن: ١٥.

(٣٠) الانعام: ١١٢.

(٣١) الانعام: ١٢١.

(٣٢) البقرة: ١٤.

(٣٣) الصافات: ٦٥.

(٣٤) البقرة: ١٠٢.

(٣٥) معجم مفردات الفاظ القرآن للراغبالاصفهاني : ٢٦٨.

(٣٦) تفسير القرآن الكريم لصدر المتالهين ١: ٣.

(٣٧) دارمي ٢: ٢٢٠.

(٣٨) مسلم ١٧: ١٥٧.

(٣٩) البقرة: ٢٦٨.

(٤٠) الدر المنثور ١: ٣٤٨.

(٤١) الآداب المعنوية للصلاة: ٣٨٢.

(٤٢) تفسير القرآن لصدر المتألهين: ١٥.

(٤٣) الاداب المعنوية للصلاة: ٣٨٦.

(٤٤) الاربعون حديثا: ٤٧٢.

(٤٥) الملك: ٢٢.

(٤٦) الكافي كتاب الحجة ١: ٩١.

(٤٧) تفسير القرآن الكريم لصدر المتألهين ١: ٢٣.

(٤٨) المصدر السابق ١: ٢٤.

* * *

فى الحيض ووجوب اعتزال النساء

السيد حسين الطباطبائي اليزدي



٥٢ـ قوله تعالى: ﴿ويسالونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهنّ حتى يطهرن فاذا تطهّرن فاتوهنّ من حيث امركم اللّه ان اللّه يحب التوابين ويحب المتطهّرين.﴾[١]

القراءة

قرأ ابن كثير، ونافع، وابو عمرو، وابن عامر، ويعقوب الحضرمي، وابوبكر عن عاصم، «حتى يطهُرنَ» خفيفةً من الطهارة، وقرأ حمزة و الكسائي «يطّهّرنَ» بالتشديد، وكذا حفص عن عاصم.

فمن خفف فهو زوال الدم لان يطهُرنَ من طَهُرت المرأة من حيضها، وذلك اذا انقطع الحيض.

ومن قرأ بالتشديد، فهو على معنى يتطهرن، فادغم التاء، في الطاء.

النزول

قيل: كانوا في الجاهلية يتجنبون مواكلة الحايض ومشاربتها ومجالستها، فسالوا عن ذلك، فنزلت الآية عن الحسن و قتاده والربيع؛ وقيل: كانو يستجيزون اتيان النساء في ادبارهن ايام الحيض، فلما سألوا عنه بين لهم تحريمه؛ عن مجاهد؛ والاول عندنا اقوى؛ كما في مجمع البيان.

اخرج السيوطي في تفسيره[٢] عن جماعة منهم مسلم وابوداود والترمذي و النسائي وابن ماجه عن انس: ان اليهود كانوا اذا حاضت المرأة منهم اخرجوها من البيت ولم يواكلوها ولم يشاربوها ولم

يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله(ص) عن ذلك فانزل الله ﴿ويسالونك عن المحيض قل هو اذي فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الآية. فقال، رسول الله(ص) جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء الا النكاح، فبلغ ذلك اليهود فقالوا مايريد هذا الرجل ان يدع من امرنا شيئاً الا خالفنا فيه، فجاء أسيد بان حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله ان اليهود قالت: كذا و كذا؛افلا نجامعهنّ فتغير وجه رسول الله(ص) حتى ظننا ان قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن الى رسول الله(ص)، فارسل في اثرهما نسقاهما فعرفنا انه لم يجد عليهما.

المفردات

المحيض: مصدر كالحيض ووزنه كالمجيء والمبيت، يقال: حاضت المرأة محيضاً؛ والحيض في اللغة، السيلان، يقال حاض السيل وفاض، وشرعاً لايبعد ان يكون ايضاً حقيقة في هذه المعنى لأصالة عدم النقل، وتعريفه على مايظهر من بعض الاخبار: بدم حارّ عبيط اسود له دفع و حرارة، تجد له حرقة، ويخرج من الرحم في مدة لاتقل عن ثلاثة ايام ولاتتجاوز العشرة، استعداداً للحمل حين المعاشرة الزوجية ابقاء للنوع البشرى، يكون مما كان تطبيق الكلي على الفرد بنحو تعددالدال والمدلول.

وعن ابي عبدالله(ع) قال: سال سلمان رحمه الله علياً(ع) عن رزق الولد في بطن امه؟ قال: **ان الله تبارك و تعالى حبس عليها الحيضفجعله رزقه في بطن امه.**[٣]

الاعتزال: التنخي عن الشيء وكل شيء نحيته عن موضعٍ فقد عزلته عنه، والمراد بالاعتزال هنا ترك الاتيان من محلّ الدم على ماسنبين.

الاذى: هو الضرر على ما قيل، ولكن الاصح انه بمعنى المكروه المستقذر الذي ينفر الطبع منه، لانه لو كان بمعنى الضرر لجاز مقابلته مع النفع، كما ان الضرر مقابل النفع وليس بصحيح. لايصح في بعض الايات حمله على الضرر، كما في قوله: ﴿لِمَ تؤذون الله ورسوله﴾[٤] ـ وقوله: ﴿لِمَ تؤذونني وقد تعلمون انّي رسول الله اليكم﴾[٥] ـ فالظاهر كما قلنا ان الاذى هو الشيء الطارئ عل الانسان غير الملائم على طبعه فقد ينطبق عليه معنى الضرر.

الطهر: انقطاع دم الحيض، والتطهر: هو الاغتسال بالماء ان وجد ولم يمنع منه مانع، أو التيمم بدلاً منه.

قولـه تعـالى: ﴿ويسالـونـك عن المحيض﴾ ـ اي عن المحيض واحواله وفي مخـالطة النسـاء، وهـو مصـدر كما تقـدم، ويجـيء المحيض أسمـاً لـزمـان الحيـض ومكانه.

﴿قل هو اذى﴾ أي قدر، يستنفر الطبع منه، ولابد في قوله: ﴿قل هو اذى﴾ من نحو مـن الاستخـدام، فـان الحيـض بمعنـاه المصدرى ليس قـذراً يجتنبه الرجـال وانّما القـذر والاذى هـو الـدم، و يحسن هـذا الاستخدام بشـدة الملابسة والاستغنـاء به عن التصريح باسم دم الحيض المستقذر.

﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي لاتاتـوهن في محـل الحيض والقذارة وهـو الفرج، وقيل: ان النصارى كانوا يجامعونهن ولايبـالـون بـالحيـض، واليهـود كـانـوا يعتزلونهن في كل شيء.

فـالاسلام قـد اخذ طـريقا وسطـا بين التشديد التام، والاهمـال المطلق، وهو المنع عن اتيان محل الدم، والاذن فيما دونه.

وان كـان ظـاهـر قـولـه: ﴿فاعتزلوا النساء﴾ مطلق الاعتـزال على مـا قالت بـه اليهـود، ولكن لايمكن الاخـذ بهذا الاطـلاق، اولاً لان في قوله تعالى: ﴿فاتوهنّ من حيث امركم اللّه﴾ المراد منـه محل الدم كمـا هو معلـوم، فيكـون قـرينـة علـى ان قـولـه: ﴿فاعتزلـوا ... ولاتقربوا﴾ واقعان مـوقع الكنايـة لا التصريح، والمراد بـه الاتيان من محلّ الدم فقط.

وثانياً: الاخذ بالاطلاق مخالف لاجماع المسلمين، ودعـوى الاخـذ بـالاطلاق بعـد التخصيص بمـا دلّ عليـه الاجمـاع يلزمهـا تخصيص الاكثر و هو مستهجن.

﴿ولاتقربـوهنّ حتى يطهـرن﴾ اى لاتجامعوهـن، وهو تاكيد للامـر بالاعتزال، حتى ينقطع دمهـن على قراه التخفيـف كما هو المـرسوم في المصاحف المتـداولة بين المسلميـن يـداً عن يـد، وعليـه قـراءتهـم، والمعنى حتى ينظُفنَ من ذلك الاذى والقذارة بانقطاع الحيض ونقاء المحل الذي هو الغاية لـوجوب الاعتـزال وعـدم القـرب، وهذا هـو المناسب لتفـريع الامر بالاعتـزال على كون دم الحيض اذى وقـذارة وتعليلـه بـه، وعلى ذلك اجماع الاماميه واحاديثهم، كما سيأتي.

وعلى قراءة التشديد يكون المعنى حتى يغتسلنَ أو يتـوضّـأنَ، فيحـرم الـوطء قبل الغسل او الوضـوء.

وفي الوجيز قال: وجمعوا بين القراءتين

بحمل «تطهّر» على معنى «طهُر» لوروده لغةً «كتبين بمعنى بان»، وكذا: ﴿فاذا تطهّرنَ﴾ اى طهُرنَ، أو غسلنَ الفرج حملا على المعنى اللغوى، لمنع ارادة الغسل اذ لم تثبت الحقيقة الشرعيه.

﴿فاذا تطهّرنَ فاتوهن من حيث امركم اللّه﴾ اي اذا غسلنَ الفرج أو اغتسلنَ أو توضّأنَ، فجامعوهنّ، وأتوهن من المأتى الّذي جبلت النفوس على الميل اليه، ومضت سنة اللّه بحفظ النوع به، وهو موضع النسل.

وهو إباحة وان كان صورته الامر، كقوله تعالى: ﴿واذا حللتم فاصطادوا.﴾[٦]

وفي آلاء الرحمن: لايلزم ان يكون هذا التفريع تكراراً في بيان الغاية المذكورة في ﴿حتى يطهُرنَ﴾ بل اللازم في قانون المحاورة بحسب النظر الى (يَطهُرنَ) بالتخفيف و(يطّهّرنَ) بالتشديد، ان يكون تفريعا لأمر آخر وراء تلك الغاية وهو ان الاباحة بالمعنى الاعم المضاد للحرمة تحصل عند غاية التحريم ووجوب الاعتزال وهو النقاء من الحيض، وان الوطء الذي يؤمر به، ويطلب لبقاء النوع وحسن الالفة بين الزوجين أو يكون مباحاً بالمعنى الأخص فهو اذا تَطَهّرنَ من الأقذار بان غسلنَ فروجهنّ من آثار الدم ولو بغسل الحيض، وعلق هذا على تطهّرنَ، جريا على الغالب، والا فالغرض يحصل وان سقطن في الماء مثلا بدون اختيارهنّ.

﴿ان اللّه يحب التوابين ويحب المتطهّرين﴾ اي ان اللّه يحب الذين يرجعون اليه تائبين غير مصرين على سيّئ أفعالهم، ويحب المتطهّرين من الغائط بالماء، كما دلت عليه الاخبار من اهل العصمة عليهم السلام، وسياتي في بيان حكم الآية.

الحكم

وفيه مسائل:

المسألة ١: في الحيض وهو دم خلقه اللّه تعالى في الرحم، وفي الاغلب دم اسود غليظ يخرج بحرقة وحرارة وقوة، بعكس الاستحاضة، وهي في الاغلب دم اصفر بارد رقيق، تراه المرأة بعد أيام اليحض، أو بعد ايام النفاس، أو بعد اليأس، و يشترط في دم الحيض ان يكون بعد البلوغ وقبل اليأس، فما كان قبل البلوغ أو بعد اليأس ليس بحيض وان كان بصفاته، واقله ثلاثة أيام و اكثره عشرة ايام، وما بينهما بحسب العادة، واقل الطهر عشرة ايام ولاحدّ لاكثره.

ويحرم على المرأة الحائض دخول

المساجد الا اجتيازاً عدا المسجدين، وقراءة العزائم، ومسّ كتابه القرآن، وشيء عليه اسم الجلالة، وبعضّ ٱلحَقَ بـه اسماء الانبياء والائمه والزهراء عليهم السلام، ويحرم على زوجها وطؤها، كما سيأتي تفصيل ذلك.

ولاتنعقد لها صلاة ولاصوم ولا طواف ولا اعتكاف، ولايصح طلاقها، الا مع الغيبة أو الحمل أو عدم الدخول. ولايجب عليها قضاء الصلاة اليومية، ويجب عليها قضاء الصوم وله احكام وفروع يأتي بعضها المستفاد من الآية، وبعضها الآخر موكول الى الكتب الفقهية، هذا مجمل الكلام في ما ذهب اليه اصحابنا الامامية.

وامّا عند الجمهور، الحيض هو دم يخرج من قُبُلِ المرأة حال صحتها من غير سبب ولادة أو افتضاض، وقته البلوغ الى سنّ اليأس، على اختلاف بينهم في البلوغ واليأس، بشرط ان يكون على لون من الوان الدم، على اختلاف بينهم في الوان الدم.

واقل الحيض عند الشافعي في المشهور عنه، واحمد يوم وليلة واكثره خمسة عشر يوما بلياليها. وعند ابي حنيفة اقله ثلاثة ايام واكثره عشرة أيام، وعند مالك ليس لاقله حدّ ويجوز ان يكون ساعة واكثره خمسة عشر يوماً.

واقل طهر فاصل بين الحيضتين خمسة عشر يوما عند ابي حنيفة والشافعي، وعن احمد ثلاثة عشر يوما. وعن مالك انه قال: لا اعلم وقتا يعتمد عليه، وعن بعض اصحابه ان اقله عشرة أيام ولاحد لاكثره بالاجماع.

ويسقط عنها فرض الصلاة مدة حيضها ولايجب عليها قضاؤه، وامّا الصوم فتمتنع منه في حال الحيض ويجب عليها القضاء، ويحرم عليها الطواف بالبيت، و اللبث في المسجد، ويحرم وطؤها حتى ينقطع حيضها، ولايصح منها الاعتكاف، بلا خلاف بينهم.

هذا كله ماصرح به الفقهاء كابن رشد في بداية المجتهد(٧) وابي عبدالله الدمشقي في رحمة الامة في اختلاف الائمة(٨) ويظهر من كتاب الفقه على المذاهب(٩)، هذا ما اتفقوا عليه من احكام الحائض وهناك احكام محل الخلاف بينهم سيأتي بعضها المستفاد من الآية.

المسألة ٢: استدل بقوله تعالى: ﴿قل هو اذى﴾ على نجاسة دم الحيض وان نجاسته مغلّظة، بتقريب انه اتى بالاسم الظاهر ثم الضمير ثم نكر الخبر ووصفه بالاذى، أي انّه لايعفى عن قليله كما لايعفى عن كثيره، بل يجب ازالته. ولايخفى مافيه.

والحق ان الدال على ذلك الاجماع وبعض الاخبار. كرواية[١٠] ابي بصير عن ابي عبداللّه و ابي جعفر عليهما السلام قالا: «لاتعاد الصلاة من دم لم تبصره الا دم الحيض، فان قليله و كثيره في الثوب ان رآه وان لم يره سواء».

المسألة ٣: استدل بقوله تعالى: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ على وجوب الاعتزال المؤكد مادامت حائضاً ، وهو مما اجمعت عليه الامة على جميع فرقها، بل صرّح بعض الاصحاب بكفر مستحله. واجمع الكل على تحريم موضع الدم.

وفي مصباح الفقيه: يحرم على زوجها او سيدها وطؤها في القبل، ويحرم عليها تمكينه من ذلك حتى تطهر بالادلة الثلاث؛ قال في المدارك: اجمع علماء الاسلام على تحريم وطء الحائض قبلا، بل صرّح جمع من الاصحاب بكفر مستحلّه مالم يدّع شبهة محتمله لانكاره ماعلم من الدين ضرورة.

وفي بداية المجتهد[١١]: واتفق المسلمون على ان الحيض يمنع اربعة اشياء ــ الى قوله ــ: الرابع ـ الجماع في الفرج لقوله تعالى: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾.

نعم اختلفوا في جواز الاستمتاع فيما بين السرة والركبة، بعد اتفاقهم على الجواز فيما عدا ذلك. فعن السيد المرتضى(ره): منع الاستمتاع بين السرة والركبة، وهو قول ابي حنيفة ومالك والشافعي من الجمهور كما صرح به في كتاب رحمة الامة في اختلاف الائمة[١٢] ويظهر من كتاب بداية المجتهد.[١٣]

وذهب اكثر اصحابنا الى الجواز، وكذا عن احمد و محمد بن الحسن و بعض اكابر المالكية وبعض اصحاب الشافعي، كما صرح به ايضاً في كتاب رحمة الامة وعن الثورى وداود الظاهرى كما في بداية المجتهد.[١٤] وهو الاقوى لعموم قوله تعالى في سورة المؤمنين وسورة المعارج: ﴿الا على ازواجهم أو ماملكت ايمانهم فانّهم غير ملومين﴾[١٥]، و خرج منه موضع الدم بالاجماع، فيبقى ماعداه، وللاصل، واستصحاب الجواز من قبل حالة الحيض مضافاً الى النصوص الكثيرة المستفيضه كحسنة عبدالملك بن عمرو، قال سألت أباعبداللّه(ع): مالصاحب المرأة الحائض منها؟ فقال(ع): «كل شيء ماعدا القبل منها بعينه»[١٦]

وموثقة هشام بن سالم عن أبي

عبدالله(ع): في الرجل ياتي المرأة فيما دون الفرج وهي حائض؛ قال(ع): «لاباس اذا اجتنب ذلك الموضع».[١٧]

وموثقة معاوية بن عمار عن ابي عبدالله(ع) قال سألته عن الحائض مايحل لزوجها منها؛ قال: «مادون الفرج»[١٨]. الى غير ذلك من الاخبار الدالة على ذلك من طرقنا. واما من طريق الجمهور مارواه ابن ماجة القزويني في سننه[١٩] باسناده عن أنس: ان اليهود كانوا لايجالسون الحائض في بيت ولاياكلون ولايشربون معها قال: نذكر ذلك للنبي(ص) فانزل اللّه: ﴿يسالونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ فقال رسول اللّه(ص): اصنعوا كل شيء الا الجماع.

وماتقدم من تفسير الدرالمنثور في وجه نزول الاية. وبما تقدم ظهر ضعف مانسب الى السيد(ره)، واكثر العامة، من تحريم الاستمتاع مابين السرّة والركبة، وامّا مادلت من الروايات على ذلك فكثير منها:

صحيحة الحلبي: انّه سأل أباعبدالله(ع) عن الحائض وما يحلّ لزوجها منها؛ قال(ع): تتزر بازار الى الركبتين وتخرج سرّتها ثم له مافوق الازار.[٢٠]

وما نقله الجمهور في كتبهم عن عائشة وميمونة انّه: كان رسول اللّه(ص) اذا اراد أن يباشر أمرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض.[٢٠] ونحوه في الوسائل في المحل السابق. فالجمع العرفي بينها وبين النصوص المتقدمة، بالحمل على الكراهة ممكن فيتعين، واللّه العالم.

المسألة ٤: في قوله تعالى: ﴿ولا تقربوهُنّ حتى يطهُرنَ فاذا تَطَهَّرنَ فاتوهُنّ من حيثُ امركم اللّه﴾ اختلفوا في غاية تحريم الوطء.

فعن اكثر الاصحاب، بل دعوى الاجماع عليه، على انّه يجوز وطؤها بعد انقطاع الدم قبل الغسل. وفي الجواهر: جاز وطؤها قبل الغسل بلاخلاف متحقق اجده، بل عليه الاجماع في الخلاف والانتصار و الغنية وظاهر السرائر وعن التبيان و مجمع البيان واحكام الراوندى، و يشهد له التتبع لكلمات الاصحاب، عدا ما عساه يظهر من الصدوق في اول كلامه، ولذا نسب اليه ذلك، لكنه قال بعده: ان كان الزوج شبقا و اراد وطؤها قبل الغسل امرها ان تغسل فرجها ثم يجامعها، قيل وهو يعطى ارادة شدة الكراهة، كما انّه يحتمل قصره الجواز على ذلك.

وذهب مالك والشافعي واكثر الجمهور

على انّه لايجوز وطؤها الا بعد الغسل وان كان الانقطاع لاكثر الحيض.

وعن ابي حنيفة واصحابه: ان انقطع لاكثر الحيض جاز وطؤها قبل الغسل، وان انقطع لدون اكثر الحيض لم يجز حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت صلاة.

وعن الاوزاعى وداود: اذا غسلت فرجها جاز وطؤها.

هذا ماصرح به جماعة منهم كالقرطبي[٢٢] وابن رشد[٢٣] وابوعبداللّه الدمشقي[٢٤]، والاظهر ما عليه اكثر الاصحاب من جواز وطئها قبل الغسل، لما تضمنته الآية الشريفة من تخصيص الاعتزال بزمان المحيض او مكانه، لانّه انما يكون موضعا له مع وجوده، اذ ليس المراد ما كان موضعا او يكون موضعا اجماعا، فاذا انقطع انتفى التحريم، ويرشد الى ذلك ايضاً الوصف بكونه اذىً. ولما تقتضيه قراءة التخفيف في «يطهُرنَ» فانّ المتبادَر انّ المراد (يَنقَينَ) من الدم، وذلك كلّه قرينة على كون المراد من قوله: ﴿فاذا تطهَّرنَ﴾ بمعنى (طَهُرنَ) فيكون من قبيل (تطعَّمتُ) الطعامَ بمعنى (طَعُمتُهُ).

ويحتمل ان يكون المراد به غسل الفرج، وهو المعنى اللّغوى، اذ لم تثبت الحقيقة الشرعية في المورد، و ان قلنا بثبوته في بعض الموارد كالصلاة والصوم والزكاة، ولو سلّم يتعين الحمل على اللّغوى للقرينة المذكورة، على انّه على تقدير ان يراد به المعنى الشرعيّ اعنى الغسل، تقول: هنا مفهومان يتعارضان، وما اقتضى الاباحة مفهوم غاية، والثاني مفهوم شرط، ولايصلح لمعارضته، لانّ مفهوم الغاية، اقوى كما حقق في الاصول، مع انّه يمكن الجمع بينهما بحمل الاول على الجواز و الثاني على الكراهة. لايقال: الامر الوارد بعد الحظر للاباحة، فالمفهوم عدمها و هو التحريم.

لانا نقول: دلالة المفهوم مع ماسبقه قرينة دالة على كون الامر هنا لمطلق الرجحان الشامل للواجب، كما اذا كان قد اعتزلها اربعة اشهر آخرها اوّل زمان الانقطاع، أو وافق ذلك انقضاء مدة التربص في الايلاء و الظّهار، وللمندوب كالسبق ومن يخاف الوقوع في الزنا و نحو ذلك، فمن يستحب له المبادرة الى الجماع، فمفهومه عدم الرجحان، هو اعمّ من الحرام، او يقال: ان المراد بالاباحة هنا معناها الاخص اعنى تساوى الطرفين. فان قيل: لاترجيح لقراءة التخفيف على قراءة التشديد و مقتضاها

التحريم قبل الغسل لان معنى الاطّهار الاغتسال، ويحمل على ذلك قراءة التخفيف اذ الحقيقة الشرعية وان لم تثبت لكن لم يثبت نفيها، على انا لو سلّمنا حمل الطُهر في قراءة التخفيف على المعنى اللّغوى، نقول: ان دلالته على الجواز بالمفهوم، وهي لاتعارض دلالة التشديد على العدم لانّها دلالة منطوق، مع انّ مفهوم ﴿فاذاَ تطَهَّرنَ﴾ يؤيد ذلك.

قلت: قد عرفت انّ سياق الآية الشريفة واللغة يقتضى كون المراد من (الطُهر) هو (النّقاء) كما يرشد اليه شيوع الاطلاق على ذلك في الاخبار، فلا بُعدَ في حمل الاطّهار على ارادة انقطاع الدم أو زيادة التنظيف الحاصلة بسبب غسل الفرج ونحوه من الامور المستقذرة، أو المراد الاعم من الوضوء.

ولو سُلّمَ انّه لاترجيح لاحد الامرين من جوهر اللفظ، نقول: انّ الآية الشريفة حينئذ من المجمل المحتاج الى الكشف النبوى، والذى دلت عليه ظواهر الاخبار هو القول بالجواز. كموثقة ابن بكير عن ابي عبدالله(ع) قال: «اذا انقطع الدّم ولم تغتسل فلياتها زوجها ان شاء».[٢٥]

ورواية علي بن يقطين عن ابي الحسن(ع) قال: سألته عن الحائض ترى الطهر ايقع بها زوجها قبل ان تغتسل؟ قال: «لا بأس وبعد الغسل احب اليّ».[٢٦]

ورواية عبدالله بن المغيرة عمن سمعه عن العبد الصالح(ع) في المرأة «اذا طهرت من الحيض ولم تمس الماء فلا يقع عليها زوجها حتى تغتسل وان فعل فلا بأس به، وقال: تمس الماء احب اليّ».[٢٧]

فهذه الاخبار عليها المعوّل في بيان المعنى المقصود من الآية الشريفة، وهي صريحة بعيدة عن قبول التأويل جداً كما لايخفى.

وفي مقابل هذه الروايات اخبار اخر دالة بظاهرها على المنع، وحملها على الكراهة كما اشعرت به الاخبار السابقة طريق الجمع بينها، مع ان الحمل على التقية ممكن لما عرفت من موافقتها لاكثر العامة.

ومما يدل على جواز الوطي قبل الغسل من طريق الجمهور، ما في تفسير الدر المنثور[٢٨]، حيث قال: أخرج ابن المنذر من وجه آخر عن مجاهد وعطاء قالا: اذا رأت الطهر فلا بأس ان تستطيب بالماء ويأتيها قبل ان تغتسل.

وفيه ايضاً ـ عن ابن عباس في قول: ﴿ولاتقربوهن حتى يَطهُرنَ﴾ قال: من الدم ونحوه، عن مجاهد.

تنبيه ـ اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى:﴿من حيثُ امركم اللّه﴾ قيل: من حيث امركم اللّه بتجنبه وهو محلّ الحيض، أعنى القُبُل، وهو قول ابن عباس ومجاهد، وابراهيم و قتاده. وقيل: من الجهات التي يحل فيها دون الجهات التي لايحلّ فيها، كالصائمات والمُحرِمات و المعتكفات، وهذا قول الاصم والزجاج. وعن محمد بن الحنفية: فاتوهن من قِبَلِ الحلال دون الفجور.

المسألة ٥: في قوله تعالى:﴿ان اللّه يحبّ التوابين ويحب المتطهّرين﴾ استدل بعض الاصحاب به على رجحان الاستنجاء بالماء، نعم مع انضمام الروايات الواردة في سبب النزول يدل على ذلك. كصحيحة أو حسنة جميل قال: عن ابي عبداللّه(ع) قال في قول اللّه عزّوجلّ ﴿ان اللّه يحبّ التوابين ويحبّ المتطهّرين﴾ قال: كان الناس يستنجون بالكرسف والاحجار ثم أُحدِثَ الوضوء وهو خلق كريم فامر به رسول اللّه(ص) وصنعه وانزل اللّه في كتابه: ﴿ان اللّه يحب التوابين و يحبّ المتطهرين﴾.(٢٩)

الظاهر ان المراد من الوضوء هنا الاستنجاء بالماء.

ورواية ابي خديجة عن ابي عبداللّه(ع) قال: كان الناس يستنجون بثلاثة احجار لانّهم كانوا يأكلون البسر فكانوا يبعرون بعرا، فاكل رجل من الانصار الدبا فلان بطنه فاستنجى بالماء، فبعث اليه النبي(ص) قال: فجاءه الرجل وهو خائف يظن ان قد يكون نزل فيه شيء يسوؤه في استنجائه بالماء، فقال له: هل عملت في يومك هذا شيئا، فقال له: نعم يا رسول اللّه انّي واللّه ماحملني على الاستنجاء بالماء الا انّي اكلت طعاما فلان بطني فلم تُغنِ عنّي الحجارة شيئا، فاستنجيت بالماء. فقال: رسول اللّه(ص) هنيئا لك، فان اللّه قد انزل فيك اية فأبشر ﴿انّ اللّه يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين﴾ فكنت اول من صنع هذا واوّل التوابين واوّل المتطهرين.(٣٠)

الى غير ذلك من الاخبار الدالة على ذلك.

وعلى دلالة الآية الشريفة ايضاً على رجحان المبالغة في الطهارة، وعلى اطلاق الطهارة على ازالة النجاسة.

وعن بعض الاعلام: لايبعد فهم استحباب النورة وامثالها، بل استحباب الكون على الطهارة والاغسال المستحبة، واستحباب المبالغة في اجتناب المحرمات والمكروهات، واجتناب محالّ الشبهات،

وكلّ ما فيه نوع خسّة ودناءة، والحرص على الطاعات والحسنات فانهنّ يُذهِبنَ السيئات، فان الطهارة ان كان لها شرعاً حقيقة فهي رافع الحدث أو المبيح للصلاة وهنا ليست مستعملة فيه اتفاقا، فلم يبق الا معناها اللغوى العرفي، اى النزاهة والنظافة، وهو يعم الكل، انتهىٰ، وفيه تأمل. والجمهور ذهبوا في قوله تعالى: ﴿المتطهرين﴾ الى ثلاثة اقوال.

الاول ـ المتطهرون بالماء للصلاة.

الثاني ـ الّذين لاياتون النساء في ادبارهنّ.

الثالث ـ الّذين لاينقضون التوبة، طهّروا انفسهم عن العود الى ما رجعوا عنه من الباطل الذي كانوا فيه.

هذا ماصرح به ابن العربي في احكام القرآن[٢١] ثم قال: واللفظ، وان كان يحتمل جميع ماذكر، فالاول به اخص وهو فيه اظهر، وعليه حمله اهل التأويل، وهو المنعطف على سياق الآية المنتظم معها، واللّه اعلم.

الهوامش

(١) البقرة: ٢٢٢

(٢) الدر المنثور ١:٢٥٨

(٣) الوسائل، باب جواز اجتماع الحيض مع الحمل ١:١٥٧

(٤) الاحزاب: ٥٧

(٥) الصف: ٥

(٦) المائدة: ٢

(٧) ج١ ـ صفحه: ٤٨ الى ٥٤

(٨) ج١ ـ صفحه: ٢٦ و ٢٧

(٩) ج١ صفحه: ٨٧ و ٩٠ و ١٢١ الى ١٢٣

(١٠) التهذيب ج١ صفحه ٧٣

(١١) ج١ ـ صفحه ٥٤

(١٢) ج١ ـ صفحه ٢٧

(١٣) ج١ ـ صفحه ٥٤ و ٥٥

(١٤) المصدر نفسه

(١٥) المؤمنون: ١ المعارج: ٣٠

(١٦) الوسائل ـ كتاب الطهارة ـ باب جواز وطى الحائض فيما عدا القبل صفحه ١٥٦

(١٧) المصدر نفسه

(١٨) الوسائل ـ كتاب الطهارة ـ باب جواز وطي الحائض فيما عدا القبل صفحه ١٥٦

(١٩) ج١ ـ بابما جاء في مؤاكلة الحائض وسؤرها ـ ص: ١١٥

(٢٠) الوسائل باب استحباب اجتناب مابين السرة والركبة ـ ١٥٦

(٢١) صحيح البخاري ج١ ـ باب مباشرة الحائض ـ صفحه ٧٩

(٢٢) تفسيره الكبير ـ ج٣ ـ صفحه ٨٨

(٢٣) بداية المجتهد ج١ صفحه ٥٥

(٢٤) رحمة الامة في اختلاف الائمة ـ ج١ ـ صفحه ٢٨ ـ المطبوع على هامش ميزان الكبرى للشعراني

(٢٥) الوسـائل ـ كتاب الطهارة ـــ باب جواز الـوطي بعد انقطاع الحيض ـ صفحه ١٥٦

(٢٦) المصدر نفسه

(٢٧) المصدر نفسه

(٢٨) ١ : ٣٦٠

(٢٩) ج٣ بـاب الاستنجاء صفحـه ١٨ الكـافي، وينقلـه الوسائل في محل الحديث الثاني

(٣٠) الوسائل ـــ كتاب الطهارة ـ بـاب استحباب اختيار الماء على الاحجار في الاستنجاء ـ صفحه ١٠٢

(٣١) ج١ ـ صفحه ١٧٣

* * *

نظام العقوبات:
دراسة مقارنة بين النظرية القرآنية والنظرية الغربية

د. زهير الأعرجي



في الوقت الذي لا يعمل فيه السجن عقوبة رادعة في النظرية القرآنية، فانه يعتبر محور العقوبات في النظام الغربي. بل ان النظريات الاجتماعية الغربية الحديثة جعلت (السجن) المصدر الرئيس والساحة الحقيقية لمعالجة الانحراف، ولابد ان يعترف دعاة النظام القضائي الرأسمالي اليوم بفشلهم بجعل السجون ساحه العقوبات الاساسية لمعالجة الانحراف وتقويم المنحرفين، لان ثلاثة ارباع المنحرفين الذين يطلق سراحهم من السجون الرأسمالية بعد اتمام مدد عقوباتهم يرتكبون جرائم جديدة، مساهمين بذلك في هدر الاموال التي صرفت عليهم لتأديبهم في تلك المؤسسات الردعية.

ولكن السجن في النظرية الاسلامية، ما هو الا عقوبة مساندة للعقوبات الاساسية الفورية كالقصاص والحدود والديات والارش على اختلاف انواعها وازمان دفعها. لان الجناية أو الجرم عمل يربك النظام الاجتماعي، فلابد للنظام الاسلامي من التحرك سريعاً لمعالجة ذلك الانحراف، بالقطع في السرقة ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما﴾[1] والقصاص في القتل والجروح ﴿ولكم في القصاص حياة يا اولي الألباب﴾[2]: والقتل أو الصلب أو القطع أو النفي في الإفساد في الارض: ﴿انما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله ويَسعَونَ في الارض فساداً ان يُقَتَّلوا او يُصَلَّبوا او تُقَطَّعَ ايديهم وارجلهم من خلاف او يُنفَوا من الارض﴾[3]، والرجم أو الجلد في الزنى ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مئة جلدة ولا تاخذكم بهما رافة في دين الله﴾[4]، والجلد في

القذف ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادةً ابداً ، واولئك هم الفاسقون﴾[٥].

ولا شك ان ثبوت العقاب يتناسب مع درجة تأثير الجريمة والانحراف على النظام الاجتماعي. فكل الجرائم الاجتماعية لها ضحايا، كجرائم العنف، والجرائم الخاصة بالممتلكات، والجرائم الاخلاقية. وحتى الجرائم التي تدعي النظرية الغربية بانها لا تنتج ضحايا، كجرائم المقامرة والبغاء والانحراف الخلقي باعتبارها جرائم تضر الصعيد الشخصي للفرد فحسب، تنزل النظرية القرآنية بمرتكبيها اقصى العقوبات. لان الاسلام لا ينظر إلى الفرد الا من زاوية المصلحة الاجتماعية والتكوينية. فالعقوبة الصارمة هدفها الردع والتاديب وليس الانتقام، كما يدعي اعداء النظرية الدينية. وفكرة (السجن) تعجز عن ردع الاخرين من الانحراف، وتفشل في تعويض الضحية أو من يتعلق بها مالياً، وتتراجع عن التاهيل الاجتماعي للمنحرف بقصد ارجاعه الى المجرى الاجتماعي العام.

ولما كانت فكرة السجون، هدفاً ووسيلةً، قد اثبتت فشلها في نظام العقوبات الغربي، والامريكي بالخصوص، فقد مال رأي القضاة واعضاء جهاز المحاكم في العقود الاخيرة الى استحسان فكرة تعليق العقوبة الصادرة بحق الجاني شرط ان يجد له عملاً يرتزق به، وأن لا يرتكب جريمة جديدة خلال فترة تعليق الحكم. وقد قوبلت هذه الفكرة بالتاييد من قبل السلطة القضائية الى درجة ان المنحرفين المعاقبين بتعليق الحكم اليوم، يشكلون خمسة اضعاف عدد المنحرفين المعاقبين بالسجن، وعقوبة التعليق فاشلة أيضاً، لان الجاني المدان بتعليق العقوبة، إذا ارتكب جريمة جديدة، عوقب مرة اخرى بالسجن، الذي لاحظنا فشله في تأديب المنحرف وتهذيبه.

وتنفرد الولايات المتحدة من بين الدول الرأسمالية بتطبيق عقوبة الموت ضد المنحرفين الذين دينوا عن طريق المحاكم الجنائية، بارتكاب جرائم قتل. وفكرة (عقوبة الموت) تتناقض مع فكرة الحرية الشخصية التي نادت بها النظرية الرأسمالية. لان الجناية مهما عظُمت، حسب زعمها، لا تستحق الغاء حياة الجاني من الوجود. وعلى ضوء ذلك فان (عقوبة الموت) عقوبة انتقامة وليست ردعية؛ ويدل على ذلك، ان تلك العقوبة النازلة بالمنحرفين لم تردعهم بالكف عن انحرافهم!

وهذا التناقض في فكرة الحرية

الشخصية والمذهب الفردي يقودنا الى السؤال التالي: وهو اذا كانت عقوبة الموت انتقامية، فلماذا يأخذ بها النظام القضائي الامريكي خلافاً لفكرة الحرية الشخصية والمذهب الفردي؟.

تجيب النظرية الرأسمالية الغربية، بان عقوبة الموت ضرورية، لان فكرة الحرية الشخصية يجب ان تُرسم لها الحدود وتوضع لها الضوابط، إذا تعلق الامر بالانحراف الاجتماعي فنردُ على ذلك، بان تحديد الحرية في جريمة معينة، يستلزم تحديدها في بقية الجرائم أيضاً، كالجرائم الاخلاقية مثلاً. هنا تتوقف النظرية الرأسمالية عن الرد.

والنتيجة، ان اقرار النظام القضائي الرأسمالي بشرعية (عقوبة الموت) يناقض ادعاءاته القائلة، بتخلف عقوبة القصاص في القرآن المتمثلة بقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب﴾ عن المنهج الحضاري الحديث. فاذا كانت (عقوبة الموت) لا تتماشى مع المنهج الحضاري، فلماذا ينفذها النظام بحق المنحرفين على ارضه؟ وإذا كانت (عقوبة الموت) افضل واقصر الطرق لبتر الجريمة الاحترافية، فلماذا لا يقرّ باسبقية القرآن في تشريعها والحث بكل قوة على تنفيذها؟

الاضطراب العقلي:

وفهمه مهم في ادراك ابعاد الانحراف، باعتباره عجزاً في قابلية الفرد على التمييز بين الحقيقة والخيال. فالمضطرب عقلياً ينتهك العرف الاجتماعي من خلال تصرفاته التي يختلط فيها الوهم بالحقيقة، والسراب بالواقع، والخوف بالامان، والافكار المجزأة التي لا يجمعها رابط بالافكار الطبيعية المتصل بعضها بالآخر. ولذلك فان اكثر الاضطرابات العقلية انتشاراً هي الاضطرابات الناشئة عن انفصام شخصية الفرد مع الحقيقة والواقع الخارجي. ويربط علماء الطب هذه الاضطرابات باختلال الهرمونات في الجسم الانساني وما يصاحبه من اضطرابات نفسية وتفاعلات عاطفية تنتهي بالانسان الى فهم الواقع فهماً مغايراً لفهم بقية الافراد.

ومنهم من يعتبر الاضطراب العقلي او الجنون وسيلة ناقصة لدى الفرد للتعامل مع العالم الخارجي فالمضطربون عقلياً يفشلون في التعامل مع اجواء المجتمع المحيطة بهم، فيلجأون في النهاية الى التعامل مع انفسهم وندبها على عدم فهم الواقع، فتراهم يتحدثون معها على مرأى من الملأ، ويضحكون ويتبسمون لطرائف لم يلتفت اليها الاخرون، وهم بذلك يحيدون عن العرف الاجتماعي فيوصمون بالجنون.

ولذلك فان وصم الطبقة الحاكمة على مر التاريخ للانبياء والرسل(ع) بالاضطراب العقلي كان من اهم الاساليب التي استخدمت لربط الجنون بالانحراف، وبالنتيجة ابعاد الافراد عن الايمان بالعقائد التي حملها الرسول والانبياء (ع) اليهم. وقد ورد ما يشير الى ذلك في الكتاب المجيد: ﴿وقالوا يا ايها الذي نزّل عليه الذكر انك لمجنون﴾[٦]، ﴿ويقولون ائنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾[٧]، ﴿ثم تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنون﴾[٨]، ﴿كذلك ما اتىٰ الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ او مجنونٌ﴾[٩].

ولكن الجنون الحقيقي ما هو الا وليد الحاجة الانسانية والتي لم يشبعها النظام الاجتماعي، فالفقر هو من اهم عوامل نشوء الاضطراب العقلي في المجتمعات التي تحكمها انظمة ظالمة. فالفقر ليس حاجه مادية فحسب، بل حاجه نفسية أيضاً، لانه يمس كرامة الانسان، ويحط من قدره، ويشعره بظلم النظام الاجتماعي. وهذه العوامل، مجتمعة، تساهم في رسم شكل الانحراف وتحدد مسيرته.

ولاشك ان من مصلحة النظام السياسي الظالم، وصم الفقراء بالاضطرابات العقلية، لان في ذلك عزلاً عن الساحة السياسية، وفي النهاية حرمانهم من الخيرات الاقتصادية التي ينبغي ان ينعم بها افراد المجتمع كلياً بغض النظر عن انتماءاتهم الطبقية، فالمضطرب عقلياً لا يستطيع المساهمه في قيادة المجتمع السياسية والاجتماعية، وهذا الإبعاد المقصود للفقراء عن الساحة السياسية، يعطي الطبقة الراسمالية الظالمة فرصة عظيمة في السيطرة على شؤون النظام الاجتماعي وتحطيم المعارضة السياسية الحقيقية.

الاسلام والتاثيرات الاجتماعية للانحراف:

ولا ريب ان تساؤل القضاء الغربي عن موجب الشدة والفورية في نظام العقوبات الاسلامي له منشأ نابع من احساسهم بفشل نظام العقوبات الذي يطبقه ذلك القضاء. فالزعم بان القصاص في القتل والجرح والقطع والجلد، عقوبات في غاية القسوة مقارنة بنظام السجون الذي اقره القضاء الغربي واعتبره عقوبةً عادلةً لجرائم القتل والسرقة والاعتداء والاغتصاب، زعمٌ فيه الكثير من المغالطات، لان فشل القضاء الرأسمالي الغربي في تصحيح الانحراف وإبعاد الجريمة عن النظام الاجتماعي، وضع الكثير من المفكرين والمعنيين الغربيين على حافة السقوط في احضان الفكرة القائلة بان اجتثاث جذور الجريمة من

المجتمع الانساني لا يتم الا عن طريق استخدام اقسى العقوبات الجسدية بالمنحرفين، ولكنهم عادوا وقالوا بان قسوة العقوبات في الاحكام الجنائية، تتنافى مع تطلعات العالم المتحضر في النظر للانسان باعتباره كائناً متميزاً يحق له العيش في الحياة الطبيعية، حتى لو كان مجرماً منحرفاً عن الخط الاجتماعي العام. وهذه النظرة الرحيمة تجاه الاجرام تعتبر ظلماً للضحية واجحافاً بحقها في الاقتصاص والمماثلة والتعويض.

ومع ان الإسلام ينظر الى الانحراف باعتباره اعوجاجاً يتوجب علاجه وتعديله، ويوجب على الحاكم الشرعي استرداد الحق وارجاعه الى اهله وذويه الا ان التشريع الاسلامي اراد بالقصاص والحدود ودفع الديات، تثبيت النظام الاجتماعي ونشر فكرة العدالة والامان في ربوع الوطن الاسلامي. لان تأثيرات الانحراف السلبيه على المجتمع وافراده، تسبب نخراً مستمراً، وتهديماً اساسياً لاصول النظام الاجتماعي. وحتى نفهم الصورة الحقيقية للانحراف الاجتماعي وتأثيره المستمر على المجتمع الانساني لابد من ادراج هذه السلبيات المتمثلة بالحقائق التالية:

الحقيقة الاولى: ان من سلبيات الانحراف ارباك النظام الاجتماعي فانتشار القتل والسرقة والغصب والاعتداء على اعراض الناس يجعل الحياة الاجتماعية الرغيدة امراً صعب المنال، ويحمّل الحياة اليومية الكثير من المفاجآت. فكما ان العامل المشاغب في مصنع آلي يستطيع ارباك الانتاج، والطبيب المجنون في مستشفى للاطفال يستطيع خلخلة النظام الطبي، والمعلم المستهتر بقيم العلم يستطيع ارباك اذهان الطلبة، كذلك يفعل الانحراف في المجتمع الانساني من خلال ارباكه لتوجه الافراد وتطلعهم نحو حياة مستقرة هادئه.

الحقيقة الثانية: ومن سلبياته ارباك النظام الاخلاقي، فان انتشار الانحراف وانعدام السيطرة الاجتماعية عليه بنظام او قانون، يفتح الباب امام الافراد بتجاوز الخط الذي يفصل بين الحق والباطل، خصوصاً إذا كان نظام العقوبات متساهلاً مع المنحرفين. فاذا كان الانحراف يمثل حصيلة شرعية اجتماعية صغيرة العدد اليوم مع قانون متساهل، فان الغد سيجلب منحرفين جدداً، الى ان يعمّ ذلك الانحراف جميع اطراف النظام الاجتماعي.

الحقيقة الثالثة: ان من سلبيات الانحراف استهلاك مصادر وطاقات بشرية نافعة لو لم تستخدم للسيطرة على الجريمة،

لاستخدمت في مجال آخر لمنفعة الافراد. خذ على سبيل المثال النظام الرأسمالي في الولايات المتحدة، فانه يصرف يومياً مبالغ مالية على اطعام ورعاية ثلاثة ملايين سجين ارتكبوا جرائم مختلفة لعزلهم عن الاختلاط بالمجتمع الكبير، ومع ان هؤلاء السجناء، قد اخرجوا عن ساحة العمل الانتاجية، الا ان الدولة مكلفة باعاشتهم ومراقبتهم وتقديم العلاج الطبي لهم، وهذا يكلفها كمية هائلة من الطاقات الانتاجية والبشرية.

الحقيقة الرابعة: من سلبيات الانحراف زوال الثقة بين الافراد. والتعامل التجاري والتعليمي والثقافي عموماً مبني على اساس الثقة. فالفرد يستأجر سيارة للانتقال من مكان الى آخر باعتقاد ان السائق سيوصله الى المكان المعني لقاء اجرة معينة، فاذا تبين ان السائق مجرم محترف هدفه سرقة المستأجر، انهدمت الثقة بين المستأجرين والمؤجرين. ومثال آخر ان الافراد يودعون اموالهم في المصارف فاذا تبين ان اصحاب المصارف لا يؤتمنون على اموال الناس انعدمت الثقة بين المودعين والمصارف التجارية. ويضع الناس كذلك ثقتهم بالنظام السياسي، فاذا تبين خيانة افراد النظام لحقوق الناس زالت الثقة بين الحاكم والمحكوم، وانعدام الثقة هذا يكلف النظام الاجتماعي والاقتصادي اموالاً طائلة، بل ان انعدام الثقة بين المتعاقدين من افراد المجتمع يؤدي في النهاية الى تخريب النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للمجتمع الانساني.

وحتى نفهم الصورة المشرقة للعلاج الاسلامي وتأثيره الايجابي في بناء النظام الاجتماعي الخالي من الانحراف، لابد من ادراج ايجابيات نظام العقوبات الاسلامي بالنقاط التالية:

اولاً: على صعيد استقرار النظام الاجتماعي فان فورية التعامل مع الانحراف يبعد الحياة الاجتماعية عن المفآجات المحزنة التي تجلبها جرائم الاعتداء والقتل والسرقة، فيستطيع الفرد ان يعيش ويحيا في مجتمع تظلله شمس الامان والحرية والسلام.

ثانياً: وعلى صعيد نظافة النظام الاجتماعي، فان الاسلام يحاول اجتثاث الامراض الاجتماعية من الجذور، فيرجم المنحرف خلقياً كالزاني المحصن، ويجلد الزاني الاعزب والقاذف والسكران. فيتأدب افراد المجتمع بآداب الاسلام، الى حد انه يأمرهم بان لا يخرجوا من افواههم كلمة نابية، أو يتهموا انساناً بريئاً، أو يجرحوا

شعور فرد ما. فيكون من نتائج تطبيق هذا النظام على المجتمع الشعور بالطمانينة والامان، وازدياد المحبة والتعاون بين الناس، وارتفاع الطاقة الانتاجية لافراد المجتمع كلياً.

ثالثاً: وعلى صعيد المصادر والطاقات البشرية فان الاسلام يستثمرها باكمل الوجوه. فلا يحتاج المجتمع الاسلامي الا عدداً ضئيلاً من افراد الشرطة، وعدداً اقل من السجون، لان العقوبة رادعة والنتيجة متوقعة. فلو سرق فرد وقطعت يده علناً امام الناس، ترى من يتجرأ على ارتكاب الانحراف نفسه مرة اخرى؟ هذا اذا ما علمنا ان من مسؤولية الدولة اشباع حاجات الناس الاساسية، وان لها الحق في التدخل بما يضمن ذلك. حتى ان المنحرف المعاقب باحكام الشريعة الاسلامية يعتبر اكثر انتاجاً من المنحرف المعاقب في السجون الغربية. فالسارق المحدود بحد السرقة يستطيع ان يعمل وينتج ويحيا حياته الطبيعية ويتوب الى الله ويرجع الى الحياه الاجتماعية فرداً طاهراً من ذنوب الانحراف، الذي كان لابد من معالجته. اما المنحرف المسجون في النظام الغربي الرأسمالي فهو مصدر من مصادر الاجرام والشقاء، لان السجن لا يؤدب المنحرف بل يزيده حقداً وغضباً على النظام الاجتماعي.

رابعاً: وعلى صعيد الثقة بين افراد المجتمع فان النظام الاسلامي بتشريعاته الصارمة جعل الثقة محور كل النشاطات الاجتماعية. فالثقة المتبادلة بين افراد العائلة والجيران والقرابة وابناء الحي وابناء المدينة وابناء الدين الواحد والدولة الواحدة، يرجع فضلها بالاصل الى نظام العقوبات. فاطمئنان الفرد في المجتمع الاسلامي يرجع بالاساس الى اطمئنانه على نفسه وماله وعرضه. فالمسلم يعلم ان العقوبة في النفس والمال والعرض صارمة الى حد انها تردع الاخرين عن مجرد التفكير بالقيام بالانحراف. وهذه الثقة المتبادلة بين الافراد تجعل المجتمع الاسلامي من اكثر المجتمعات البشرية انتاجاً واكثرها ثراءاً. وان الحرية التي يزعم النظام الرأسمالي منحها لافراده لا تنهض بمستوى الحرية التي يمنحها الاسلام لافراد الدولة الاسلامية. فاي حرية اعظم من اطمئنان الفرد على نفسه وماله وعرضه. ينتقل متى شاء، ويتحدث بما شاء ضمن حدود الادب الاسلامي، ويستثمر ماله انى شاء، وهو يعلم انه لا يخاف على مال يسرق او نفس تقتل او عرض يهتك، فاي حرية اعظم من هذه؟ ولا يشك عاقل ان الاسلام لو حكم البشرية جميعاً بكل الوانها واشكالها، لما

جاع فقير، وما هدر حـق، وما انتصر باطل، لانه ديـن الاعتدال والمساواة، ونظـام الحق والعدالة الاجتماعية.

الهوامش

(١) المائدة: ٣٨.

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) المائدة: ٣٢.

(٤) النور: ٢.

(٥) النور: ٤.

(٦) الحجر: ٦.

(٧) الصافات: ٣٦.

(٨) الدخان: ١٤.

(٩) الذاريات: ٥٢.

* * *

أَحْسَنُ القَصص

عبدالحسين الجرّاح



﴿نحن نَقُصُّ عَلَيْكَ احْسَنَ القَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]

القصة في أوسع دلالاتها، عملٌ فنيٌّ قائمٌ على بناءٍ هندسيّ خاص، يصطنعُ كاتبها واحداً أو جملةً من الأحداث والمواقف والأبطال والبيئات، عبر لغةٍ تعتمد (السَّرْدَ) أو (الحُوار) أو كليهما معاً، وتتضمّنُ هدفاً فكرياً محدّداً يُخضعُ الكاتبُ عناصره الى ما هو (ممكن) و(محتمل) من السلوك وذلك وفق عملية انتقاء خاصة للعناصر المذكورة.

من هنا تكمن أهمية القصة القرآنية التي تتعامل مع (الواقع) بدلاً من (المحتمل)، محققةً بذلك عنصر (الإقناع) عملياً، وليس مجرّد (إقناع) لما هو محتمل الوقوع.

إن وَصْل ما هو واقعيٌّ من الاحداث بالطرائق الفنية، يَظَلُّ سِمَةً إعجازية في القرآن الكريم وفي قَصَصه.

وسنحاول في هذه السلسلة من (احْسَنُ القصص) تباعاً أن نَتَقَصّى تنظيم القصة القرآنية في السور والآي حسب تسلسلها، فنطالع معاً السياق الفني والهدف المطلوب لكل قصة في القرآن الكريم، وهو الأمر الذي يُضيف الى النص القرآني بعداً آخر من أبعاد الأعجاز الفنّي.

١ ـ قصة آدم(ع):

تعتمد هذه القصة عنصر (الحوار) في عرضها لقضية المولد البشري... والحوار ـ كما هو المألوف في الادب القصصي ـ قد يشكل جزءاً من اللغة القصصية التي تعتمد كلّاً من السَّرد والحوار.

وما يُهمنا الآن، هو أن نقف عند هذه القصة، قصة آدم والتي بدأت بهذا الحوار بين الله سبحانه وتعالى والملائكة:

﴿وإذ قال ربّك للملائكة اني جاعلٌ في الارض خليفة﴾.

﴿قالوا اتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك﴾؟

﴿قال اني اعلم ما لا تعلمون﴾.

لقد كشف هذا الحوار عن التصور الملائكي للتجربة الأرضية الجديدة، مثلما كشف عن حجم المعرفة التي أوكلتها السماء اليهم.

فالملائكة يشكلون نموذجاً خاصاً من مخلوقات الله، كما ان طبيعة تركيبتهم قائمة على الامتثال لأوامر الله عزّوجلّ، وذلك لأنهم لا يقعون بين طرفي الدوافع الآدمية (العقل والشهوة)، بل يمتلكون دافعاً واحداً، هو (العقل) أو (الخير).

وطبيعيٌ ان يتساءل القارئ عن سبب هذا الموقف الملائكي حيال خليفة الأرض، معّ معرفته بتركيبتهم التي يتجاذبها دافع (العقل) أو (الخير) كما ذكرنا.

فالقصة ساكتة — فنياً — عن هذا الجانب. الاّ ان المعلوم هو أن تساؤل الملائكة إنّما كان على نحو الاستخبار وليس على وجه الاعتراض. بيد أن هناك رأياً يقول إنّ الملائكة ادركت خطأ موقفها، وتابوا الى الله[1].

والأهم من ذلك هو: أنَّ سكوت النصّ عن تحديد السبب، يَظَلُّ (من الوجهة الفنية) مرتبطاً بهدف القصة التي تشدّد على ابراز (عِلْمِ الله سبحانه)، وعلى أن (الملائكة) الذين اختيروا على وفق تركيبة خاصة، حتى هؤلاء لا يمكنهم أن يقفوا على الأسرار الإلهية وما تنطوي عليه من الحِكَمِ والمصالح.

مضافاً الى ذلك، فإن سرّاً فنيّاً آخر يكمن وراء تلك المحاورة وهو: إكساب الشخصية الآدمية قدراً أعظم من التقدير والتفضيل، وهو ما نلاحظهُ في القسم الثاني من القصة.

﴿وعَلّمَ آدمَ الاسماءَ كُلّها ثم عَرَضَهم على الملائكة﴾.

﴿فقال أنبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾.

﴿قالوا سبحانك لا عِلم لنا الاّ ما علمتنا انك انت العليم الحكيم﴾.

﴿قال يا آدمُ انبئهم باسمائهم﴾.

﴿فلما انباهم باسمائهم﴾.

﴿قال الم اقُلْ لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.

لقد كشف هذا الحوار بين الله تعالى والملائكة، عن أسرار فنية جديدة تتصل بصفات الملائكة والآدميين.

فها هم الملائكة الذين تساءلوا في

بداية الحوار عن سرِّ التجربة الارضية الجديدة، قد واجهوا تجربة جديدة لم تخطر ببالهم، وهي: أن آدم(ع) الذي تساءلوا عنه قد أفاضَ الله سبحانه عليه (علماً) لم يكن الملائكة على إحاطة به.

وهنا أقرّوا بعدم علمهم، وادركوا ان تساؤلهم، إنّما كان ناجماً عن القصور المعرفي عند الكائنات جميعاً، وأن الله سبحانه وتعالى جعل من الخلاقة الأرضية تجربة خاصة أكسبها للآدميين بنحوٍ فَضَّلَهم من خلالها على كثير ممّن خلق تفضيلاً[٢].

ومن هنا يمكننا ان ندرك دلالة ما أوضحهُ الإمام علي (ع) حينما قررَّ حقيقة التركيبة الدافعية لكل من الآدميين، على النحو الذي قاله(ع): «فَمَنْ غَلَبَ عقلُه شهوته كان خيراً من الملائكة».

يبدأ القسم الآخر من القصة على النحو التالي:

﴿وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾.

﴿فسجدوا إلاّ ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين﴾.

لقد تدرّجت القصة فنياً في صياغتنها لهذه الحقيقة، وهي: أهمية الكائن الآدمي. ففي القسم الأول من الحوار، أطلقت على هذا الكائن صفة (الخليفة). وفي القسم الثاني منه، أوضحت بعض الأسرار المتصلة به، وجعلته موضع ثقة وتقدير، وأودعته (علماً) لم يتوفر حتى عند الملائكة. وفي هذا القسم، جاء أمر الله تعالى بالسجود له من قبل الملائكة. وكان الحوار قد مَهَّدَ بعضاً من أسباب الأمر بالسجود لهذا المخلوق.

في هذا القسم، ننقل القصة من موقف الملائكة (المتحفّظ) سابقاً، الى شرح موقفٍ آخر، هو (التمرّد) الصريح من قبل إبليس.

وقد تفاوتت التفاسير في تحديد شخصية (ابليس) الذي أبْهَمها النّص، ولم يتعّرض لتحديد هوّيتها بالتفصيل. فهناك نصوص تقول أن (ابليس) هو من عنصر (الملائكة) انفسهم[٣]، وبعضها يذهب الى أنه من عنصر (الجنّ)[٤].

فامّا الراي الاول وهو كون (ابليس) من عنصر (الملائكة)، فان ابراز موقفهم من آدم وفق التدرُّج الذي ذكرناه، يظلُّ من الوضوح بمكانٍ كبير. وأمّا كون (إبليس) من (الجنّ)، فإن تميّزهم عن الآدميين، وتماثلهم مع الملائكة من حيث كونهما عنصراً غير مرئي، يظلُّ كذلك متوافقاً مع عملية التدرُّج الفني الذي أُشيرَ اليه.

المهم، ان (إبليس) وهو يدخل كشخصية جديدة في القصة، يُنهي دور (الملائكة). وجاء الآن دور (إبليس) المتمرّد.

يبدأ القسم الرابع من الحوار في قصة الميلاد البشري، على النحو التالي:

﴿وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنّة وكُلا منها رغداً حيث شِئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

﴿فازلّهما الشيطان عنها فاخرجهما ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوّ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ الى حين﴾.

﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه انه هو التوّاب الرحيم﴾.

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا ياتينّكم مني هدىً فمن تَبِعَ هُداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أُولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

تنتهي قصة الميلاد البشري بانْهاء هذا القسم من القصة.

ويُلاحَظُ في هذا القسم، ان هناك شخصية جديدة قد دخلت القصّة وهي: حّواء. وكذلك احداثاً جديدة اخرى، مثل: السكن في الجنة، والأكل من اثمارها واشجارها، والنهي عن الاكل من شجرة معينة، وازلال الشيطان لآدم وحّواء، واخراجهما من الجنة، وتوبة آدم (ع) ثم هبوطهما الى الأرض.

ونجد لزاماً علينا ههنا، ان نشير الى الأسرار الفنية وراء انتقاء وقائع خاصة دون سواها من هذه القصة.

فالقصة لم تتحدّث عن تفصيلات تتصل بطريقة إبليس في ازلال آدم، ولا بطريقة الخروج من الجنة وتفصيلاتها الأُخرى.

رسمت القصة، قضية (التوبة) مثلاً، وقبولها، قبيل هبوط آدم وحواء الى الارض، ثم رسمت تجربة الأرض من حيث كونها مُسْتَقرًا لهذا الكائن الجديد الى حين، وكذلك ترتيب آثار العقاب والثواب، طبقاً للتجربة السابقة.

ان وجود (خليفة) في الأرض، مزوّدٍ بطاقةٍ (علمية) تُنير له معالم الخلافة، هو عَصَب القصة الرئيس. كما ان وجود طرفٍ آخر يقف حجراً أمام الطريق، هو المسوّغ لدلالة التجربة الجديدة: ميلاد البشرية. فالتجربة تتطلّب طرفين من الصراع، من الممكن تجاوزها ما دام (العِلْمُ) الذي اودعته السماء في الشخصية الآدمية، كفيلاً بإنارة الطريق لها.

والمهم ان القصة، رسمت (الموازنة) الحقيقية بين تجربة (الخلافة) في الأرض،

وبين تجربتها قبل الهبوط الى الأرض. بين تجربة آدم (ع) وهو في الجنة: يتعرّض لصراع، وبين تجربة الآدميين وهم في الأرض: يتعرضون لصراع.

لقد انشطر شخوص القصة الى ملامح محددة مثل: آدم، حواء، ابليس. والى ملامح مبهمه مثل: الملائكة.

وانشطروا الى نمطين أيضاً، شخصيات رئيسة مثل آدم، وثانوية مثل: ابليس، حواء، الملائكة.

كما أن الابطال انشطروا الى نمطين: إنس وملائكة، أو إنس وملائكة مضافاً الى جنسهم المماثل: الجنّ.

ففي القسم الثاني تحرّكَ آدم، بوصفه شخصية رئيسية، وذلك من خلال تعلّمه الأسماء كلها.

وفي القسم الثالث، أُمِرَت الملائكة وابليس بالسجود له.

وفي القسم الرابع تَمَّ سكناه في الجنة، وهبوطه الى الأرض.

وهذا بخلاف الأبطال الآخرين: الملائكة، ابليس، حواء: فيما رُسموا (ثانويين) يمارسون وظائفهم في نطاق محدّد، ثم يُخلَون من مسرح الأحداث، بعد ان يكونوا قد ألقوا إنارةً على الموقف.

فحوّاء مثلاً، تجسّدت شخصيتها عنصراً للتزاوج الذي لا مناص منه في استمرارية النسل البشري. ولذلك لم تدخل بيئة القصة الاّ في القسم الأخير منها بما واكبه من السكنى والهبوط من الجنة.

وامّا شخصية ابليس، فقد دخلت القصة في نطاق التمرّد والتضليل اللذين يُمثّلان مرحلة تالية على جعل آدم خليفةً، والأمر بالسجود له.

وأخيراً، فان نمو هذه الشخصيات، وعدم رسمها (مسطّحة)، فرضة التجربة الجديدة، ممّا يفسّر لنا جانباً من الأسرار الفنية وراء الرسم المذكور.

الهوامش

(١) ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا الاّ ما علّمتنا انّك انت العليم الحكيم﴾[البقرة: ٣٢].

﴿... انبئوني باسماءِ هؤلاء ان كنتم صادقين﴾[البقرة:٣١].

(٢) ﴿وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾[الاسراء: ٧٠].

(٣) استشهاداً بالآيات التالية:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس﴾[البقرة:٣٤].

﴿... قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس﴾[الاعراف: ١١].

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس﴾[الاسراء: ٦١].

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس﴾[الكهف: ٥٠].

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس﴾[طه: ١١٦].

(٤) استشهاداً بالآية القرآنية التالية:

﴿فسجدوا الاّ ابليس كان من الجنّ...﴾[الكهف: ٥٠].

* * *

القرآن كتاب الله الخالد

د. مصطفى الرافعي



إن نظرة عميقة الى جميع القوانين التي شرعها المشرعون لمصالح الناس توحي بأمرين لا ثالث لهما:

الأول: انها تُقبل على بعض الناس بوجه بشوش يفيض بالحب، وينسبط بالسرور، ويضفي عليهم رداء الحماية والقوة.

والثاني: انها تُقدم على بعضهم الآخر بوجه غضوب متجهم لا يحمل إلا معاني الشر واليأس لهم.

أما الأولون فهم الذين استجابوا وطبقوا هذه القوانين وعملوا بها ولم يتعدوا حدودها.

وأما الآخرون فهم الذين تنكبوا الطريق واتبعوا أهواءهم ولم يستجيبوا لما فيه صلاحهم.

ولو أننا تصورنا قانوناً لا تحمل مواده إلا العنف والشدة والبطش، وقانوناً آخر انما تحمل مواده الإحسان والعطف واللين والرأفة فقط، لكان كلاهما قانوناً كسيحاً أعرج قد يطمع القوي في باطله وييأس الضعيف من عدله.

ومن هنا جاء القرآن وهو كتاب الله الباقي على الزمن والقانون الصالح للإنسانية في كل عصرٍ ومصر، جاء وبالاً على المجرمين الغالين بقدر ما كان خيراً ورحمة بالمؤمنين المهتدين.

ويتضح ذلك من قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا نزيد الظالمين إلا خساراً﴾[1].

ومن اعجاز هذا الكتاب الخالد انه يحمل الروح والإيمان لأهل الطاعة والإحسان، ويرفع سياط العذاب يلهب بها ظهور أهل الجحود والكفران.

وقد يبدو ذلك جلياً في الآية الكريمة:

﴿والذين يؤمنون بما أُنزِلَ اليك وما أُنزِل من قبلِك وبالآخرةِ هم يوقنون * اولئك على هدىً من ربِّهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تُنذِرْهم لا يؤمنون * ختم اللهُ على قلوبِهم وعلى سمعِهم، وعلى ابصارِهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيم﴾[٢].

ثم لنستمع الى القرآن الكريم وهو يأمر نبي الإسلام(ص) الاّ يقيم وزناً للمعرضين ولا يعيرهم التفاتاً، ذلك لانهم أهل للحقارة ﴿فاعرِضْ عمَّنْ تولّى عن ذكرِنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا ذلك مبلغُهم من العلم﴾[٣].

القرآن سيّد القوانين كلها:

لقد تفضل الله علينا فاظهر لنا عظمة كتابه، وجلا علينا بلسان الوحي مدى ما يجتمع له من أسباب الفضل والكمال، فأودع دفتي المصحف الشريف عشرات الآيات التي تكشف هذا المعدن النفيس وهذا الكنز الثمين، مبيناً ــ تبارك وتعالىٰ ـ الغاية التي انزل بها على قلب محمد(ص) ليكون من المنذرين بلسانٍ عربيٍ مبين، ومظهراً للأثر الذي يتركه القرآن في نفس القارئ والسامع على السواء، والحكم المترتب على الأخذ به أو الإعراض عنه، سواء من حيث التلاوة والتعبد، أو من حيث اتباع هدايته وسلوك طريقته والتخلق بأخلاقه، وتوجيه النهضات على اساس مُثُلِهِ العليا ومبادئه الخالدة، وبيان كيان الدول والشعوب في ظل دستوره وعلى وفق تعاليمه، لانه ﴿لاياتيه الباطل مِنْ بين يديهِ ولا مِنْ خلفِهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميد﴾[٤].

فالقرآن ـ إذن ـ القول الفصل، والجدّ ليس بالهزل، لا يلتبس بغيره ولا يشتبه معه سواه، ولا يرقى الشك الى صدقه ونزاهته مهما حرّف الجاهلون وزيّف الملحدون.

والقرآن مع ذلك كماء السماء الطاهر تنتفع به الأرض الطيبة، والتربة الصالحة. فلا غرو ان كان القرآن أبعد أثراً في النفوس الزكية والعناصر الطيبة: ﴿هدىً للمتقين الذين يُؤمنون بالغيبِ ويُقيمون الصلاةَ ومما رزقناهم يُنفقون﴾[٥].

وإن الذين استناروا بالقرآن، فاكتملت فيهم هذه الصفات، وانشرحت صدورهم للهدى والرشاد، هم أولو الحظ الأوفى من السعادة، والنصيب الأعلى من الفلاح: ﴿أولئك على هدىً من ربهم واولئك هم المفلحون﴾[٦].

والقرآن قبل ذلك وبعد ذلك صراط الله المستقيم، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما

بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، فهو مثابةٌ وندوة للعلماء، ومعجم لغة للُغويين، ونحوٍ لمن اراد تقويم لسانه، ودائرة معارف عامة للشرائع والقوانين، وان القارئ ليسجد لعجائبه التي تتجدّد وأسراره التي لا تنضب. من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن دعا إليه هدِيَ الى صراط مستقيم.

وانما يضل بعض الناس عن صراط العزيز الحميد لأنهم يواجهون القرآن بالإعراض والصدود، وإلا فإن القرآن نور لا ظلمة فيه، وبرهان لا ريب فيه: ﴿ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه هدىً للمتقين﴾[7].

فالذي ينحرف عن النور يقع في الظلمة، والذي ينحرف عن الصراط المستقيم يقع في الضلالة: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يهدي به اللهُ من اتبع رضوانَهُ سُبُلَ السلامِ ويُخرِجُهم من الظلماتِ الى النورِ بإذنِهِ ويهديهم الى صراطٍ مستقيم﴾[8].

افتراء على القرآن:

هذا، وقد بلغت الجراة ببعض المكابرين ان يزعم ان محمداً(ص) قد أتيحت له معرفة أخبار الأمم السابقة، عن طريقٍ ما، كطريق القصاصين والرواة وقد تجاوز هذا المكابر الشطط حيث توهم ان سرد أخبار العصور الخوالي في القرآن، هذه الدقة البالغة والإحكام الرائع يجوز ان يكون من عمل أميّ يسمع حكمة من هذا وأخرى من ذاك!

فهل يبقى ريب في نفي صدور القرآن عن نبي القرآن إذا ثبت ان في القرآن إنباء عن احداث لم تقع، وأخباراً تخفيها صفحات المستقبل المجهول؟

وهل يستطيع أوسع الناس علماً ان يخبرنا عما يكون في غد، أو يحدثنا حادثاً عما يقع بعد ايام؟ ولقد شهد بالعجز عن علم الغيب حكيم العرب وشاعرها الفحل زهير بن أبي سلمى فقال:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غد عمي

لونٌ من الحماقة:

قال الله تعالى: ﴿إن هو إلا وَحيٌ يُوحىٰ * علّمه شديدُ القوى﴾[9] استمرا بعض الحمقى من الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ان يسيروا في ركاب المستشرقين الذين في قلوبهم مرض، فسولت لهم

أنفسهم ان ينسبوا تاريخها بالوحي الإلهي، وانكروا على المسلمين ان يتفردوا بكتاب لم تعبث به الأهواء، ولم ينل من قدسيته تقلّب الزمن: ﴿إنـا نحن نزّلنـا الذّكـرَ وإنا لـه لحافظون﴾[١٠]. وعلى وجوه هؤلاء وهؤلاء تقع صاعقة الوحي القوية: ﴿الله لا إله إلاّ هو الحيُّ القيوم * نـزّل عليك الكتاب بالحق﴾[١١].

وتمضي آيات الكتاب الحكيم في تأكيد انه وحي الله المبين فتقول: ﴿انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوحٍ والنبيين من بعدِهِ وأوحينا الى ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسىٰ وايوبَ ويونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينا داوَد زبوراً * رسلاً قد قصصْناهم عليك من قبلُ ورسلاً لم نقصُصْهم عليك وكلّم اللهُ موسى تكليماً﴾[١٢].

أفبعدَ هذا يزعم مرضى القلوب ان القرآن من صنع بشر؟

﴿افلا يتدبّرون القرآنَ ولو كان من عندِ غيرِ اللهِ لو جدوا فيهِ اختلافاً كثيراً﴾[١٣].

ولو كان القرآن من صنع بشر لأمكن ان يوجد في البشر من يضاهيه فصاحة، أو يدانيه بلاغة، فيأتي بمثل ما جاء به لا سيما بعد ان تحدى القرآن جميع العرب ـ في وقت نزوله، والتحدي ما زال قائماً، وسيظل قائماً الى يوم القيامة ـ ان يقلّدوه في روعته وفصاحته، فكان شأنهم ـ كما سيبقى ـ العجز والقصور. وقد شهد بهذا القرآن حين قال: ﴿وإن كنتم في ريبٍ مما نزلنا على عبدِنا فاتوا بسورةٍ من مثلِهِ وادعوا شهداءَكم من دونِ اللهِ إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ اعِدّت للكافرين﴾[١٤].

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:

ويطيب لي ان أختم هذه العجالة بالقول: انه من الحقائق المقررة التي يعرفها كل مسلم بداهة ويدين بها، ان القرآن الكريم هو كلام الله عزّوجلّ بلفظه ومعناه، وانه نزل به الروح الأمين ـ جبريل (ع) ـ على محمد رسول الله (ص) ليبلغه للناس ويبينه لهم، وانه نقل الينا عن رسول الله(ص) نقلاً متواتراً في جميع الأزمنة، منذ انزل حتى اليوم.

أما الحديث القدسي فهو ما كان لفظه لرسول الله(ص) ومعناه من عند الله تعالى، وقد ألهمه نبيه(ص) أو أوحى به إليه في

المنام، لكنه لم يخرج عن كونه حديثاً. فهو لم يرقَ الى مرتبة القرآن لان لفظه للرسول(ص) وليس لله تعالى، كالقرآن الكريم.

وعلى الجملة، فإن الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي على ستة اوجه:

الوجه الأول: ان القرآن معجز، والحديث القدسي لا يلزم ان يكون معجزاً.

والثاني: ان الصلاة لا تكون إلا بالقرآن، بخلاف الحديث القدسي.

والثالث: ان جاحد القرآن يكفر، بخلاف جاحد الحديث القدسي، (ما لم يكن متواتراً).

والرابع: ان القرآن لابد فيه من كون جبريل(ع) واسطة بين النبي (ص) وبين الله تعالى، بخلاف الحديث القدسي.

والخامس: ان القرآن يجب ان يكون لفظاً من الله تعالى، وفي الحديث القدسي لفظه من النبي(ص).

والسادس: ان القرآن لا يمسّه إلا المُطَهَّرون، والحديث القدسي يجوز مسّه من المُحدِث.

هذا، وقد أوصل بعض الباحثين الإسلاميين هذه الفروق الى عشرة، فزادوا على تلك الوجوه الستة: حرمة رواية القرآن بالمعنى، والتعبُّد بتلاوته، وتسميته قرآناً، وتسمية الجملة منه (آية)، ومقدار من الآيات مخصوص (سورة).

تواتر آيات القرآن:

وأخيراً، فإن آيات القرآن الكريم متواترة - في اعتقاد المذاهب الإسلامية جميعها - ولا يعتبر أي مذهب منها العبارات غير المتواترة قرآناً.

وقد جاء تواتر القرآن الكريم جيلاً بعد جيل حيث حفظه رسول الله(ص)، وقرأه على جبريل(ع) قبل ان يلتحق بالرفيق الاعلى.

وهذا التواتر للقرآن الكريم جعل آياته قطعية السند ولو أن بعضها قد تكون ظنية الدلالة، بمعنى ان الاحتمال قد يرِد على دلالة القرآن ولكن لا يمكن ان يرد على سنده لأنه محفوظ من قبل الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[15].

الهوامش

(١) الاسراء: ٨٢.
(٢) البقرة: ٤ ـ ٧.
(٣) النجم: ٢٩.
(٤) فصلت: ٤٢.

(٥) البقرة: ٤٢.

(٦) البقرة: ٥.

(٧) البقرة: ٢.

(٨) المائدة: ١٥ـ١٦.

(٩) النجم: ٤ـ٥.

(١٠) الحجر: ٩.

(١١) آل عمران: ٢ـ٣.

(١٢) النساء: ١٦٣ـ١٦٤.

(١٣) النساء: ٨٢.

(١٤) البقرة: ٢٣ـ٢٤.

(١٥) الحجر: ٩.

* * *

مع أهل البيت في القرآن

في رحاب آية المباهلة

الشيخ عفيف النابلسي



لاغرو إن نطق الذكر الحميد بفضل أهل البيت فقد كانوا صراطه المستقيم ونهجه القويم، يقرأونه حق قراءته، ويفسرونه بابلغ دلالته، يبينون مجمله، ويذكرون مفصله، يتحلّونَ بملابسه السندسية وآياته العسجدية وكانوا يحملون كل ذلك بتطبيق احكامه وبيان ارقامه. ولما كان هذا دأبهم معه ليلهم ونهارهم، أشرق في وجوههم انواره، وطلع من ارواحهم نهاره، فكانوا صلوات الله وسلامه عليهم شمسه المضيئه وعطره الفواح، ان خصهم بآية، او المح النبي اليهم برواية، فهم القرآن الناطق، وذاك القرآن الصامت، ولقد امر النبي(ص) أمته بالتمسك بهم، والرجوع إليهم، حيث قرنهم بالقرآن، وجعلهم عصمة من الضلال، وملجاً للأمان.

ومهما حاول اعداؤهم أن يصدوا عن ذكرهم، ويصغروا من أمرهم، فذكرهم عابق في الاجواء، من تخوم الأرض إلى عنان السماء، وأمرهم واضح مبين، وعدوهم خاسئٌ ومهين.

وسيبقى أهل هذا البيت ملاذٌ للأمة وحصوننا للمله، ماطلع الجديدان، وأشرق القمران، و ماغرد وطير او تفتح زهر. وهناك الكثير من الآيات المبثوثة في كتاب اللّه تنطق بحقهم، لاتمحوها عاديات الازمنة ولاعاتيات الدهور يبرق وهجها، و يسطع أوجها، ويزهو جديدها، في حالة التألق وغاية التذوق.

فالجمال والفن والابداع والوهج والاشعاع نبع من بيتهم، و فاض من نبعهم، ونمامن خيرهم، وتألق من نورهم. هنا وقفة مع واحدة من تلكم الآيات الكريمة.

﴿إنَّ مثَلَ عيسى عنَد اللّهِ كمثِلِ آدمَ

﴿خَلَقَهُ مِن تُرابٍ ثُمَّ قالَ له كُن فيكون * الحقُّ من ربِّك فلاتكُن من الممترين * فمن حاجَّكَ فيه من بعد ما جاءَكَ من العلم فقل تعالَوا ندعُ ابناءَنا وابناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وانفسَنا وانفسَكم ثم نبتهل فنجعل لعنةَ اللّهِ على الكاذبين﴾.[1]

لابد لنا قبل ذكر انطباقها على أهل البيت(ع) من أن نذكر سبب نزولها.

في السنة العاشرة للهجرة، وبعد سيطرة الرسول على اكثر ارجاء الجزيرة بعث سراياه ورسله إلى القبائل يدعوهم إلى الاسلام وبعث إلى نجران رسالة، واليك ماورود فيها:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم

بسم إله ابراهيم واسحاق ويعقوب. أما بعد فإني ادعوكم إلى عبادة اللّه من عبادة العباد، وادعوكم إلى ولاية اللّه تعالى من ولاية العباد فإن ابيتم فالجزيه، فإن ابيتم فقد اذنتكم بحرب و السلام.»

وصل الكتاب إلى يد اسقف نجران أبي حارثه بن علقمة أخي بني بكر بن وائل فلما قراه قال لواحد بجانبه: «ادع اليّ الساعة شرحبيل» وكان هذا خازن اسراره وموضع مشورته، فلما جاءه قال له «دعوتك الساعة يا شرحبيل لأمر راعني وافزعني، فقد جاءني اليوم كتاب من محمد بن عبداللّه يدعوني لدين يسميه الاسلام ويخيّرني بين الجزية والحرب. ولا أكتمك أني دُهِشتُ مما يَعِدُ و ذُعِرتُ مما يتوعد، فاقتدح زناد فكرك وأشِر عليّ بما عندك فقد ضقت ذرعاً.»

قال شرجبيل: «لست يا سيدنا بصاحب رأي في هذا ولو كان لامر من أمور الدنيا لرجوتُ أن يكون لي فيه نصيب أو راي حازم اقوله. على أنني علمت ما وعد اللّه به من النبوة في ذرية اسماعيل فما ادري أن يكون هو ذاك». ولم يقنع أبو حارثه بما سمعه من مستشاره فدعا إليه بعض أهل الراي غيره، فما زاد أحد على ما قال شرجبيل وهذا ما جعل الاسقف يحار في أمره ولايدري ماذا يفعل. لقد خلا إلى نفسه وراح يقلب الامور من شتى الوجوه فما اهتدى إلى مايرضي ذاته. ذلك انه إن اذعن لدعوة محمد ودخل في الاسلام فمعناه التخلي عن مناصبه، واثارة ملك الروم عليه، وقطعهم الاموال الطائلة التي يمدونه بها، فلا يبقى له خدم ولاحشم، ولاتبقى له المكانة التي يعلو بها. وإن هو رفض الاستجابه لدعوة محمد(ص) فإن رفضه يعني ايذاناً اما بدفع الجزيه أو الحرب.

كل الامور وجميع الخيارات وجدها صعبةً عليه فقام يأمر بالنواقيس أن تدق وبالمسوح أن تعلق بالصوامع ايذانا بدعوة

القوم إليه كما كانـوا يفعلون في ذلك العهد. وجـاء القوم و عقـد الاجتماع فقـام الاسقف بخبـرهم بكتـاب محمـد(ص) ويـدعـوهـم للتشاور فـي أمره. وبعـد جدال ونقـاش قرّ الرأي على أن يـذهب وفد منهم إلى المـدينة يقابلون النبـي(ص) فيحاجُونه ويجـادلونه ثم يرون بعده مايكون.

وتألف وفد نجران مـن مجموعة كبيرة من الراكبيـن، وفي طليعتهم أميرهم العـاقب واسمـه عبدالمسيح، والسيـد وهـو ممثلهم وصـاحب رحلهم ومجتمعهـم، وأبـوحارثـة الاسقف نفسه، وأخوه كرز بن علقمة. وخرج نحو المـدينه وبينمـا هم في الطريـق عثرت بغلة الأسقـف وهي بجانـب بغلة أخيـه كرز فصاح هـذا «تعس الأبعد» وهو يعنـي بذلك النبي(ص) فنفر الأسقف أبوحارثه من قوله و قال له «تعست أنت يـا كرز انه والله النبي الأمي الذي كنا ننتظره.»!

قال كرز: فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟

قال له ماصنع هولاء القوم «ويعني بهم الروم» شرفونا ومولونا واكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ماترى.

وظل الحديث يدور طوال الطريق حتى وصل الوفد قرب المدينة المنورة، فنزلوا على ماء يستقـون و يغتسلون ويأخـذون قسطاً من الـراحه ثم يقـومون إلـى رحالهم، وقـد لبسـوا أفخر الثيـاب، وارتدوا أبهـى الحلل، ووضعـوا عليهم الحُلِيّ وقـلائد من احجـار كريمة، وخواتـم من ذهب وفضة، وتمنطقوا بالسيوف وحملوا الـرماح، ثم اصطفوا صفاً واحداً، وركبوا إلى المدينه يدخلونها بانتظام دقيق وفي مظهـر يدل على الهيبة والـوقار، حتى أن النـاس وقفت تـرقب هـذا المـوكب باعجاب بالغ.

وانزل القـوم بالحره في منـازل أعدت للوفود. وبعد أن تناولوا طعامهم خرجوا إلى المسجـد يـريـدون الاجتمـاع بـالنبي محمـد(ص)، فـرفض مقـابلتهم والجلـوس معهم فعادوا إلى منازلهم بالحرّه، وعادوا في اليـوم التـالي ودخلـوا المسجـد ينتظـرون خروج النبي(ص) اليهم، فلم يفعل. حتى اذا حان وقت صلاتهم قـاموا يصلون ووجوهم نحـو الشـرق، فرآهـم الناس واستغـربـوا وذهب بعضـهم يخبـر النبي(ص)، فـاذا هو ينهـاهـم عن التعـرض للقـوم، لأن لهـم أن يصلـوا كيف يشـاؤون، وبـالطـريقـة التى يريدونها وعلى الـوجهة التي يرون، إذ لأهل كل كتـاب طقـوس وشعـائر ولكنها جميعـاً تصب في غـاية واحدة، ألا وهي عبـادة الله مالك الملك، فلا ضير إن صلّوا في أي اتجاه طـالما انهـم يتوجهـون الي اللّـه سبحانـه ﴿ولله المشـرق والمغرب فـاينما تـولوا

﴿فثَمَّ وجه اللّه إن اللّه واسع عليم﴾.

ورأى الناس ان النبي(ص) يرفض مقابلة وفد نجران، فأخذهم العجب وهم يعلمون أنه كان يُسَرُّ اشدَّ السرور لدى قدوم كل وفد ويُعجّل على لقائه فما الأمر اذن حتى يعرض النبي(ص) عن هولاء القوم؟ وكان عجب وفد نجران أشدَّ من عجب الناس لموقف لم يكونوا ينتظرونه من صاحب رساله ومفترض ان يعلّمَ الناس أصول المقابلات وحقوق الضيافة ومراعاة الكرامة.

فلما طال انتظارهم لم يروا بداً من الذهاب إلى اصدقاء لهم في المدينة، مثل عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وقد عرفوهما جيداً من طريق المتاجرة والخروج بالعِير. وبالفعل اجتمع اهل نجران اليهما وعرضوا عليهما ماجرى ثم سألوا إن كانوا يبقون في المدينة أم يعودوان أدراجهم الى بلدهم.

ولم يستطع عثمان أو عبدالرحمن أن يتبينا حقيقة الأمر، فاشارا على الوفد انتظارهما كي يذهبا للبحث عن علي بن أبي طالب(ع) ومشاورته، فأتياه واخبراه بما جرى، وطلبا نصحه بقولهما «ما رأيك يا أبا الحسن في أمر هؤلاء القوم؟» وتفكر أبوالحسن(ع) قليلا ثم أشار على صاحبيه أن يخلع أهل نجران الثياب الحريرية الخالصة. وأن ينزعوا القلائد والخواتيم الذهبية ويأتوا نبيّ اللّه في مظهر أقرب مايكون إلى التواضع والاحترام، بعيداً عن اي اختيال ومفاخرة، فقد لايتأخر النبي(ص) عندها عن مقابلتهم والاجتماع بهم، اذا شاء اللّه.

وصح تقدير أبي الحسن(ع) إذ ما ان فعل القوم بما أشار، وجاءوا النبي على حالتهم الجديده، حتى خرج يلقاهم ويبش في وجوههم مثل عادته عند لقاء الناس.

هكذا يبدو رسول اللّه(ص) دوماً وفياً لذاته كوفائه لربه تعالى لايبهره بهرج الدنيا ولايغره خيلاؤها، بل على العكس يحارب التكبر والتفاخر وكل ما من شأنه أن يبعد الانسان عن اصالته، ولذلك لما رأى اولئك القوم يفدون اليه بمظاهر الاعتزاز انف أن يلقاهم، لانهم لم يَفِدُوا على ملك في أبهة حتى يلبسوا ما لبسوا و يتزينوا، بما تزينوا بل جاءوا لمقابلة نبي يعيش عيش الفقراء من الناس، والاتقياء من عباد الرحمن وأن كرامته ليست في ثوب أو مال، بل في رسالة جامعة، وفي خلق عظيم، وهذا كله، بالاضافة الى التربية النفسانية التي أرادها رسول اللّه من موقفه ذاك، اذ أراد أن يجعل أهل نجران أخفّ في غلواء خيلائهم وأقلّ في

شدة تفاخرهم، لا لأنــه يريد الاعتراض على الآخريـن في سلوكهـم وحسب، بل ليكـونوا الى الحق الـذي سيدعوهم إليـه أقرب، وإلى الهداية والتعويل على الاصالة الانسانية أوصل...

وعقـد الاجتمـاع بين النبـيّ(ص) وبين نصـارى نجـران الذيـن جـاءوا يحاجُـونـه ويفـاخـرونـه. واجتمـع حشـد كبيـر مـن المسلمين يشهـد هذه المناظـره التي تجمع بين أهل الـرسالتين السماويتين النصـرانية والاسلام، وكل واحد مـن أهل الفكر يتساءل في نفسـه: «أو ليس الخلق كلهم عيـال الله، وان افضلهم عندالله اتقـاهم؟ أو ليس الدين عندالله الاسلام وقـد بعث النبي محمد(ص) مصدقاً لما بين يـديه من التوراة و الانجيل؟ فَلِمَ اذن المناظـرة؟ مادام هذا النبـي الكريم لاينقض النـامـوس الأكبر الـذي يقـوم على الحق المطلـق، وهـو أن الله سبحـانـه هـو الواحد الأحد لاشريـك له، الفرد الصمد الذي لم يلد و لـو يولد ولـم يكن له كفواً احـد. لقد كان الاجتمـاع بين أهل الفكر من النصـرانية والاسلام، فحق أن يكون مؤتمر التاريخ لما قـد يصـدر عنـه من نتـائج، أو مـن عهـود ومواثيق. وشتانَ بين مؤتمر لبحث قوانين أو وضع اتفاقات ومعاهدات من صنع الانسان، وبين مـؤتمر ينعقد للبحـث في قوانيـن الله وفي عهوده إلى خلائقه.

ودار الحـوار الــذي شهـده التـاريـخ وسجل صفحاتٍ خـالدةً في الـرقي الفكري والتسامح الانسـاني والجدية في التعـاهد، وقد بـدأ ذلك الحوار عندما سـأل السيد من وفد نجران الرسول(ص) الكريم قائلاً.

يا أباالقاسم موسى من أبوه؟

فأجابه عمران.

وسأل يوسف من أبوه؟

فأجيب يعقوب.

فسأل وأنت من أبوك؟

قال(ص) عبدالله بن عبدالمطلب.

فسأل: فعيسى من أبوه؟

قال(ص) هو روح الله وكلمته.

وربما داخل الظنّ السيدَ بأنه قد وصل إلى مايرمي إليه مـن أسئلته تلك فقال يبدي عجبا.

فهل يكون روح بلا جسد؟

وأجاب النبـي(ص) بقوله تعـالى ﴿**إنّ مثل عيسى عنـد الله كمثل آدم خلقـه من تراب ثـم قال له كـن فيكون**﴾ وعظم على السيد الأمـر وهو يسمع أن عيسى قـد خلق من تـراب وغضـب له فقـال أتـزعم ان اللّـه اوصى اليك أن عيسى خلق من تراب؟ مانجد هـذا في التوراة ولا فـي الانجيل. ما وجـده اليهـود فيما أُوحِيَ إلـى رسلهم، وما وجـده النصارى فيمـا أوحِيَ إلى نبيهـم! وهنا راح

النبي(ص) يتلو على المسامع أيات بينات من سورة مريم في القرآن الكريم، تدل على حقيقة خلق المسيح بن مريم بقوله تعالى:

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا * فاتخذت من دونهم حجاباً فارسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا * قالت إني أعوذُ بالرحمن منكَ إن كنتَ تقيا * قال إنما أنا رسولُ رَبكِ لأهبَ لكِ غلاماً زكيا * قالت أنّى يكونُ لي غلام ولم يمسَسني بشر و لم أكُ بَغِيا * قال كذلكِ قال ربكِ هو عليَّ هيّن ولنجعلَه أيةً للناس ورحمةً منا وكان امراً مقضياً.﴾

وعلا الوجوهَ الصمتُ لهذه التلاوة إلا أن رئيس الوفد العاقب قطعه بعد قليل وهو يقول:

انا لننكر – واللّه – ماتقول يا أبا القاسم، ولا نقول في المسيح إلا انه ابن اللّه، وأنه ثالث ثلاثة، اب وابن وروح القدس. وقد سمعنا في قرآن نزل عليك يقول فعلنا وجعلنا وخلقنا بصيغة الجمع ولوكان واحدً لكان يقول فعلت و جعلت وخلقت بصيغة المفرد.

وهنا أوضح الرسول الاعظم بتلاوة من القرآن الكريم كم هي الآيات التي تتكلم بصيغة المفرد وتدل على وحدانية اللّه إلى جانب الآيات الاخرى التي تتكلم بصيغة الجمع وتدل على وحدانية اللّه.

منها قوله تعالى:

﴿الحمد للّه رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين﴾ ﴿قل هو اللّه أحد * اللّه الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ ﴿اللّه لا إله إلا هو الحي القيوم * لاتاخذه سنة ولا نوم * له ما في السموات وما في الأرض ...﴾.

﴿الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم...﴾ ﴿واذ قال ربك للملائكة: اني جاعل في الأرض خليفة. قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك و نقدس لك. قال إني اعلم مالاتعلمون﴾... إلى ما هنا لك من الآيات البينات التي يفيض بها القرآن الكريم بصيغة المفرد مما لايمكن سرده كله لبيان اقوال اللّه تعالى الدالة على تفرده ووحدانيته.

قال العاقب: انا نجد في الانجيل من صفة النبي المبعوث بعد المسيح أنه يصدق به ويؤمن به وأنت تزعم أنه عبد أفلا يكون ذلك عدم الايمان به والتصديق به.

وتلا نبي اللّه(ص) من قوله تعالى: ﴿فاشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان

في المهد صبيا * قال إنـي عبدالله آتاني الكتاب وجعلنـي نبيا * وجعلني مبـاركاً اينما كنـت واوصاني بـالصلاة والـزكاة مادُمتُ حيا * وبرّاً بـوالدتي ولم يجعلني جبـاراً شقياً * والسـلام عليّ يوم ولـدت ويـوم اللهوت ويـوم أُبعَثُ حيا...﴾ ﴿مـا المسيح ابن مـريم الا رسول، قـدخلت من قبله الـرسل وأمه صديقـة، كانا يـاكلان الطعـام انظر اكيف نبيـن لهم الآيـات ثم انظـر كيف يـؤفكـون * ... واذ قال اللّـه يـاعيسـى ابن مـريـم اأنت قلـت للنـاس اتخذونـي وأمي الهين من دون اللّـه. قال سبحانك مايكون لـي أن اقول ماليس لي بحق ان كنتُ قلتُهُ فقد علمتَـهُ تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب * ماقلت لهم إلا مـا امرتني به ان اعبـدوا اللّـه ربـي وربّكـم وكنتُ عليهـم شهيداً مـادمتُ فيهم فلمـا توفيتَنـي كنتَ أنت الـرقيبَ عليهـم وانتَ على كـلّ شيء شهيد﴾.

قـال العـاقب: انك تقـول عـن المسيح لايملك لنفسـه نفعـاً ولاضـراً إلا بامـر اللّـه ولايملك مـوتاً ولاحيـاةً ولانشوراً ولكـن ألم يكن يحيي المـوتى ويبرئ الاكمـه والابرص وينبئهـم بمـا يكـون،ن فـي صـدورهـم ومايدخرونفي بيوتهم فهل يستطع ذلك إلا اللّه؟

وهنا أبان نبي اللّه انه هو سبحانه الذي منح عبده و نبيه عيسى بن مريم(ع) القدرة على احيـاء الموتى وابـراء الأكمه والابـرص وغيرهمـا من القدرات، وقد آتـاهما المسيح عيسى بن مريم(ع) باذن اللّه عزوجل، حتى يـؤمن بـه النـاس ويتبعـوه، شـأن النبيين والمرسلين جميعاً يمـدهم باعثهم بمعجزات تؤثر في العقول حتـى تتبين مكانة المبعوث عن سائر ابنـاء عصره ... وما كـانت لتتأتّى لهـم القـدرات ولا المعجـزات إلا في سبيـل الأمر الحق الذي إليه يدعون والغاية النهائية التي إليها يسعَون وهي الايمان باللّه الواحد الأحـد وبانه هـو الأول والآخـر وله مـا في السمـاوات والأرض وإليـه المصيـر وتـلا رسـول اللّه(ص) قوله تعالى ﴿ورسولاً إلى بني اسرائيل اني قد جئتكم باية من ربكم اني اخلـق لكم مـن الطين كهيئـة الطيـر فانفخ فيه فيكون طيراً باذن اللّه و أُبرئُ الأكمه والابرص وأُحيِ الموتى باذن اللّه وأُنَبِّئُكُم بمـا تاكلـون وما تـدّخِـرون في بُيـوتكـم إن في ذلـك لآيـةً لكم إن كنتـم مـؤمنين * ومصـدقـاً لما بيـن يـديَّ من التـوراة ولأُحِـلَّ لكم بعـض الـذي حُـرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكـم فاتقوا اللّه وأطيعـون * ان اللّه ربي وربّكـم فاعبدوه هذا صراط مستقيم.﴾

وطال النقاش ودام الحوار وكل من وفد نجران يسأل ما يجيش في صدره، ونبي الله محمد(ص) يقدم لهم البراهين الدالة والشواهد الثابتة والآيات الموحية المعبرة حتى بان له أخيراً ان لا أحد في الوفد يريد أن يقر بالحقيقة ويذعن لها، ربما لغاية في النفوس هم يعلمونها ... وبعد أن رأى الرسول(ص) تشبثهم بآرائهم من غير وجه حق انزل عليه الوحي بأن يطلبهم للمباهلة، والمباهلة هي التضرع إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك بأن يدعو كل فريق على الآخر كيما يتبيّنَ الحق من الباطل، و يظهر الصادق من الكاذب، فأعلن النبي(ص) للوفد ذلك وتلا دعوة الله للمباهله بقوله تعالى:

﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل: تعالَوا ندعُ ابناءَنا و ابناءَكم و نساءَنا و نساءَكم و انفسَنا و انفسَكم ثم نبتهل فنجعل لعنَةَ الله على الكاذبين.﴾[٢]

وبُهِتَ القومُ لهذه الدعوة اذ لم تكن في حسبانهم و رضخوا للأمر الواقع، و إن فاجأهم، فقال قائلهم انصفت يا أبا القاسم فإن المباهلة آية معجّلة بيننا و بينك.

و تواترت الروايات في كتب الحديث والتفسير ومنها صحيح مسلم و الترمذي وتفسير الطبرى والرازي والبحر المحيط وغرائب القرآن وروح البيان والمنار والمراغي وغيرها كثير.[٣]

وقال هؤلاء في أول شوال من السنه العاشره للهجره وعند مقبرة البقيع في المدينة المنورة حضر اليوم المشهود وفد نجران وجمع غفير من كبارالصحابة. اذ جاء الوفد وفي طليعته أسياده. الاسقف أبو حارثة، والعاقب والسيد وفي صحبة هذين الأخيرين ابناهما صبغة المجن وعبد المنعم و ابنتاهما سارة ومريم. جاء الوفد إلى البقيع على نفس المظهر الذي أتى به المدينة بالحلل الفاخرة والزينة الباهرة ليجد أهل المدينة مدينة الرسول بمها جريها وانصارها وبالقبائل من حولها قد اصطفت وتجمعت وأمامها الالوية لتشهد الحدث الاكبر.

وما إن أخذ الوفد مكانه وراح يسوى أموره، حتى ارتفع صوت بالتكبير، الله أكبر الله أكبر، فاشرأبت الاعناق وجالت الانظار، واذا برسول الله(ص) قد قدم محتضناً الحسين وهو في حوالي الخامسة من عمره، وآخذاً بيد الحسن وهو في حوالي السابعه من عمره، ومن خلفه مشى أبوهما علي بن أبي طالب زوج فاطمة، وزوجه فاطمة الزهراء عليهم سلام الله، ثم جثا كما تجثو

الانبياء وجلسوا خلفه وقال لهم «اذا دعوت فأمنوا على دعائي» وقال «اللّهم هؤلاء أهل بيتي».

ولما رأى وفد نجران أن النبي قدم مع اعز آله واحبهم لديه خافوا واعتقدوا ان الرجل لو لم يكن على مثل ضوء الشمس من اليقين بالغلبة والانتصار لما قدم أهل بيته في معركة هي الفصل فتراجعوا إلى سيدهم ليقول لهم «يا أهل نجران لاتباهلوا والله اني لأرى وجوها لوسألوا ربهم أن يزيل الجبل عن مكانه لاجاب و ازاله.»

ثم جاء السيد إلى النبي قائلاً رأينا أن لا نباهلك فقال لهم اسلموا فأبوا ثم صالحهم على أن يؤدوا الجزية.

بقي علينا بعد عرض هذه القصة التاريخية أن نرى انطباق الآية على من؟ فهل عمومها غير مخصص لتنطبق على جميع بني هاشم من الرجال والنساء والابناء؟ أو تدخل عقائل بني هاشم وامهات المؤمنين ام لا؟

وإليك ماذكره المقدس الامام شرف الدين صاحب القلم السيال والبيان الذي يهمر الديم و يرفع الغيم.

قال قدس سره: أجمع أهل القبلة حتى الخوارج منهم على أن النبي(ص) لم يدعُ للمباهلة من النساء سوى بضعته الزهراء، ومن الابناء سوى سبطيه وريحانتيه من الدنيا، ومن الانفس إلا أخاه الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى، فهؤلاء اصحاب هذه الآية بحكم الضرورة التي لايمكن جحودها لم يشاركهم فيها أحد من العالمين. كما هو بديهي لكل من ألم بتاريخ المسلمين وبهم نزلت لابسواهم فباهل النبي(ص) بهم خصومه من أهل نجران فبهلهم، وأمهات المؤمنين رضي اللّه عنهن كن حينئذ في حجراته صلى اللّه عليه وآله و سلم، فلم يدع واحدةً منهن وهن بمرأى منه ومسمع، ولم يدعُ صفية وهي شقيقة أبيه، وبقية أهليه ولا أم هاني ذات الشأن والمكانة، وهي كريمة عمه، الفارج لهمه، ذى الايادي. التي هي من المسلمين طوق الهوادي، ولا دعا غيرها من عقائل الشرف والمجد وخفرات عمرو العلى وشيبة الحمد، ولا واحدة من نساء الخلفاءالثلاثة وغيرهم من المهاجرين والانصار ـ كما أنه لم يَدعُ مع سيدي شباب أهل الجنة أحداً من ابناء الهاشميين على أنهم كانوا ﴿اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا﴾ ولادعا أحداً من ابناء الصحابه على كثرتهم، ووفور فضلهم، وكذلك لم يَدعُ من الانفس مع علي عمّهُ وصُنوَ أبيه العباسَ بن عبدالمطلب، وهو شيخ الهاشميين واجود القرشيين، واعظم الناس عند رسول

اللّه(ص). بل لم َيدعُ أحداً مـن كافة عشيرته الاقـربين ولا واحداً مـن السابقيـن الاولين رضي اللّـه تعـالى عنهـم أجمعين. وكـانـوا بمـرأى من المبـاهلـة ومسمع ومنتـدى من أهلها ومجمع فلم ينتدب واحداً منهم مع من انتدبهم إليهـا، بل لم ينتدب احـداً من سائر أهـل الأرض بـالطـول والعـرض، وانمـا خرج(ص) كما نص عليه الرازي في تفسيره الكبيـر وعليـه مرط مـن شعر اسـود و قـد احتضن الحسين وأخذ بيـد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها، وهـو يقول إذا أنا دعوت فأمّنوا، فقال أُسقـف نجران يا معشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألوا اللّه أن يـزيل جبـلاً لازاله فـلا تباهلـوهم فتهلكـوا ولايبقى على وجه الأرض نصـراني إلى يوم القيامه.

بخٍ بـخٍ ان من وقف على هـذه الوهلـة العظيمة والروعة الشديدة التي رهقت اعلام نجران وممثلي دينها ودنياها بمجرد أن برز أصحاب الكسـاء لمباهلتهم يعلـم ان لمحمد صلوات اللّـه و سلامـه عليه وعليهم جـلالةً ربانيـه تغشي الابصار، ومهـابةً روحـانية يخفي لهـا جنـاح الـذل والصغار، ألا تـرى اولئك الابطال «وهـم ستون فارساً من اسـود الشـرى وليـوث الـوغـى كيف ارتعـدت فـرائصـهم قلقـاً، وانخلعت قلـوبهم فـرقـاً، ونادى عظيمهم بمـا سمعت هلوعاً جـزوعاً، وهـذا ليس إلا للجلالـة الربـانية والعظمـة الـروحانيـة التي ادركها خصمهـم من أول نظرة إلى وجـوههم المباركة. فكأن الجـلالة والعظمة والمهابة والأبهـة وقرب المنزلة من اللّه والكرامة عليه مكتـوبة بنوره تعالى، في أسـارير جبهتهـم الميمونـة ومعنـونـة في صفحـات وجناتهـم الكـريمة وانـي لاعجب واللّـه مـن المسلـم الـذي لايقـدر هـذا لمقام قدره.

وأنت تعلم أن مبـاهلته صلى اللّـه على وآلـه و التماسـه منهم التـامين على دعـائه بمجرده فضل عظيـم، وانتخابه ايـاهم لهذه المهمة العظيمة واختصـاصهم بهذا الشأن الكبير و ايثاره فيه على من سواهم من أهل السوابـق فضل على فضل لم يسبقهـم إليه سابق ولن يلحقهم فيه لاحق، ونزول القرآن العزيز آمراً بالمباهلة بهم بالخصوص فضل ثالث يـزيد فضل المباهلـة ظهوراً ويضيف إلى شرف اختصاصهم بها شرفاً وإلى نوره نوراً.

وهناك نكتة يعرف كنهها علماء البلاغه ويقدر قدرها الراسخون في العلم العارفون باسرار القرآن. وهي ان الآية الكريمة ظاهرة في عموم الابناء والنساء والانفس كما يشهد به علمـاء البيان ولايجهله أحـد من عرف ان

الجمع المضاف حقيقة في الاستغراق. وانما اطلقت هذه العمومات عليهم بالخصوص تبياناً لكونهم ممثلي الاسلام، واعلاناً لكونهم أكمل الأنام، وإذاناً بكونهم صفوة العالم، وبرهاناً على أنهم خيرة الخيره من بني آدم، و تنبيهاً إلى أن فيهم من الروحانية الاسلامية والاخلاص للّه في العبودية ماليس في جميع البرية، وان دعوتهم إلى المباهلة بحكم دعوة الجيمع وحضورهم خاصةً فيها فنزل منزلة حضور الأمه عامة، وتأمينهم عى دعائه مُغنٍ عن تأمين من عداهم. وبهذا جاء التجوز باطلاق تلك العمومات عليهم بالخصوص، ومن غاص على اسرار الكتاب الحكيم و تدبره، ووقف على اغراضه يعلم ان اطلاق هذه العمومات عليهم بالخصوص انما هو على حد قول القائل:

«ليس على اللّه بمستنكرٍ ان يجمع العالم في واحد».

ولذا قال الزمخشري في تفسير الآية من كشافه «وفيه دليل لاشيء اقوى على فضل اصحاب الكساء عليهم السلام».

بقيت نكتة يجب التنبيه لها وحاصلها ان اختصاص الزهراء من النساء والمرتضى من الانفس. مع عدم الاكتفاء بأحد السبطين من الابناء دليل على ما ذكرناه من تفضيلهم عليهم السلام، لأن علياً وفاطمة لما لم يكن لهما نظير في الانفس والنساء كان وجودهما مغنياً عن وجود الآخر لتكافئهما ولذا دعاهما(ص) جميعاً ولو دعا أحدهما دون صنوه كان ترجيحاً بلا مرجح وهذا ينافي الحكمة والعدل.

نعم لو كان ثمة في الابناء من يساويهما لدعاه معهما كما أنه لو كان لعلي نظير من الانفس أو لفاطمة من النساء لما حاباهما عملاً بقاعدة الحكمة والعدل والمساواة.

بقي مما دلت عليه الآية من خصائص علي(ع) فضل تضمحل دونه الخصائص وتفنى في جنبه الفضائل والمناقب. الا وهو كونه نفس النبي(ص) وجارياً بنص الآية مجراه. الفضل الذي تعنو له الحياه بخوعاً، وتطامن لديه المفارق خشوعاً، ويملأ الصدور هيبةً واجلالاً. وتصاغر دونه الهمم يأساً من بلوغ مداه ﴿**ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم**﴾ وأنت هداك اللّه اذا عرفت أن اللّه تبارك وتعالى قد انزل نفس النبي واجراها في محكم الذكر مجراها، لاترتاب حينئذٍ في أنَّه افضل الامة وأولاها برسول اللّه(ص) حياً وميتاً. وقد صرح اولياء اهل البيت، واعترف اعداؤهم بدلالة الآية على هذا التفضيل الخالد في

القـرآن ذكره، والطيـب في بينـات الفرقـان نشـره، حتى ان الرازي مـع اغرامـه بنقص المحكمات وهيامـه في التشكيك والشبهات لم يناقـش في دلالتها على هـذا المقدار من تفضيلـه عليـه السـلام.[4] وانمـا نـاقـش المحمـود بن الحسن حيث صـرح بدلالتهـا على تفضيلـه على من كـان قبل محمـد من الانبيـاء عليه وعليهم السـلام وإليك عبـارة الرازي بعين لفظه قال:

«كان في الري رجل يقال له محمود بن الحسن الحمصي وكـان مُعَلّم اثني عشـرية وكـان يـزعم ان عليـاً(ع) أفضل مـن جميع الانبيـاء سوى محمـد(ص)، واستـدل على ذلك بقوله تعـالى وانفسنا وانفسكم اذ ليس المرادُ بقوله وأنفسنا نفس محمد(ص) . لان الانسـان لايدعـو نفسه بل المـراد غيرهـا. وأجمعوا على أن ذلك الغير كان على بن أبي طالـب(رض) فدلت الآية علـى أن نفس علي هي نفس محمـد. ولا يمكن أن يكـون المراد ان هذه النفس مثل تلك النفس وذلك يقتضـي المساواة في جميع الوجوه تركنا العمل بهذا العموم في حق النبوة وفي حق الفضل لقيام الدلائل على أن محمـداً(ص) كان افضل من سـائر الانبيـاء فهـذا وجـه الاستـدلال من تفسيره.

فأمعـن النظر تجـده قد أوضـح دلالـة الآية علـى ذلك غايـة الايضـاح ـ ونـادى من حيث لايقصد حي على الفلاح ـ ولم يعارض الشيعة فيمـا نقله عن قديمهم وحـديثهم بل اذعن واعترف».[5]

الهوامش

(١) آل عمران ٥٩/ ٦١

(٢) خاتم النبيين محمد(ص) ص: ٨٧٤

(٣) الكاشف محمد جواد مغنيه م٢ ص:٧٧

(٤) الكلمة الغراء ص: ٢٠٧

(٥) تفسير المباهلة ج٢ ص:٤٨٨

* * *

الحرية المنشودة على ضوء القرآن

الدكتور محمد فاطمي

الانسان لن ينال حريته المنشودة ما لم يُحطِّم سيطرة الأوهام على نفسه، وما دام لم يقضِ على الأهواء التي تتحكَّم في قلبه، ولن ينال كرامته وعزّته ما لم يضَعْ عنه إصرَهُ الذي يرزح تحته من التعلُّق والتمسُّك بالمؤثِّرات الكاذبة فالإنسان لم يفارق العبودية متى استعبدته مطامعُه وأوهامُه وشهواتُه وآمالُه وطواغيتُ الجن والانس، واستولت عليه وساقته الى الذلِّ والهوان وشفا حفرةٍ من النيران.

فلا تُصدِّق ما يُذاع وينفخ به في الأبواق ويضرب به على الطبول من أنّ الانسان نال اليوم في بعض المجتمعات المتحضِّرة حريته المنشودة، ﴿فقد احتملُوا بُهتاناً وإثماً مُبيناً﴾(١).

نعم إن الانسان في تلك المجتمات حرّاً في ان يكفر بالله. والاديان كلّها يعمى عن الفطرة وسنّة الكون، ويجري وراء شهواتِهِ خبطَ عشواء، وحرٌّ في ان يقول اليوم: ان الارض تدور أو لا تدور، وأنه يوجد في الكواكب الاخرى حياة أو لا توجد مما لا يمسّ منافع ظالم، ولا يهدِّد مصالح قويٍّ، ولا يُزعزع عرش حاكم، ولا يثير فقيرا ولا يبعث ضعيفا، ولكن هل معنى ذلك ان الانسانية قد قضت على التعصّب، وان العقل قد أصبح حرّ طليقا كما يشاء ويقول ما يشاء؟ وهل الانسانية استطاعت ان تحطِّم ما سيطر على قلوب افرادها وتطلق سراحهم وتخرجهم من زنزانة الأوهام الى النور حتى يحلِّقوا في آفاق غير متناهية؟ ولا شك أنّ الجواب على ذلك ليس مثبتا(٢).

الانسان إذا تعلق قلبه بشيء واصبح اسيره صار عبداً لذلك الشيء، فمن علق قلبه بالمخلوقين لينصروه أو يرزقوه أو يهدوه،

خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية بقدر تلك العلاقة كائنا من كان، فإذا كان اميراً لهم اصبح في الحقيقة عبداً فيهم، لان العاقل ينظر الى الحقائق لا الى الظواهر، فطالب الرئاسة والعلو في الارض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، فهو في الظاهر مقدّمهم والمطاع فيهم ولكنه في الواقع عبد مطيع لهم، لانه يرجوهم ويخافهم ويبذل لهم الاموال والولايات طمعا في حمايتهم، يعفو عن جرائمهم رجاءَ اطاعتهم ومعونتهم، فاذن يظهر صحة ما قاله ابن تيمية:

«فالحرّيةُ حرّيةُ القلب، والعبوديّةُ عبودية القلب»[٣].

فالحرية المنشودة للانسان لا تتحقق الاّ في ظلّ سياسة الاسلام وتشريع مبدأ التوحيد، وهدى هذا النداء العام في القرآن:

﴿تعالوا الى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم الا نعبدَ الاّ اللهَ ولا نشركَ به شيئا * ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً ارباباً مِنْ دونِ الله﴾[٤].

فهذا النداء الرباني كما قال الاستاذ المودودي: تحريرٌ للعقول والافكار وجميع المواهب البشرية من القوى العقلية والمادية، من اغلال العبودية والسلطات، وضمانٌ للحرية البشرية الحقة[٥].

والآيات الواردة في القرآن حول التوحيد وتحرير النفوس أشهرُ من أن تذكر واكثر من ان تُحصر، ومع هذا فلا بأس ان نأتي بطائفة منها هاهنا:

﴿ولقد بعَثنا في كلّ امةٍ رسولا * أن اعبُدوا اللهَ واجتَنِبُوا الطاغوت﴾[٦].

﴿قل من ذا الذي يعصِمُكم من الله إن اراد بكم سوءً ، أو أراد بكم رحمةً * ولا يجدون لهم مِنْ دونِ الله وليّاً ولا نصيراً﴾[٧].

﴿ان الذين تدعون من دون الله عبادٌ امثالُكم * فادعوهم فلْيَسْتَجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾[٨].

﴿وانا لَنَحنُ نُحيي ونُميتُ ونحن الوارثون﴾[٩].

﴿قل لا أملكُ لنفسي ضرّاً ولا نفعاً إلاّ ما شاء الله﴾[١٠].

﴿افتعبدون من دون الله ما لا ينفعُكم شيئاً ولا يَضرُّكم﴾[١١].

﴿الذي خلقني فهو يهدينِ * والذي يُطعمني ويسقينِ * واذا مرضتُ فهو يشفينِ * والذي يُميتني ثم يُحيينِ * والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾[١٢].

﴿ولا تدعُ مع الله إلهاً آخر * لا إلهَ إلاّ هو كلُّ شيءٍ هالِك الاّ وجهَهُ * لـه الحكمُ وإليه تُرْجعون﴾[١٣].

لما كان التوحيد تحريرا للنفوس،

وضمانا لكرامه الانسان، وكمالاً لعزته وشخصيته، ورجوعا الى فطرته النقيّة، كان الغاية الاولى من رسالة الانبياء، وكان اول واهم مبدأ في نظام الاسلام وسياسة القرآن، بحيث ان المبادئ الاخرى ترجع إليه في المآل وتستمد قوتها منه في الحقيقة.

ان مبدأ التوحيد يُعدّ في الحقيقة معراجَ تحريرِ الانسان، والذروةَ العليا لعزته وكرامته، وتترتب عليه آثار وفوائد جليّة، وتقوم عليه منافع عظيمة ومصالح قويمة تعود الى حياة الانسان في دنياه ونظامه في مجتمعه، وتنبئ عن آفاق تحريره.

من هذه الآثار ــ تطهير النفس من الأوهام الفاسدة وتنزيهها من الملكات السيئة فيحس الانسان كرامته ويرى قيمته، وتتجلّى له نفسه بذلك حرةً كريمةً، وارادته من القيود مطلقة. فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا رفيع في الحق ولا وضيع، ولا سافل ولا عالٍ، ولا تفاوت بين الناس الاّ بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل الا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم[١٤].

ومنها الأنفة والاعتداد بالنفس، وذلك لان التوحيد يصعد بالإنسان من حضيض الذل والهوان، والضعف والعجز، والاستجداء والتطفل، والاستعانه والتوسل، وينفخ فيه روح الانفة والعزّة، وينادي عليه ليثور ويحطّم سلاسل سلطات الاوهام ويخلّص نفسه من انسجة العناكب التي نسجتها عليه التّصوُّراتُ الكاذبة والظنون الباطلة.

فالمؤمن في المجتمع القرآني جبلٌ عظيم لا يتضعضع لريب الطواغيت، ولا يركع امام الجبابرة، ولا يخضع للمتكبرين والمتفرعنين ﴿اشدّاءُ على الكُفّار رحماءُ بينهم﴾[١٥] فهو لا يذل في مقابل ذوي الثروات طمعا في مالهم، ولا ينسى كرامته عند ذوي الجاه لمنزلتهم، اذ يعتقد ان لا رازق الاّ الله ولا حكم الاّ له[١٦]. ﴿يبسط الرزقَ لمن يشاءُ من عبادِه ويَقدر﴾[١٧] فهناك يرجع الانسان الى نفسه ويفتح عينَه فيترفع عن كل ما يدنّس أذيالَ عزته وحريته، ويبتعد ويتجنب عن كل ما توسل إليه من العوامل الكاذبة والاسباب الظاهرة الخدّاعة، فيتوكل على الله، ويعتمد على نفسه ويتكئ على عمله ويشق طريقه الى الامام، فالنصر حليفه والامل قرينه.

ومنها القضاء على اليأس والقنوط، ذلك ان الانسان ما لم يتحرر من سيطرة العوامل والاسباب الظاهرة وسلطة الاوهام والظنون الفاسدة، ولم يَسبَح في بحار التحرير التوحيدي، لا يتخلص من سلاسل اليأس والقنوط ولا يعتِق نفسَهُ من ربقة هذا العدو

الغاشم. ذلك ان عوامل النجاح مهما توافرت، وان الاسباب مهما تضافرت، وان الاصحاب مهما تكاثرت، فلربما لا يحصل الانسان منها على ما يتمناه ولا تكون النتيجة منها النيل والنجاح بل الحاصل للشخص هو الخيبة والفشل، فهناك يكشف اليأسُ والقنوط عن وجهه الكريه للانسان، ويسوقه الى الضعف والهوان ويسيطر عليه الذلّ والهزيمة والتسليم.

أمّا الانسان المعتنق لبمدإِ التوحيد فهو لا يعرف اليأس والقنوط، ولا يفارق قوة القلب وطمانينة الروح، وان تقطعت اسبابه وفشلت حيلُه. لانه يعتقد انّ: ﴿يدُ الله فوقَ أيديهم﴾[18] وانّ الله لا يخذله ابدا، وانه يجيب دعوة الداعي اذا دعاه، فاذن يصبر ويستقيم ويناوم واثقا بعون الله ومتوكلا عليه، فلا يخضع ولا يركع ولا ييأس ولا يتزعزع، ويتذكر الآيات التالية:

﴿اني توكّلتُ على الله ربّي وربكم﴾[19].

﴿الا بذكر الله تطمئنُ القلوب﴾[20].

﴿انه لا ييأس من رَوْحِ الله الاّ القوم الكافرون﴾[21].

ومنها الجرأة والشجاعة، لان الانسان اذا علم انه لا مؤثر في الوجود الاّ الله وانه يحييه ويميته، ويمرضه ويشفيه، وله مقاليد السماوات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر[22] ارتفعت نفسه الى العزه والاباء والاستشهاد، ومغادرة الخوف والجبن في وجه الطواغيت والاقوياء.

راي الاستاذ المودودي ان الهلع والجبن في الانسان يرجعان الى امرين:

١ ـ حبّهِ لنفسه واولاده وامواله.

٢ ـ خوفِهِ لاعتقاده الباطل القائل بان مجرد الاشياء التي يستخدمها آلاتٍ فيما يشاء من اغراضه، هي في ذاتها قادرة على نفعه وضرّه. فالايمان بالله يطهّر قلب الانسان من هذا الحب وهذا الخوف[23].

اما بالنسبة الى ذلك الحبّ فالقرآن حوّل القلوب منه ولم يترك له فيها امام حب الله موضعا: ﴿قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانُكم وازواجُكم وعشيرتُكم، واموال اقترفتُموها وتجارةٌ تخشَون كسادَها ومساكنُ ترضَونَها، احبَّ اليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتيَ اللهُ بامره، واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقين﴾[24].

﴿ان اللهَ اشترى من المؤمنين انفسَهُم واموالَهُم بانَّ لهم الجنة * يقاتلون في سبيل الله... فيَقتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقّا في التوراة والانجيل والقرآن * ومَن أوفى بعهده من

الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظيم﴾[٢٥].

واما بالنسبة الى الخوف من الاسباب والمؤثرات الظاهرة فلانّ التحرير التوحيدي هدم سيطرة كل السلطات الروحية والمادية على قلب الانسان ومحا اثرها، فلم يدع لاحد ولا لشيء بعد الله ورسوله سلطانا على روحه وسيطرة على نفسه. حتى ان الرسول في التفكير الاسلامي وشريعته مبلّغ ومذكّر لا مهيمن ومسيطر، قال الله تعالى: ﴿فذكّر انما انت مذكّر * لستَ عليهم بِمُسَيطِر﴾[٢٦].

ومنها الجهاد المستمر والسعي الدائم والتخلّي من التواني والتواكل، وذلك لان من اعتنق مبدأ التوحيد آمن بان القوة لله جميعا[٢٧] وان ليس له من دون الله ولي ولا نصير، ﴿وان ليس للانسان الاّ ما سعى * وانّ سعيَهُ سوف يُرى﴾[٢٨].

فهناك لا يعتمد على الاسباب والمؤثرات الظاهرة تاركا سعيه وجهده، ولا يفوّض امره الى غيره طامعا في خيره ونفعه، بل يستخدم دائما كل قواه في تحقيق مصالحه، ويبذل كل جهد، في تحصيل منافعه، ثم يتكل على ربه فيتقدم ولا ييأس ولا يعجز.

ومنها تحسين العلاقات وازدهار المواهب النفسيه، وذلك لان علاقات المتحرر من سلطات الاوهام مع غيره تلبس ثوبا آخر وتتلون بلون جديد، فهو بعد التحرر لا يعظّم ذوي الجاه خوفا من منزلتهم، ولا يتقرّب الى ذوي الثروات طمعا في اموالهم، ولا يحترم الجاهل الغني تواضعا لمقامه، فلا يحب ولا يبغض رئاء الناس، ولا يرضى ولا يسخط تبعا للأقوياء ولا يعدو ولا يفتك طاعة للجبابرة، فاذا خضع وتواضع، أوأحبّ ورضي فليس ذلك لملاحظة الظواهر الخداعة والمؤثرات الكاذبة، بل انما يتفجر من القلب والروح ويندفع من الايمان والاخلاص، فتجرى العلاقات في مسيرها الصحيح، وتتجلّى في شكلها الاصيل، وتدور في مدارها القويم.

واما ازدهار المواهب فان المؤمن الموحد لا يفسح المجال للجاهل المستبد، ولا يترك الميدان للغني المتحكم، ولا يمهل القوى الاحمقَ، ولا يقلب ظهرَ المجن امام الغني اللئيم، فلا يسكت ولا يصمت. فهو يقول ما هو الحق ويبدى ما هو الاصل، ويشجع اهل الفضيلة ويزدري اهل الرذيلة، ويحمي ذوي الالباب والعقول، ويغادر اصحاب الابواق والطبول.

فاذا سادت المجتمع هذه السياسة الرشيدة وانتشرت فيه، ووجدت العقلاء

والعلماء والحكماء به حماة لهم وارضا خصبةً لثمارهم، ازدهرت المواهبُ هناك واخضرّت، واثمرت العقول وأورقَتْ.

ومنها سعة النظر وعمق المعرفة، وذلك لان الانسان لا ينظر الى الدنيا الاّ ـ بمقدار ما يتعلق بمنافعه وما يحتاج إليه، فهو لا يحب ولا يبغض شيئاً الاّ لانه ينفعه. أو يضره، فلا يخشى قويا ولا يتصغر ضعيفا الاّ في هذه الدائرة الضيّقة.

اما اذا انجلى الليل وذهبت الغشاوة التي على بصره، وانكسر قيد الانانية والغرور والخداع الذي على رجله، وتخلص من هذه الدائرة الضيّقة، واعتقد بأنّ ﴿وما من دابّة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الاّ امم امثالكم﴾(٢٩). ﴿بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون﴾(٣٠)، وان الله مالك الملك يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه عمن يشاء، وهو يعز من يشاء ويذل من يشاء راى هناك نفسه في عالم كبير لا يدبره ولا يسوسه الاّ الله، وأنّ جميع ما في الكونِ سمائِه وارضه، جبالِه وسهولِه برّه وبحرِه، إنسِه وجنِّه، نباتِه وجمادِه مسخراتٌ لأمره.

فيجد نفسه جزءاً صغيراً من هذا العالم يؤثر فيه ويتأثر منه، ويتمتع بما فيه كغيره ويتحمل مسؤولية كسائر الاجزاء، لاتفاوت ولا تفاضل، لا حرمان ولا استئثار ولا استعباد. في ضوء هذا النظر لا يرى فيه شيئاً على نفسه ولكن مستأنسا به معرفا عليه، ولا تبقى مؤاساته ولا محبته ولا صداقته ولا خدمته محدودة بدائرة التي انما وضِعَتْ حدودُها على اعتبار علاقة هذا الكون بنفسه(٣١).

ويمكن أن يُعتَرض على المبدأ التوحيدي بانه لم يحرِّر الإنسان مطلقا بل أطلقه من قفص وأدخله في محبس، حرّره من انسجة وقيده في سلسلة، وذلك لان هذا المبدأ وان حطم قيود الأوهام والظنون وجميع السلطات والسيطرة على قلب الإنسان وروحه، لكن فرض عليه عبودية الخالق وسلّط عليه هيمنته.

فنجيب: ١ ــ بان التوحيد يحرر الانسان من السلطات الهائمة الحائرة الغاشمة ويدعوه الى هيمنة خالق قدير ﴿ءاربابٌ متفرقون خير ام الله الواحد القهار﴾(٣٢)؟

٢ ـ ان الدعوة الى هيمنة خالق قدير يعطي الإنسان الرجاء والطمأنينة ويدفع عنه اليأس والقنوط.

٣ ــ ان المبدأ التوحيدي لا يربي الشخص على العجز والهوان ولا يجعله اسيرا ذليلا، بل يضعه على عرش من القوة

والقدرة والحرية حينما يذكره: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم﴾[٣٣].

ذلك هو ما جاء به القرآن لمبدأ الحرية وما سنّه لها - باعتبارها اصلاً - لا نظير له ولا مثال، ودرسناه في بعض النواحي على قدر التيسر، فاذا تركنا هذه النّواحي وتناولنا الحرية بشكل آخر نرى ان الاسلام وضعها في مجالاتها المختلفة موضعها اللائق بها، وهيّأ لها مكانا فسيحا، انزلها في التقدير والاهتمام بشانها موضعا كريما[٣٤].

ففي مجال المدنيّة، سوى الاسلام بين الرجل والمراة متزوجة أم غير متزوجة، وبين افرادِ الناس على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وطبقاتهم في الأحساب والانساب، فجعلهم سواسية كأسنان المشط، فلا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، كلكم من آدم وآدم من تراب، قال الله تعالىٰ:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا * ان اكرمكم عند الله اتقاكم * إن الله عليم خبير﴾[٣٥].

واما في مجال الدين، فنرى ان الاسلام سار على اسس سمحة نبيلة ونهج جليلة، فلا يُرغَمُ احدٌ على ترك دينه واعتناق الإسلام، ولا يُكرهُ شخص حتى يكون مؤمنا.

قال الله تعالى: ﴿افأنت تُكرِهُ النَّاسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾[٣٦].

وقال أيضاً: ﴿لا إكراه في الدِّين قد تبيَّن الرُّشدُ من الغيِّ فمن يكفُرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ بالله فقد استمسك بالعروةِ الوُثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليمٌ﴾[٣٧].

روى الطبري[٣٨] عن الضحاك انه قال: امر رسول الله(ص) ان يقاتل جزيرة العرب من اهل الاوثان فلم يقبل الا لا اله الاّ الله أو السيف، ثم امر فيمن سواهم بان يقبل منهم الجزية، فقال: لا اكراه في الدين...

وفي مجال التفكير، نالت الحرية رفيعة وحظًا كبيرا في القرآن، فمن تتبع القرآن رأى فيه آيات كثيرة تحرض الانسان على التفكير، وتنكر عليه اهماله للنظر والتدبر، واعتناقه للتقليد، وايمانه بالخرافات[٣٩].

وامثال هذه الآيات كثيرة في القرآن:

﴿اولم يتفكروا في انفِسهم ما خلق الله السموات والارضَ الا بالحقِّ واجلٍ مُسمّى﴾[٤٠].

و﴿وما يذَّكر الاّ أُولو الألباب﴾[٤١].

﴿كذلك نفصِّل الآياتِ لقومٍ يتفكَّرون﴾[٤٢].

﴿ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيرا من الجنِّ والإنسِ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم اعيُنٌ لا يُبصِرونَ بها ولهم آذانٌ لا

يسمعونَ بها اولئك كالأنعامِ بل هم أضلُّ اولئكَ هم الغافِلون﴾(٤٣).

وفي مجال القول والانتقاد، جعل القرآن حرّية القول واجبا على المسلم في كل ما يمس الاخلاق والمصالح العامة والنظام العامّ، وفي كل ما يدخل تحت آفاق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى:

﴿ولتَكُنْ منكم أُمةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويامرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المُنكرِ﴾(٤٤).

وجدير بالذَكر أن هذهِ الحرّيةِ في القولِ والانتقادِ في القرآن لا تخرجُ عن دائرةِ الخيرِ والحقّ والحكمةِ.

﴿أُدعُ الى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَةِ وجادِلهم بالتي هي احسنُ﴾(٤٥).

﴿لا يُحبُّ اللهُ الجهرَ بالسُّوءِ من القولِ الاّ مَن ظُلِم﴾(٤٦).

وفي مجال المناقشات الدينيّة، القرآن اول كتاب ينادي بـ﴿هاتوا برهانكم إن كُنتم صادقين﴾(٤٧).

ويوصي الرسول في المناقشات الدينيّة بالتزام سبيل الحكمة والطريقة الحسنة. قال الله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن﴾(٤٨).

لقد بلغ القرآن في مجال الاهتمام بالحرية في المناقشات الدينية انه يغرى الكفار بالاحتجاج والاتيان بالدليل على صحة دينهم وما اعتنقوه من مبادئه، فجاء فيه:

﴿ائتوني بكتابٍ مِن قبلِ هذا * أو اثارةٍ من عِلمٍ ان كنتم صادقين﴾(٤٩).

وفي مجال التعليم، لم يكتف القرآنُ بتقرير الحرّية فيه بل جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، قال الله تعالى:

﴿فلو لا نفرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقّهوا في الدِّين وليُنذِروا قومهُم اذا رجعوا اليهم﴾(٥٠).

وفي مجال القومية واختلاف اللغة، نرى ان القرآن يتناولهما باعتبرها ظاهرة من سنّة الكون وفطرة الخلقة، واودع الله فيها فوائد جليلة ومنافع جزيلة تعود على المجتمع الانساني بالخير والبركة، لما فيها من المعرفة والرقي الفكري والتعاون والتضامن والاخوة والوحدة، ذلك لأن شأن الاختلاف في مظاهر الكون الذي يعد من ظواهر سنّة الكون، ايجاد مقتضيات متفاوته ومتطلّبات متقابلة تبعث الانسان على النظر والتدبر وبذل الجهد، وتسوقه الى التعاون والتضامن، حتى يستطيع ان يحيا حياة كريمة ويعيش عيشة طيبة.

قال الله تعالى: ﴿يا ايها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ اكرمَكُم عند اللهِ اتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ﴾ (٥١).

وقال أيضاً: ﴿ومن آياتِهِ خلقُ السماواتِ والارضِ واختلافُ السنتكم والوانكم إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالِمين﴾ (٥٢).

فاذا كان اختلاف القوميات وتفاوت اللغات من مقتضيات سنّة الكون وموطناً للرموز والاسرار، كان من العبث القضاء عليهما ومن الجهل السعيُ وراء نفيهما.

نعم ان مسألة القوميات واللغات محترمةٌ ومكرّمةٌ في القرآن ما دامت جارية في مجراها الاصيل ولم تنته الى التعصُّب والاستبدادِوالاستئثارِ كما نرى عند قوم اليهود وبعض من جوامع البيض.

هذه هي الحرية في التفكير الاسلامي وكما جاء بها القرآن الكريم، واوصى بها ﴿كتابٌ أُحكمت آياتُه ثم فصِّلت من لدُن حكيمٍ خبيرٍ﴾ (٥٣) لا استئثار بها لطبقة خاصّة ولا تفريق فيها، فلا القويُّ بطلُها ولا الضعيفُ ضحيّتها، لا البيضُ سادُتها ولا السود عبيدُها، لا الغنيّ فيها يقول بِملءِ فيه، ولا الفقير العِيُّ والصّمتُ يناديه، لا الرجل مستبد بها ولا المرأة منذلة عنها. فلا تجد لهذه الحرية في شريعة اخرى مثيلا ولا في نظام آخر نظيرا. ﴿ما ترى في خلقِ الرحمنِ من تفاوتٍ فارجِعِ البصرَ هل ترى من فطورٍ﴾ (٥٤).

الهوامش

(١) الاحزاب: ٥٨.

(٢) احمد حسين: الطاقة الانسانيّة: ٨١ (المكتبة العصرية، صيدا، ط٣، بيروت).

(٣) العبادة وحقيقة العبودية: ٣٥ (مكتبة تعز للنشر، تحقيق عامر طاهر الشيغلي، ١٩٨٩)

(٤) آل عمران: ٦٤.

(٥) ابو الاعلى المودودي نظرية الاسلام وهديه: ٣٠ (مطبعة دار الفكر).

(٦) النحل: ٣٦.

(٧) الاحزاب: ١٧.

(٨) الاعراف: ١٩٤.

(٩) الحجر: ٢٣.

(١٠) الاعراف: ١٨٨، ويونس: ٤٩.

(١١) الانبياء: ٦٦.

(١٢) الشعراء: ٨٣.

(١٣) القصص: ٦٩.

(١٤) الشيخ الامام محمد عبده؛ رسالة التوحيد: ١٥٠ـ١٥٢.

(١٥) الفتح: ٣٠.

(١٦) عفيف عبد الفتاح طبّاره: رَوح الدين الاسلامي: ٨٠ (ط٨، منشورات جماعة عبّاد الرحمان).

(١٧) العنكبوت: ٦٢.

(١٨) الفتح: ١١.

(١٩) هود: ٦.

(٢٠) الرعد: ٢٨.

(٢١) يوسف: ٨٧.

(٢٢) الشورى: ١٢.

(٢٣) ابو الاعلى المودودي: الحضارة الاسلامية: ١٥١ (ط٢، دار العربية).

(٢٤) التوبة: ٢٤.
(٢٥) التوبة: ١١١.
(٢٦) الغاشية: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢٧) البقرة: ١٦٥
(٢٨) النجم: ٣٩ ـ ٤٠.
(٢٩) الانعام: ٣٨.
(٣٠) يس: ٨٣.
(٣١) المودودي: الحضارة الاسلامية: ١٤٠.
(٣٢) يوسف: ٣٩.
(٣٣) الرعد: ١١.
(٣٤) الدكتور محمد البهي: رسالة الاسلام: ٦١ (العدد الاول للسنة الثامنة).
(٣٥) الحجرات: ١٢.
(٣٦) يونس: ٩٩.
(٣٧) البقرة: ٢٥٦.
(٣٨) الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن: ٤١٢ (تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر).
(٣٩) راجع: الدكتور عبد الواحد وافي: حقوق الانسان في الاسلام: ١٩٨ ـ ٢٣٠، (الطبعة الرابعة، دار نهضة مصر).
(٤٠) الروم: ٨.
(٤١) آل عمران: ٧.
(٤٢) يونس: ٢٥.
(٤٣) الاعراف: ١٧٩.
(٤٤) آل عمران: ١٠٤
(٤٥) النحل: ١٢٥.
(٤٦) النساء: ١٤٨.
(٤٧) البقرة: ١١١.
(٤٨) العنكبوت: ٤٦
(٤٩) الاحقاف: ٤.
(٥٠) التوبة: ١٢٢، وحول الحرية في الاسلام يُراجع: عبد القادر عوده: الاسلام واوضاعنا السياسية: ٢٦٦ ـ ٢٧١، الدكتور محمد البهي: الحرية في الاسلام: ٦١ ـ ٦٢ (العدد الاول السنة الثامنة: رسالة الاسلام).
(٥١) الحجرات: ١٤.
(٥٢) الروم: ٢٢.
(٥٣) هود: ١.
(٥٤) الملك: ٢.

* * *

الركائز الأربع في بناء المجتمع القرآني

بحث حول تشكلات المجتمع القرآني في عهد الرسول (ص)

عبد الحسين المؤمن

عندما هاجر الرسول محمد (ص) من مكة الى المدينة المنورة، وسنح له الظرف المناسب، باشر بتأسيس أول مجتمع إسلامي وبذل في ذلك أكبر مجهود بعد أن مهد له بعقد ميثاق الاخوة بين أصحابه من الانصار والمهاجرين، وإقامة مسجد جعله مركزاً لتجمع المسلمين، وموضعاً لعملياته ونشاطاته الاجتماعية والسياسية والعبادية. وقد تجلى العمل السياسي الذي قام به النبي (ص) والذي يدل على أنه كان أول من اقام مجتمعاً قرآنياً، وبنى القواعد القوية، أنه يباشر أموراً هي من صميم العمل السياسي والنشاط الإداري لذلك المجتمع.

اتجهت فكرة الرسول (ص) الى غاية سامية في تكوين المجتمع القرآني، رافضاً كل أنواع المجتمعات الضيقة والعشائرية أمثال مجتمع الاوس ومجتمع الخزرج ومجتمع عبد مناف ومجتمع هاشم وغيرها... مريداً بذلك مجتمعاً واحداً، منه تتكون الأسرة الإسلامية الكبيرة، فإذا تم له ذلك خطا الخطوة الثانية وهي تفعيل روح الاسلام في قلوب الناس على أساس المجتمع الاسلامي، المجتمع الذي يتعاون فيه أعضاؤه ويتفاعلون مع غيرهم من أهل الديانات الموجودة بما يحقق الخير للجميع.

ومن هنا اعتمد الرسول محمد (ص) خطوات عدة لتحقيق المراد السامي، فكانت على الشكل التالي:

أولاً: بناء المسجد.

ثانياً: التآخي والتوادّ بين المسلمين.

ثالثاً: المعاهدات.

رابعاً: التكافل الاجتماعي.

* * *

١- بناء المسجد:

تابع رسول الله محمد (ص) هجرته، هجرة الاسلام، ورحلة الحياة، والنبي يسير والنصر يسير معه، والشوق يحركه أكثر للقاء الأحبة والأنصار في المدينة أولئك الذين كانوا أشد شوقاً ورغبة في استضافة أشرف خلق الله وأعز المرسلين لقد كان فرحه عظيماً في طريقه إذ التقى بأبي ذر على راس غفار و«أسلم» وكلهم صدق وأخلاص للرسول (ص) في إسلامهم، ووصل الرسول (ص) الى (قباء) وانتظر علياً (ع) حتى وافاه بما معه ومن معه، ثم توجهوا تلقاء المدينة حيث كان اللقاء العظيم، واليوم المشهود، حيث أهل النصرة، والعزة، والمنعة، حيث المؤاخاة والإيثار والصدق.

وهنا بدأ (ص) تركيز دعائم الاسلام فبدأ ببناء أول مسجد في الاسلام وشارك بنفسه في بنائه... وأراد أن يكون منطلقاً وقاعدةللمجاهدين العابدين والركّع السجود.

وحلت بركة الرسول محمد (ص) ونور الاسلام في مدينة الأنصار «المدينة المنورة» وبدأ الاسلام فيها عزيزاً، واستمر عزيزاً.

وبذل الرسول القائد (ص) أكبر مجهود بعد أن مهد له بعقد المجتمع القرآني فيها ولم يكن الهدف الأسمى في ذلك العبادة فحسب، فالدين الاسلامي يجعل الأرض كلها مسجداً للمسلمين. ولكن مهمة المسجد كانت أعمق من ذلك بكثير وأقوى، إذ المراد منه هو بناء مكان عام لا ينتمي لأحد قطّ، ولا يجتمع فيه أفراد أسرة خاصة أو قبيلة من هنا وهناك، وبهذا يكون قد هذبَ الرسول العظيم(ص) الروح العشائرية والقبلية الضيقة، فجعلها روحاً اسلامية واسعة.

فما أراده(ص) هو أن يشيّد مكاناً للجميع، من خلاله يلتقي المسلمون للعبادة والمشاورة والتجارة والقضاء والتربية والالفة والتآزر، والتآخي ...الخ وفيه كذلك يلتقون حول رسول الله محمد (ص) يأخذون عنه المبادئ الاسلامية، ونظام المجتمع الجديد، وتعلم آيات القرآن الكريم، وفي هذا المنتدى القرآني تمتزج النفوس الطاهرة والعقليات الذكية لتكون جسداً واحداً، ومه ينبعث الأذان ليعطر بصوته جو المدينة ويعلن للناس أن كلمة الله أصبحت العليا، وكلمة أعداء الله هي السفلى.

* * *

٢- التـآخي والتوادّ بين المسلمين:

الركيزه الثانية التي أنجزها الرسول (ص) في بناء بيت المجتمع هي المؤاخاة بين المسلمين.

الاسلام بُني على كلمتين «كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة». قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿والّف بين قلوبهم لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما الّفتَ بين قلوبهم ولكنَّ اللهَ الفَ بينهم إنه عزيز حكيم﴾.[٣]

فإن الله يمُن على النبي (ص) انه وحد بهداه قومه وهو يعني أن التوحيد ورص الصفوف هي غاية الاسلام الكبرى...

والروايات النبوية وأحاديث أهل البيت (ع) تناشد الناس بالوحدة. قال رسول الله محمد (ص): «من أتاكم وأمرُكم جميع (مجتمع) على رجل واحد، يريد أن يشقّ عصاكم أو يُفرّقَ جماعتكم فاقتلوه».[٤]

ولأمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) ضوء في ذلك حينما قال: «والزموا السواد الأعظم، فإن يد الله على الجماعة، واياكم والفرقة، فإن الشاذي من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب، ألا من دعا الى هذا الشعار فاقتلوه، ولو كان تحت عمامتي هذه».[٥]

وبهذا الصدد أيضاً قال الامام جعفر الصادق (ع): «من فارق جماعة المسلمين قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقة».[٦]

ولقد كان لهذه المفاهيم الأثر الكبير في نفوس المجاهدين والأنصار، إذ أنهم رأوا وعاشوا مفهوم الوحدة والأخوة والتآخي والتآزر، والتآلف، حيث تقاسموا البيوت، والأموال وسائر ما يمتلكون.

وأكد الرسول (ص) على روح المساواة في الاسلام بطريقة نظرية وعملية، اذ أنه آخى بين (السيد والعبد) بغض النظر عن انتمائه القبلي وفي ضوء هذه المبادئ دعا الرسول (ص) المسلمين ليتآخوا في الله وجعلهم (ص) كلهم إخوة.

بقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ يعني في التوّادّ وشمول الدعوة.

وبهذا الذكاء الميداني انصهرت العشائرية والقبلية في بوتقة الاسلام

وتشكلت الأسرة الأم، وعليها تأسست روح التعـاون والمحبة والالفـة، والتضحيـة والإيثار.

وقـد نسي الجميع الجـوانب السلبيـة «من عصبية مفرطة، ونزعات جاهلية وأنانية شخصية» وعاشوا للاسلام جنوداً مطيعين مجاهين صابرين.

التآلف بين القلـوب على أساس القرآن كمـا صوره اللـه سبحانـه وتعـالى بقولـه: **﴿واذكروا نعمة اللـه عليكم إذ كنتم اعداءً فالـف بين قلـوبكم فـاصبحتم بنعمتـه إخواناً﴾**.(٧)

وبهـذا الربـاط الإلهي المقـدس ارتبط الأوائل بالاسلام، وألف بين القلوب المتنافره قبل الاسـلام، لقـد أنتجـت عمليـة التـآخي والتآلف والتوادّ التي قام بها الرسول (ص) على تكوين أسرة اسلامية واحدة لمت جميع القبـائل والعناصـر المختلفة... ونَسـيَ كل منهم نسبهُ، وارتبط الجميع بـرباط الاسلام الذي ألف الله بين قلوب معتنقيه، وأصبحوا بفضل الله سبحـانه وتعالى «أمة اسـلامية واحدة».

٣- المعاهدات:

من يتتبع سيرة الرسول (ص) يجد أنه (ص) أقدم بمجـرد نزولـه المدينـة المنورة على تأسيس الدولة الاسـلامية، وأصبح هو القـائد السيـاسي العـام، وعقد معـاهـدات ومواثيقَ مع الطوائف الأخرى الموجودة في المدينـة، كاليهود وغيـرهم اتفاقية وميثـاقاً تُعتبـر في الحقيقـة أول دستـور للحكومـة الاسلامية.

ويجب أن نذكر هنـا أن الاسلام جعل التـوحيد أسـاساً قـويـاً للتعاون مع أتبـاع الديـانات السماويـة المختلفة قولـه تعالى: **﴿قُل يا اهل الكتاب تعالَوا الى كلمة سواء بيْنَنا وبينَكُم الاّ نعبدَ إلاّ الله ولا نُشرِكَ به شيئاً ولا يتخـذَ بعضُنا بعضاً اربـاباً من دون الله﴾**.(٨)

يقول السيـد المرحـوم «الطباطبـائي» رضوان الله تعالى عليه(٩)، ما يلي: «في هذه الآية الشريفة»:

وأن معنى كون الكلمة سواء ان القرآن والتوراة والإنجيـل متفقة في الـدعوة إليهـا وهي كلمة التـوحيد ولو كان المـراد به ذلك كان قـوله تعـالى: **﴿أن لا نعبـد إلاّ اللـه ...الخ﴾** مـن قبـل وضـع التفسيـر الحـق موضـع الكلمة المتفق عليهـا، والإعراض عما لعبت به أيـديهم من تفسيره غيـر المرضي الذي تنطبـق الكلمة بـذلك على أهـوائهم من الحلـول واتخـاذ الابـن والتثليث وعبـادة

الأحبار والقسيسين والأساقفه، ويكون محصل المعنى: تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم وهي التوحيد، ولازم التوحيد رفض الشركاء، وعدم اتخاذ الأرباب من دون الله سبحانه وتعالى. انتهى.

فإذا ارتقى الانسان بإنسانيته، وسما بعقلهِ وروحه، وترفع عن عبادة الأوثان والحيوان والشجر والشمس والقمر، وآمن بالله وحدة، مسلماً كان او مسيحياً او يهودياً، تربطة صله قوية بمن يعيش هذه العقيدة وإن اختلف معه في الدين.

قوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.(١٠)

الطاغوت هو الطغيان والتجاوز عن الحد، ولا يخلو من مبالغة في المعنى، كالملكوت والجبروت، وتستعمل فيما يحصل به الطغيان كأقسام المعبودات من دون الله، كالأصنام والشياطين والجن وأئمة الضلال من الإنسان وكل متبوع لا يرضى اللّه سبحانه وتعالى باتباعه. ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والتثنية ...الخ. ومن هذا المبدأ عقد الرسول (ص) معاهدات عدة مع اليهود وغيرهم وتعتبر هذه المعاهدات من انفس المعاهدات الدولية واهمها وأجدرها بتقدير الجميع على اختلاف أديانهم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنها تنير الطريق أمام المؤمنين وتبين لهم كيف يكون التعايش بين الأديان على أساس التوحيد لله جل وعلا.

ونرى من جهة أُخرى أن المعاهدة، كما تنص على حرية العقيدة بكل جوانبها، تنص كذلك على أن الجميع مسؤولون عن الدفاع عن البلد المشترك ضد أي اعتداء يقع عليه. وعلى أن يتعاونوا في الأزمات المالية والاقتصادية، وأن يرجعوا جميعاً عند اختلافهم الى الرسول (ص).

ما هي سياسة اليهود من هذه المعاهدات؟

القرآن الكريم والنبي الأمي (ص) والتاريخ الاسلامي الطويل الزاخر بالأحداث قد قدم للمسلمين صورة تكاد تكون واضحة عن الحالة الأخلاقية الذميمة لليهود، وعن طموحاتهم اللامنطقية واللامشروعة والتي كانوا يدعمونها بتعاليم دينية مزيفة، ويعملون على تحقيقها بسياساتهم الخبيثة كذلك .

فإن صدق هذه النبوءة، والمتمثل في بروز صفة (الغدر والخيانة) فيهم على صعيد الواقع بصورة ملموسة وظاهرة للعيان، لسوف يمسح عن أعين الكثير غبار

الخداع والانخداع، ولسوف يكون في ذلك آية أُخرى تدل على صدق هذا النبي الأكرم وعلى حقانية موقفه وصواب سياساته منهم، ويقطع كل عذر، ويزيل كل شبهة فقد ﴿تبيّن الرشد من الغيّ﴾.(١١)

قوله تعالى: ﴿فقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾.(١٢)

لقد كان من الطبيعي ان يتوقع اليهود. أن يواجه النبي (ص) والمسلمون نقضهم للعهد بكثير من القلق وعدم الارتياح، بل وحتى الوجوم الناجم عن الارتباك والتزلزل.

ونقض العهد أربك اليهود وأوقعهم في حيرة وأثار لديهم أكثر من سؤال.

ثم هو يزعزع ثباتهم ويذكي مخاوفهم بصورة كبيرة وخطيرة.

إن العامل المساعد للإحساس الواقعي بالمسؤولية والقادر على المواجهة الحازمة، القائمة على الدراية والعقل، لسوف يضعف من قدرة اليهود والمنافقين، وتمييع الموقف، بالاستفادة من عامل العاطفة أو عامل الانبهار القائم على التخيل والتوهم غير المنطقي ولا المسؤول...

ما هي اهمية العهود بين المسلمين وغيرهم؟

اعتبر الاسلام هذه العهود وسيلة لايقاف الحروب، وللمنع من نشوبها، لكي يتوفر للإنسان المسلم في ظلها حرية التعبير والتغيير، وحرية العمل والحركة.

ولقد أولى الاسلام لهذه الاتفاقيات والعهود أهمية بالغة، ورسم لها حدودها وبرمجها ونظمها، وبين، بوضوح تام، مختلف الأصول والأهداف التي لابد من رعايتها والحفاظ عليها.

واليهود يمتازون عن غيرهم بنفوس خبيثة غادرة، ونرى في الوقت الحاضر مجزرة الحرم القدسي، وهي من أبشع المجازر الانسانية التي ارتُكبت ضد الشعب الفلسطيني المظلوم، وسوف تحتل باهميتها بسبب بشاعتها من جهة، والظروف التي حدثت فيها من جهة أخرى، فالصورة التي برزت فيها، رغم التعتيم الاسرائيلي، توضح مدى ما يمكن أن تذهب إليه قوات الاحتلال لقمع تطلعات الشعب الفلسطيني وقتل شبابه وكسر الآمال في نفوس أبنائه، كما وأن ظروف المجزرة تعكس جانبين مهمين:

اصرار المتطرفين اليهود على تغيير معالم مدينةالقدس الاسلامية التي هي محل تقديس واحترام كافة الأديان السماوية، وذلك بعملهم الحثيث لانشاء معابدهم على اراضي المسلمين بالاستناد الى دعاوى تاريخية يشوبها الكثير من التزوير والخلط،

فقبة الصخرة، وهي التي تتوجة إليها أنضار المسلمين باستمرار والتي تحمل معاني تاريخية ودينية لهم، تتعرض باستمرار لمحاولات التدمير «المجانين اليهود» هم الذين اقترفوا الجريمة، ولا يتخذ اي إجراء حاسم لإيقاف التهديدات المستمرة، فطالما استمرت الأطماع اليهودية في سياسة فرض الأمر بالقوة فإن المشكلة لن تنتهي بسهولة.

ب - ان المسلمين من خلال استقراء مواقفهم في مواجهة المحاولات اليهودية لأزالة الآثار الاسلامية من مدينة القدس، مستمرون في مواقفهم الرافضة للمساس بقدسية أماكن العبادة في المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة اللذين يتعرضان باستمرار للإهانه ومحاولات التدمير.

والحل الوحيد لهذه السياسة اليهودية هو «ثورة الحجارة».

والانتفاضة الاسلامية هي الردّ الحاسم على هذه السياسة الخبيثة لتدمير المسلمين في عقر دارهم، وهي الاستجابة المنطقية لسياسات الإهانة والتدمير والعنف المرتكبة ضد الشعب الفلسطيني المسلم. ولعل هذه الانتفاضة المباركة هي التي أوصلت الصرخة الفلسطينية إلى ضمير العالم، وذلك بإصرارها على التظاهر والحضور الدائم في ساحة الأحداث. وان الدافع الديني أصبح الأكثر حضوراً.

ولا شك ان دعاة السلام مع الكيان الصهيوني قد أصيبوا بخيبة أمل كبيرة وهم يشاهدون كيف يسقط الشهداء من أبناء فلسطين الواحد تلو الآخر على ساحة الشرف بايدي قوات الاحتلال.

أن النفس الخبيثة لا يفيد معها إلاّ القوة والعنف والتصدي، وهو علاج شاف لهذا المرض، هؤلاء هم اليهود وهذه هي نفوسهم الشريره...!!!

٤- التكافل الاجتماعي:

ان الاسلام دين واقعي فطري اجتماعي، ولذا فهو لا يعمل على إغفال الحقائق الخارجية، ومنها الحقيقة الفطرية. كما يسعى بكل الاساليب للارتفاع بمستوى الواقع إلى الشكل الأمثل. وعلى هذا لاحظ الاسلام، في تصوره للوضع الاقتصادي السليم، واقع الانسان ودوافعه وواقع الساحة التي يعيشها ومن ثَمّ خطط لإسعاد المجتمع في هذا المجال ضمن تخطيطة العام الأوسع منه. قوله تعالى: ﴿وإن تَعُدّوا نعمة الله لا تُحصوها إن الأنسان لَظَلُوم كفّار﴾.

في هذه الآية الكريمة، بعد أن يذكر نعم الله على الانسان ويعد بعضاً منها يعقب

على ذلك بقوله: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾

«الظلم الكفر بأنعم الله» هي مشكلة البشر ولو تخلص الانسان من هذا الثنائي المشؤوم لَحُلَّت المشكلة تماماً.

الله سبحانه وتعالى لا يريد «الكفر والظلم» للبشر بل يريد الرحمة والخير العميم والسعادة في الدارين لكافة البشر. ولذا يسعى الأنبياء والرسل الى العدالة والقسط بين البشر التي هي من أهدافهم، ولكي يتحقق التوازن الاقتصادي في مستوى المعيشة يجب العمل على الارتقاء بالطبقة الفقيرة الى حد (الغنى) والهبوط بالمستوى الذي تعيشه الطبقة المترفة الغنية والمسرفة، ولا يبقى بين مستويات المعيشة إلاّ التفاوت البسيط المعقول.

ماهي نظرة الاسلام في هذا الجانب؟

الاسلام يعمل على تعميق العقيدة في النفوس بحيث يتحول الوجود الانساني الى وجود موحد مطيع لله تعالى مُضَحٍّ في سبيله بكل ما يملك.

والعقيدة إذا تعمقت وتشربت في النفوس انبثقت منها مفاهيم اجتماعية رائعة لها تأثيرها الأكبر في مسيرة الحياة الاجتماعية، وتلك من مثل مفاهيم:

(خلافة الانسان لله) ومفهوم (التخويل المالي للانسان من قبل الله) ومفهوم ثالث (الأخوة الاسلامية) ومفهوم آخر (الربح والخسارة في التصور الاسلامي) وغيرها...

هذه المفاهيم مضافاً إليها العقيدة الاسلامية الصافية تترك آثارها في صياغة العواطف الاسلامية نحو المتقين، والأخوة بين المؤمنين، مما تمهد أكبر التمهيد لتطبيق التصور الاسلامي لحل مشاكل العصر المعقدة.

التعلق بالقرآن الكريم وبعلومه، والذوبان في الاسلام، تجعل من الانسان الرسالي الملتزم أن يترك الحياة المترفة التي لا تشعر بآلام المعوزين، وذم الإسراف والمسرفين وانحرافهم عن الطريق المستقيم، والتفكير بالمؤمنين المعوزين، وكيفية سد حوائجهم وعوزهم وهنا نطرح هذا السؤال:

هل المادة لها علاقة بالشهوات؟

المال مادة الشهوات وانه يسبِّب انحراف الانسان إن لم يبذل هذا المال في سبيل الله ورسوله والمؤمنين.

كما أكد الاسلام في أكثر من مرة على العمل في سبيل الله ونسيان الذات. وإذا تعمق هذا المفهوم حُلَّت المشكلة وحُلَّ

التعارض بين المصالح الذاتية والمصالح الاجتماعية، وكان التمهيد الأروع لتحقيق العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي والتآزر والتآخي بين المؤمنين.

وهنا نقول: أإنّ الانسان المعوز في فترةٍ ما يبقى على المساعدات المالية من الأغنياء ولا يعمل وهو يستطيع العمل؟

الاسلام لا يرضى بذلك، والنصوص الواردة من أهل البيت تؤكد على العمل وتحث عليه للتخلص من الذلة عند الحاجة، ويكون هو الآخر قادراً على سد نقصه ومساعدة الآخرين الذين لا يستطيعون العمل لمرض مزمن، أو شيخوخة، أوعاهة جسمانية.

وإليك عزيزي القارئ نماذج من اقوال الرسول (ص) والائمة الأطهار (ع):

يقول الرسول (ص): «إنّ لاحدكم ثلاثة أخلّاء: منهم من يمتعه بما سأله فذلكَ ماله، ومنهم خليل ينطق معه حتى يلج القبر ولا يعطيه شيئاً ولا يصحبه بعد ذلك فذلك قريبه، ومنهم خليل يقول: والله أنا ذاهب معك حيث ذهبت ولست مفارقك! فذلك عمله إن، كان خيراً وإن كان شراً».[١٤]

من وصايا أمير المؤمنين لابنه الحسين عليهما السلام:

«يابنيّ أوصيك بالعمل في النشاط والكسل».[١٥]

عن الإمام الصادق (ع) قال: «ليس من الأعمال عند الله عزّ وجلّ بعد الإيمان أفضل من إدخال السّرور على المؤمنين».[١٦]

قال الرسول العظيم (ص): «أحبّ الأعمال الى الله سرور تُدخلُهُ على مؤمن تطرد عنه جوعته ويكشف عنه كربته».[١٧]

وقال سيد العارفين أمير المؤمنين(ع): «الناس في الدنيا بالأموال وفي الآخرة بالأعمال»، وقال(ع): «العمل شعار المؤمن» وقال(ع): «بالعمل يحصل الثواب لا بالكسل» وقال(ع): «من يعمل يزدد قوةً، ومن يقصّر في العمل يزدد فترةً».[١٨]

ما هو موقف الإمام علي (ع) من الترف والإقبال على الدنيا؟

كان (ع) يذم الترف والإقبال على الدنيا وله خطبة طويلة نقتطع مها ما يلي:

«اقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبها، ومن عَشقَ شيئاً أعشى بصره وأمرضَ قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة. فقد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه فهو عبد لها، ولمن في يديه منها». ويقول (ع): «فهو يعض يده ندامةً على أصحر له عند الموت من أمره،

ويـزهد فيمـا كـان يـرغب فيـه أيام عمـره، ويتمنى أنّ الـذي كان يغبطـهُ بها ويحسـدهُ عليها قد حازها دونه».

ولنـا في رسـول (ص) أسـوة حسنـة حيـث نـراه (ص): «يـاكـل علـى الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصـف بيده نعله، ويرقع بيـده ثوبه، ويركب الحمـار العاري، ويردف خلفه، ويكون الستر باب بيته...».

أيها المؤمنون: هذا هو الرسول العظيم (ص) وهذه هي حياته الكريمة... لنتخذ منها سلوكاً وعبرة وطريقاً لحياتنا لأن طريقهُ هو «الطريق المستقيم» الذي لا اعوجاج فيه.

ما هو موقف الأنبياء والرسل من هذه الدنيا؟

كـانوا قـوماً مستضعفيـن في الأرض، وقـد اختبرهم اللـه بـالمخمصة وابتـلاهم بالمجهدة وامتحنهم بـالمخاوف، ومخضهم بالمكـاره، فلا يعتبـرون الرضـى والسخط بالمال والولد جهـلاً بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنى والاقتدار.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ايحسبون ان ما نمـدهم به من مـال وبنينَ * نسارع لهم فـي الخيـرات بل لا يشعـرون﴾[١٩] فـانـه سبحـانـه وتعـالى يختبـر عبـادة المستكبـريـن فـي انفسهـم بـأوليـائه المستضعفين في أعينهم.

﴿إن النفسَ لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحمَ ربي﴾.[٢٠]

قول الإمام أميـر المؤمنين (ع): «المال مادة الشهوات» و«ماجاع فقير إلاّ بما متع به غني» و«مـا عالَ من اقتصـد» و«استنزلـوا الرزق بالصدقة»

ونحن بصدد التكافل الاجتماعي:

الاسـلام يوصي بـالقرابـة والصدقـة وبذل المال في سبيل الله والفقير الغارم.

لذا فإن الإمام علـي (ع) يقول في نهج البـلاغـة: «فمن آتـاه اللـه مـالاً فليصل بـه القرابـة، وليحسن منه الضيـافة، وليفـكّ به الأسير والعـاني، وليعط منه الفقيـر الغارم، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب ابتغاء الثواب».

هذه الخصال الحميدة والحسنة للنفس المتعلقة بالله سبحانه وتعالى شَرفُ مكارم الدنيا والسعادة في الآخرة.

ونهاية المطاف نقول:

الإنسان غالباً مـا يختار لنفسه منهجاً وضعياً لتحقيق السعادة، ويبتعد عن القرآن والمنهج الالهي لتحقيقها، وسرعان ما يعيش في أجواء ما دية بحتة تسلب سعادته وتكدر عليه صفوة حياته.

والقرآن والمنطق الالهي الذي يدعو الى عبادة اللـه هو الوحيد علـى تحقيق السعادة

للانسان، وهو الذي يكفل للبشرية الأمن والاستقرار وهذه الدعوة هي التي تجرد الانسان من النوازع الشريره.

إن جل اهتمام الأنبياء والرسل (ع) هو اخراج المجتمع الى منزل السعادة في رضوان الله سبحانه وتعالى الذي يمثل الطموح الأول الذي يوجه الدين الاسلامي الانسان المسلم نحو تحقيقة.

فالقرآن يريد القسط والعدل والسعادة للمجتمع الانساني ككل وليس لهذه الطبقة أو تلك أو لأولئك القوم وتلك القبيلة، وهو خلافاً للعقائد الاخرى وأنه يقيم أصالة لوجدان الانسان العقلي يقيم له أصالة وجدانية وفطرية أيضاً.

القرآن يحث الظالم والمظلوم على الرجوع الى الحق.

والنبي موسى (ع) أوصل بدوره نداء الله الى بني إسرائيل والى فرعون كذلك، وطلب منهم أن يؤمنوا بالله ويسيروا في طريقه.

أما النبي محمد (ص) فقد عرض رسالة الله على زعماء قريش وعلى أبي ذر وعمار أيضاً. ويورد القرآن نماذج متعدده من انتقاض الفرد نفسه والعودة عن طريق الضلالة والفساد (التوبة).

والقرآن يعلم ان عودة الذين يعيشون في نعيم ورخاء أصعب بدرجات من عودة المحرومين والمستضعين.

القرآن يقيم جواً روحياً ومعنوياً رفيعاً للإنسان ويرى من الضرورة أن يحافظ الانسان على هذا الجو النزيه السليم. وبالرغم من أن محاولات الانسان في الأجواء الاجتماعية غير النزيهة تبقى فاشلة ودون جدوى.

القرآن يؤكد على أن الانسان يجب ان يسعى لتطهير وتزكية محيطه الاجتماعي، كذلك أن يبقى الحب والايمان والافكار والميول المتعالية وتأثيرات القرآن ونصائحه و... و...، وكل هذه الأشياء تتوقف على أن يبقى الانسان والمجتمع الانساني بعيداً عن الرذائل والدناءه وحب الهوى والشهوات...

«والحمد لله رب العالمين»

الهوامش

(١) الانعام:١٥٣.
(٢) الحجرات:١٠.
(٣) الانفال:٦٣.
(٤) اخرجه مسلم في صحيحه.
(٥) نهج البلاغة: الخطبة١٢٣.
(٦) الكافي ١:٥:٤٠٥.
(٧) آل عمران:١٠٢.
(٨) آل عمران:٦٤.

(٩) محمد حسين الطباطبايي - تفسير الميزان ٢:٢٧٤.

(١٠) البقرة:٢٥٦.

(١١) البقرة:٢٥٦.

(١٢) الكهف:٢٩.

(١٣) ابراهيم:٢٤.

(١٤) ميزان الحكمة، محمدي الري شهري، عن كنزالعمال.

(١٥) بحارالانوار ٧٧:٢٦٣.

(١٦) بحارالانوار ٧٤:٣١٢.

(١٧) وسائل الشيعة ١١:٥٧٣.

(١٨) نهج البلاغة، من قصار الحكم.

(١٩) المؤمنون: ٥٥-٥٦.

(٢٠) يوسف:٥٣.

* * *

محاكمة سريعة لأخطاء في ترجمة القرآن: آربري وبيكثال نموذجاً

عباس ابو سعيدي

كان القرآن، وما يزال، كتاب المسلمين الأكبر. وقد حظي منذ وقت مبكر، من نزول الرسالة الاسلامية، باهتمام المسلمين تلاوة وبحثاً وعملاً. بيد ان هذا الاهتمام تراجع، للأسف الشديد، حينما تراجع المسلمون عن موقعهم الريادي، في قيادة البشرية، ليظهر اهتمام آخر ــ مغاير تماماً ــ بهذا الكتاب السماوي وعلومه ومفاهيمه، وذلك حينما بدات طلائع الاستشراق تعكف على دراسة الاسلام وشرائعه وعقائده.

وكان من الطبيعي ان يتبوا القرآن الكريم طليعة اهتمامات المستشرقين، ولكن ليس رغبة في اكتشاف الحقيقة المجردة، والالتحام بها، او الدفاع عنها، وانما لهدف مسبق ومرسوم سلفاً،على طريقة «اعرف عدوك»، في محاولة اختراق مقصود لتشويه الاسلام، والطعن بنبيّه، وتحريف كتابه. وقد اختزن الموروث الاستشراقي مئات بل آلاف المحاولات المغرضة، عبر الدّس الرخيص، والتزوير المفضوح، وليّ عنق الحقيقة، لكي تنسجم والرؤيةَ الغربيةَ.

واتخذ هؤلاء المغرضون من ترجمة القرآن الكريم ساحة مفتوحة، لكى يَبُثُّوا سمومَهم، ويدسُّوا افتراءاتهم، فيحرّفوا معاني القرآن ومفاهيمَه ما شاء لهم الهوى والعصبية والحقد على الاسلام...

في هذه الدراسة وقفة سريعة مع نموذجين شهيرين من تلك التراجم ... وفيها مايفي ... ويكشف.

التحرير

قرات كثيراً من التراجم – الانجليزية خصوصاً ـ لمترجمين مسلمين وغير مسلمين، عرب وأجانب، مطولة ومختصرة، وكلّ منهم نحا نحواً خاصاً قد اصطفاه، واسلوباً معيناً قد ارتضاه، فلم أجد فيها ماتتوق اليه نفس المؤمن من دقة في الترجمة وأصالة في التعبير كما هو كائن مع القرآن العربي. ونطالع فيما ياتي تراجم انجليزية للقرآن الكريم و نقف على اغلاطها واشتباهاتها، إن في اختيار البديل لمفردات القرآن، ام في السبك الجملي للآية تلو الآية، وذلك باختصار شديد.

سنسلّط فى بحثنا هذا، باذن الله ومعونته ، الضوء على نموذجين للتراجم لمترجِمَين معروفين، ونتناول نصوصهما بالبحث والنقد والتحقيق بقدر ما يتطلّبه الموقف والوقت، ويتناول البحث بصورة رئيسة الاختلافات بين كلا المترجمَين والاختلافات فى الترجمة الواحدة لمشتقات من جذر واحد، مع اعطاء البديل لبعض الكلمات المترجمة، أحياناً، وهو ما يراه الباحث صحيحاً وليس بالضرورة ان تكون هذه البدائل هي الوحيدة، بل يمكن استخدام بدائل كثيرة ومتنوعة.

المترجمان مدار البحث هما:

١–آرثرجون آربرى Arthur J.Arberry

كتابه : القرآن المفسّر[١] The Koran Interpretation.

٢–محمد مرمادوك بيكثال Muhammad M. Pickthall

كتابه : القرآن المجيد[٢] The Glorious Qur'an

فآربري هو انجليزي الاصل، ولد في ديسمبر(كانون اول) من عام ١٩٠٥م في بورتسماوث(portsmouth) وحصل على شهادة البكالوريوس(B.A.) وله كتب شخصية ومترجمة .

واما بيكثال وهو احد المستشرقين، فهو من اصل انجليزي ايضاً وأحد الذين قضوا سنوات عديدة في الشرق. وقد خدم عند النظام (حاكم حيدرآباد ــ الهند) حتى اصبح حاكم احدى الولايات الهندية ذات الاغلبية المسلمة، ثمّ اسلم بعد ذلك.

هذا وسنرتب البحث على شكل فصول، وحسب الالفباء، لتسهل مراجعته .

فصل : أبداً

ذُكِرَت (٢٨) مرة في القرآن الكريم .

ترجمها آربرى (never ; forever and ever)[٣]، وترجمها بيكثال (never; for ever) والاصح من بين هذه المفردات هي كلمة (never).

فصل : أبَقَ

الإباق : هَرَبُ العبيد وذهابهم من غير خوف ولا كدٍّ عمل ، وتأبَّقَ: استتر .

ذكرت مرة واحدة فى القرآن الكريم[٤]:

ترجمها آربرى (ran away) .

وترجمها بيكثال (fled) و ترجم (فرّ، يفرّ فراراً) بـ (fled) ايضاً . اي انه استخدمها لترجمة كلمتين مختلفتين فى الجذر هما(ابق) و (فرّ).! في حين كان الاجدر بهما ان يترجما (ابقَ) وهي كلمة مذكورة مرة واحدة في القرآن الكريم، بـ(escape)مثلاً و (فرّ) بـ(fled).

فصل : أتى ، آتيكَ ،تاتونَ ...

وردت بهذه الاشكال (١٩) مرة فى القرآن الكريم .

ترجم آربرى(أتى) فى ستة أماكن بـ(come) وعَدِلَ عن رأيه فى الآية (٦٩) من سورة (طه) ، وترجمها عكس المعنى تماماً ، ترجمها بـ(go) بمعنى(ذَهَبَ ، راحَ غادرَ)..!

وترجم بيكثال (اتى) فى الآية (٦٩) من سورة (طه) بـ(attain).! بمعنى (يُحرز، يحقّق ، يَبلُغ يصل الى)..!

ترجم آربرى (آتيك) بـ(bring)[٥]..!

وكذا فعل بيكثال

وترجم آربرى كلمة (تأتون) كما يلى:

فى الآية (٨٠) من سورة الاعراف والآية(٥٤) من النمل والآية (٢٨و ٢٩) من العنكبوت بـ(commit) ، وتعنى (يرتكب ،يجترح ...).

فى الآية (٨١) من سورة الأعراف والآية (٥٥) من النمل والآية (٢٩) من العنكبوت بـ(approach) ، وتعنى (يقترب ، يدنومن...).

فى الآية (٣) من سورة الانبياء بـ(take)وتعنى (ياخذ ، يقتنى ، يجنى...)

فى الآية (١٦٥) من الشعراء والآية (١٨) من النبا بـ(come).

واصحُ هذه الكلمات التي تعني (اتى) هي (come).

والخوض فى تفاصيل(اتى) ومشتقاتها لهذين المترجمين يتطلب مجلداً كاملاً ، ونحن نروم الاشارة الى بعض النقاط فى هذا البحثالمختصر.ولنذهب الى فصل آخر.

فصل :أثل

أثَلةُ كل شي : أصله [٦] ، والاثل:شجر ثابت الأصل ، وشجر متأثِّل ثابت ثبوتَه،«غير متأثل مالاً » اي غير مقتن له ، فاستعير التأثُل له[٧].

وردت مرة واحدة فى القرآن الكريم [٨]

ترجمها آربري بـ(lote - trees) وتعنى (شجر اللوطس او النيلوفر ..!).

وكذا فعل بيكثال. بينما كان الاصح ان تُتَرجم (اثل)بـ (rootage).

فصل : إثم ، أثيم

وردت بصيغتيها هاتين (٢٧) مرة في القرآن الكريم .

ترجم آربري كلمة (إثم)[٩] بـ(sin) وترجم (اثيم)[١٠] بـ(guilty)..!واسهل ما يكون إشتقاق (الأثيم)من (الإثم) وهو (sinful).

وترجم كلمة (ذنب)المذكورة(٣) مرات في القرآن بهذا الشكل [١١] و(جُرم ، إجرام) المذكورة مرة واحدة بهذا الشكل[١٢] بـ(sin) ايضاً..! بينما كان يمكن ترجمة (ذنب) بـ (guilt) و (جُرم) بـ(offence).

وكذا فعل بيكثال في ترجمته (إثم) و (اثيم). بينما ترجم (ذنب) و (جُرم) بـ(crime)وهو خطأ.

فصل :الأجل ،أجَّل

وردت (٦٥)مرة في القرآن الكريم .

ترجم آربري كلمة (اجل)[١٣] بـ(term) ، ثم ترجمها في مكان آخر بـ(term) و(determined) في الآية نفسها تماماً..![١٤]

وكذا فعل بيكثال ..! وكان عليهما أن يختارا كلمة واحدة لترجمة (الأجل) لاكلمتين مختلفتين.

فصل: احد ، إحدى ،واحد وحيداً،...

وردت كثيراً في القرآن الكريم وفي اماكن مختلفة .

يكفي أن نشير الى الاختلافات في اعطاء البديل وترجمة الكلمات اعلاه والتي تُعتبر من باب واحد، بصورة مختصرة . لقد ذَهَبَ المترجمون ،كل المترجمين تقريباً الى ترجمة الكلمات المذكورة بطرق مختلفة وذلك حسب معناها في الجملة لاحسب كونها من باب واحد ، وذلك لصعوبة اشتقاقهم من عين الكلمات في اللغة الانجليزية -كما اعتقد- وهو الصواب.

تُرجمت: اَحَد بـ(any)[١٥] و(one)[١٦]

وتُرجمت: إحدى بـ(one)[١٧]، فاشتبه علينا المذكر والمؤنث ..!

وترجمت: واحد بـ(one)[١٨]

وترجمت: وحيداً بـ(alone)[١٩]

والاصحّ من بين هذه الكلمات هي كلمة(one).

فصل: أخَر ، أخرى،الآخر ، الآخرة،الآخرين...

وردت كثيراً في القرآن الكريم وبصيغ مختلفة.

وترجمت هكذا:

أخَرَ (latter)، بينما هذه الكلمة الانجليزية تعني (الأخير ، الختامي..)

اخرى (another)..!

الآخِر (last)...!

الآخرة (the Hereafter) بينما لاتختلف كلمة (الآخِر) عن (الآخِرة) الا كون الاولى (مذكر) والثانية (مؤنث).

الآخِرين (others)..! و هي جمع كلمة (الآخِر).

وكلمة (delay) هي الصحيحة في ترجمة (أخَرَ)ومشتقاتها.

فصل : الإربة ، مآرب

الأرب فرط الحاجة ، ومنها أرَباً وأُربةً وإربةً ومأرَبةً.[٢٠]

وردت الصيغتان مرتين في القرآن الكريم[٢١]

ترجم آربري (الاربة) بـ (sexual desire) وتعني (الرغبة الجنسية او الحاجة الى الجماع)..!في حين ترجم (مآرب) جمع (مَأرَبَة) بـ (uses)..!وكان الاصحّ ان يضع حرف(s) الى نهاية كلمة(desire) فتصبح (مآرب).

اما بيكثال فترجم (غير أُولي الإربة) بـ (who lack vigour)..! وتعني (الذين ينقصهم النشاط او القوة) ..! واتّفق مع آربري في ترجمته لـ (مآرب)بـ (uses) وكلتا الكلمتين خاطئتان.

فصل: أزِفَت،الآزفة

ازِفَ، دنا واقترب ، لكن ازِفَ يُقال اعتباراً بضيق وقتها [٢٢]

وردت (الآزفة) مرتين في القرآن الكريم[٢٣] ، بينما وردت بصيغة الفعل مرة واحدة فيه [٢٤]

ترجم آربري كلمة (الآزفة) بـ (imminent) وترجمها بيكثال بـ (threatened Hour) اي (الساعة المتوعِدة او المُهدّدة او المنذِرة...!) بينما ترجم (الآزفة) ايضاً في الآية (٨١) من سورة المؤمن (غافر) بـ (approaching[doom])..! وتعني (يوم القيامة القريبة او الدانية...!). والصحيح هي استخدام كلمة (imminent).

فصل : تَبتَئِس، الباس ، الباساء، البائِس ،بِئسَ

البؤس والباس والباساء، الشدّة

والمكروه .و(بئس) كلمة تُستعمل في جميع المَذامّ.[٢٥]

وردت هذه الالفاظ كثيراً في القرآن الكريم.

ترجم آربري كلمة (تبتئِس) في الآية(٣٦) من سورة هود بـ (distressed) هكذا بصيغة الماضي . وترجم عين الكلمة في الآية (٦٩) من سورة يوسف بـ (despair)...! عجيب ، في حين ان الآيتين تمثلان الكلمة نفسها حتى بزوائدها التي وردت معها في تلك الآية ، حيث وردت الكلمة الاولى في سورة هود هكذا (...فلا تبتئس بما كانوا...) ووردت الثانية في سورة يوسف هكذا (...فلا تبتئس بما كانوا...) فما الذي حدا بـ (آربري) الى العدول عن استخدام الكلمةالمُستخدمة في سورة هود نفسها ، في سورة يوسف،او العكس ؟ الا يدلّ هذا على اللامبالاة، وعدم التنظيم والدقة..؟

وترجم آربري ايضاً، كلمة (الباساء) في الآية (١٧٧) من سورة البقرة مثلاً بـ (fortitude)..! في حين ترجم كلمة (البأس) في نفس الآية بكلمتين ، هما (hardship and peril)..!

وترجم هو نفسه ، كلمة (البائِس)[٢٦] بـ (poor)! وترجم كلمة(بئس)[٢٧] بـ(evil) .وترجم بيكثال كلمة (تبتئس) في سورة هود مثلما ترجمها (آربري) ،ولكنه خالفه في ترجمتها في سورة يوسف ،حيث ترجمها بـ (sorrow)..! وترجم (الباساء) بـ(tribulation)،وترجم (البأس) في (وحين البأس) في نفس الآية بـ(stress)..!

وترجم بيكثال (البائِس)بـ(unfortunate) بينما عبّر عن (poor) التي استخدمها آربري لتمثل كلمة (البائس) ،بـ (الفقير) ..! واتفق بيكثال مع آربري في ترجمة(بئس) بـ (evil)..! والاصحّ استخدام كلمة (despair)من بين كل هذه الالفاظ.

فصل:البارىء، نَبرأها ، بَرِيء

برا : خَلَقَ الخَلقَ لا عن مثال[٢٨] .

وأصل البُرء والبَراء والتَّبرّي، هو التّفَصّي مِمّا يُكرَه مجاورته [٢٩] . وبَرِئَ من الشيء -كَعَلِمَ- يبرأ بروءاً وبراءة : قطع مابينه وبينه.[٣٠]

وردت كثيراً في القرآن الكريم، وبصيغ مختلفة .

ترجم آربري (نبراها) [٣١] بـ(ecreat) بينما ترجم كلمة (خَلَقَ)[٣٢] بـ (create) ايضاً ...! وترجم (البارئ)[٣٣](maker) وترجم (الخالق)

فى الآية نفسها بـ(creator)...! وترجم (البريّ)[٣٤] بـ(quit) وترجم (بريئاً) فى الآيـة(١١٣) مـن سـورة النسـاء بـ(innocent)...! ياللعجب!

وترجم بيكثال (نبرأها) بـ (bring it into being) اي (نخرجها للوجود..!)

وترجم (البـاريء) بـ (shaper)..! و(البريّ) و (بريئاً) بـ(innocent).

والأصحّ هي ترجمة بيكثال لـ(الباريّ) الا انه اخطأ في ترجمته لـ (يَبرا) و (البريّ) وكان عليه اشتقاق كلمة (يبرا) و (البريّ) من الجذر (shape) او استخدام كلمة اخرى هي (quit).

فصل: بُروج ، التَّبَرُّج ...

البروج : القصور ، الواحد بُرج وبه سُمّيَ بروج النجوم لمنازلها المختصّة بها... وثوب مُبَرّج صُوِّرَت عليه بُروج فاعتُبِرَ حُسنُهُ فقيلَ تبرّجَت المرأة ، اى تشبّهت به فى اِظهار المحاسِن.[٣٥]

وردت بصيغتها الاولى (٤) مرات فى القرآن الكريم وبصيغتها الثانية (٣) مرات .

ترجم آربري (بروج)[٣٦] بـ(constellation) ، بينما ترجمها بيكثال بـ(masions of the stars) اى (منازل النجوم) . وترجم آربري (التبرّج) بـ(finery)[٣٧] وتعنى (ملابس او حلى مُبهرَجة ...!) فى حين ترجم الفعل فى الآية نفسها بـ (display)...! و ثبت بيكثال على ترجمة الفعل والاسم فى هذه الآية قائلاً عن (التبرّج) بـ (bedizement) وعن الفعل (تَبَرّجنَ) بـ (bedizen)..

لكن الأصحّ من كل هذه المفردات هي (maison) لأنها تلائم البروج، والتبرُّج، والاخيرة مأخوذة و مشتقة من الاولى.

فصل : الباطِن ، بِطانة ، بَطن...

وردت كثيراً فى القرآن الكريم .

ترجم آربري (الباطِن) [٣٨] وهو اسم من ا سماء الله الحسنى بـ (Inward) و (بِطانة) [٣٩] وتعنى (مختصاً بالاطلاع على باطن امرك)[٤٠] بـ (intimates) و(بَطن)[٤١] بـ (hollow) واتّبَعَ بيكثال صاحبه فى الكلمتين الاوليين ، بينما ترجم (بطن) بـ (valley) وتعنى بالتحديد (وادى الجبل)..!

والأصحّ استخدام كلمة (intimate).

فصل :بَعَثَ ،البَعث ، مَبعوثين...

وردت كثيراً فى القرآن الكريم .

ترجم آربري (بَعَثَ) [٤٢] بـ (sent forth) و (البَعث)[٤٣] بـ(Uprising)

و(مَبعوثين)[44] بـــ {raised} وهى فعـل و(المبعوثين) اسـم..!

وتـــرجـم بيكثـــال (البعـث) بـــــ {Resurrection} واتفق مع آربـرى فى ترجمة البقية.

والاصحّ استخدام كلمة {send} بدل هذه المفردات.

فصل :تَثريب

الثَّرب :شحـم رقيـق يغشـي الكـرش والامعـاء ، وكـذلك الشحـم المبسـوط على الامعاء والمصاريـن .لاتثريب عليكم : اي لا إفساد عليكم، وهو من الثـرب كالشَّغف من الشِغاف.[45]

وردت مرة واحـدة فى الآيـة (٩٢) من سورة يوسف .

تـرجمها آربـــرى بـــ {reproach} وتـرجمهـــا بيكثـال بـــ {fear} وتعنـــى (الخوف،الهلع)...! وترجمـة آربري ادقُّ من ترجمة بيكثال.

فصل : الأجداث

الجَدَث :القبر ، وقيل الجَدَف بالفاء[46]

وردت ثلاث مرات فى القرآن الكريم ،

ترجمها بيكثال بـــ {grave} وترجم (القبر) [47] بـ {grave} ايضاً . وصمـد آربـرى فتـرجم (الاجـداث) بـــ {tombs} و(القبر)بـــ {grave} والاصحّ ان تتـرجم كلمـة (القبر) بـــ {grave} والجـدث بـــ {tomb} وهو ما فعله آربري.

فصل : يَحبُرُوْن ، الأحبار ...

الحِبـر ، الاثـر المُستَحسَن، وشـاعـر مُحَبِّـر وشِعر مُحَبَّـر وَثَوب حَبِيـر مُحَسَّن ، وحُبِرَ فلان بَقِيَ بِجلدِه أثَر من قَرح . والحَبرُ العـالِم وجَمعُـهُ أحبـار ، لِمـا بَقِـيَ من أثـر عُلُومِهم فـى قلوب الناس ومن آثـار افعالهم الحسنة المُقتَدى بها . والى هذا اشـار امير المؤمنين(ع) بقـوله : العلماء باقـون مابَقِيَ الدَّهر، اعيانُهُم مفقـودة وآثارهم فى القلوب موجودة.[48]

وردت فـى القـرآن الكـريـم بصيغها المختلفة (٦) مرات .

تـرجـم آربـرى (يَحبُـرُون) [49] بـــ {walk او walking with joy} وتعنى حرفياً(يمشـون بمرح او ابتهاج او سعاده او فـــرح...) ..! وكيف عَلِمتَ أن المقصـــود بــــ(يُحبَرون) هو (المشـى بمرح وابتهـاج وسعاده وفرح... الخ)؟

على كـل حـال ، تـرجمهـا بيكثـال بـــ {they will be made happy}..! بمعنى (انهم سيُسعَدون ...!)

وتـرجـم آربـرى وبيكثـال كـلاهمـا

(الاحبار)[٥٠] بـ{rabbis}..! علـى أنّ (يَحبُرُون) و (الاحبار) يجب ان تترجما بدقّة اكبر.

فصل: خَرَجَ ، مَخرَجاً ...

وردت كثيراً فى القرآن الكريم .

ترجم آربرى كلمة (خـرَجَ)[٥١] بـ{came} بينما ترجم (مخـرجاً) [٥٢] بـ {easiness}، ولا اعـرف كيف اشتـقّ { came} من { easiness} ..!

وترجم بيكثال (مخرجاً) بـ {way}..! في حين يمكن ترجمة (خرج) بـ { exit }ثم اشتقاق (مَخرَجاً) منها.

فصل: خَلَصوا، مُخلصاً...

وردت كثيراً فى القرآن الكريم .

ترجم آربرى (خَلَصـوا)[٥٣] بـ{conferred} فـى حيـن تـرجم (مُخلِصاً)[٥٤] بـ {devoted}..! وترجم بيكثال(مخلِصاً) بـ {chosen}. وهذه الاخيرة هي الاصحّ.

فصل: دابّة ، الدّواب

الـدَّبُّ والـدَّبيب، مشي خفيف[٥٥] والدّابّـة : اسم لِما دبَّ من الحيوان ، مُمَيِّزة وغير مميزة[٥٦]، جمعها دوابّ .

وردت(٨١) مرة فى القرآن الكريم بهاتين الصّيغتين .

ترجم آربرى (دابّة) [٥٧] بـ{crawling thing} اي (الشيء الزّاحف..!). بينما ترجم (الدّواب)[٥٨] وهى جمع (الدابّة) بـ {beasts} اي (بهيمة، حيوان..!).

فى حين ترجم بيكثال الكلمتين بـ {beast}. والاصحّ من بين ذلك هو {crawling thing} وليس {crawler} كما قال آربري.

فصل : دَخَلَ ، دَخَلاً ...

وردت كثيرا فى القرآن الكريم .

ترجم آربرى (دَخَلَ) [٥٩] بـ {went in} بينما ترجم (دَخَلاً)[٦٠] بـ {as mere mutual deceit} وتعني (مجرد خداع مشترك)..!

فى حين اكتفى بيكثال بترجمة (دَخَلاً) بـ {deceit} فقط. وكلتا الترجمتين خاطئتان، والاصحّ هي كلمة {enter}.

فصل : دَنَا ، الدُّنيا ...

وردت كثيرا فى القرآن الكريم .

ترجم آربرى (دنا)[٦١] بـ {drew near} بينما ترجم (الـدنيا)[٦٢] بـ {world}..!

وتـرجم بيكثـال (دنـا) بـ{drew nigh} وترجم (الدنيا) بـ{world} ايضـاً. والاصحّ من بين ذلك هو {approacher}.

فصل: الذّاريات ، ذَرواً ..

وردت (٣) مـرات فى القـرآن الكـريم .تـرجـم آربـرى (الـذاريـات)[٦٣] بـ{scatterers}..! بينمـا ضـاعـت كلمـة (ذرواً) فى ترجمتـه لهذه الكلمة المـوجودة فى الآية نفسها: ﴿والذاريات ذرواً﴾...!

فى حيـن استقـرّ بيكثـال على منـوال واحـد فى تـرجمتـه لهـاتيـن الكلمتيـن قائلاً{winnow} لتـرجمة (الـذاريـات) و{winnowing} لتـرجمـة (ذرواً). وهنـا كانت ترجمة بيكثال أدق من آربري.

فصل: الرَّب ، رَبائِب

الرّب فى الاصل التربية والإنشاء ، ولا يُقـال الـرَّبُّ مطلقاً إلاّ للـه تعـالـى المُتَكَفِّل بمصلحة المـرجودات . والـرَّبيب والـرَّبيبة بذلك،الوَلَد[٦٤]

وردت (الرَّبُّ) كثيرا فى القرآن الكريم ، وورد (الـرَّبـائب)مـرة واحـدة فيـه ، فى الآية(٢٣) من سورة النسـاء .

تـرجم آربرى وبيكثـال كلمة (الـرب) بـ{Lord} فى حين ترجما كلمة (الربائب) بـ {step-daughters} والاصـحّ هـي كلمة{sustainer} لتـرجمـة (الـربّ) و {sustained}لترجمة (ربائب).

فصل: سَجَدَ ، مَسجِد ..

وردت كثيراً فى القرآن الكريم .

تـرجـم آربـرى وبيكثـال الفعـل (سَجَدَ)[٦٥] بـ {bow} فى حيـن ترجمهـا (مَسجِد)[٦٦] بـ {mosque}..! والاصـحّ ترجمة مسجد بـ {bow-place}.

فصل :سَحَبَ ، السَّحاب ...

أصل السَّحب ، الجَرّ ...ومنـه السَّحاب إمّا لِجَرِّ الرّيح له او لِجَرِّهِ الماء او لإنجراره فى مرِّهِ .[٦٧]

وردت الصيغتان ما يقـارب (١١)مرة فى القرآن الكريم .

تـرجم آربـرى و بيكثـال (سَحَبَ)[٦٨] بـ{drag}، فى حين ترجمـا (السَّحاب)[٦٩] بـ {clouds}..! والاصـحّ فـي تـرجمـة (سَحَبَ) هي {draw} واشتقاق (السحاب) منها.

فصل : شَهِدَ ،شَهيد ...

وردت كثيرا فى القرآن الكريم وبصيغ مختلفة.

ترجم آربري كلمة (شَهِدَ)[٧٠] بـ (who are present)..! بينما ترجم (شَهِيد)[٧١] بـ (witness) والغلط في ترجمة مُشتقّات (شَهِدَ) كثير لدى معظم المترجمين ان لم يكن جميعهم .

وفعل بيكثال الشيء نفسه في ترجمة هاتين الكلمتين. والاصحّ في ترجمة (شَهِدَ) ومشتقاتها هي كلمة (testimony).

فصل :أصبَحَ ،الصُّبحُ ،مِصباح.

الصُّبحُ والصَّباحُ: أول النهار[٧٢]، وأصبحَ القَومُ ،دخلوا في الصّباح ، كما يُقال أمسوا ،اذا دخلوا في المساء، وصَبَّحتُهُ اي قلتُ له : عِم صَباحاً . والمِصباح : السِّراج ، وهو قُرطُهُ الذي تراه في القنديل وغيره[٧٣]

وردت كثيراً في القرآن الكريم.

ترجم آربري وبيكثال ومُعظم ،بل جُلُّ المترجمين ، كلمة (اصبح)[٧٤] بـ (became). وترجما (الصُّبح)[٧٥] بـ (morning).

و(المِصباح)[٧٦] تُرجِمَت من قِبَلِهِما بـ (lamp)..! بينما الاصحّ هو اشتقاق الكلمات الثلاث من كلمة (morning).

فصل : صاحِبُ ،صاحِبَة ...

وردت كثيراً في القرآن الكريم .

ترجم آربري (الصّاحِب)[٧٧] بـ (companion) بينما ترجمها بيكثال بـ (fellow-traveller). وترجم آربري كلمة (صاحِبة)[٧٨] بـ (consort) وكذا فعل بيكثال في حين لاتختلف كلمة(صاحب) عن (صاحبة) الا في كون الاخيرة مؤنثة. والاصحّ في ترجمة الفعل (صاحَبَ) والاسم (صاحب) هي كلمة (accompany).

فصل : ضِغث ، أضغاث

الضِّغث ، قبضةُ ريحان أو حشيش أوقُضبان، وجمعُه اضغاث[٧٩]

وردت (٣) مرات في القرآن الكريم .

ترجم آربري(ضِغثاً)[٨٠] بـ (a bundle of rushes) بينما ترجم (اضغاث)[٨١] بـ (ahotchpotch)..! هكذا جَمَعَ آربري كلمة (ضِغث)..!

في حين ترجم بيكثال (ضِغثاً) بـ (abranch) وترجم (اضغاث) بـ (jumbled)..! والاصحّ هو استخدام كلمة (fascicle).

فصل: طَغَى ، الطّاغِيَة..

طَغَى يَطغى طَغياً ويَطغو طُغياناً ،جاوزَ القَدرَ وارتفع وعَلا . والطاغية: اسم كالعاقبة والعافية.[٨٢]

وردت كثيراً في القرآن الكريم .

ووردت كلمة (الطاغية) مرة واحدة فيه [٨٣]

ترجم آربري كلمة (طَغى) [٨٤] بـ (waxed insolent) ..! وترجمها بيكثال بـ (transgressed [the bounds]) ..! وتُرجِمَت (الطاغية) من قِبَلِ آربري بـ (Screamer) بينما ترجمها بيكثال بـ (lightning) ..! والاصحّ هي كلمة (transgress) بدون زيادة.

فصل: طلَعَ، طلعُ...

طَلعُ النَّخل، ماطلَعَ منها ، ونَورُ النَّخلة مادام في الكافور ، الواحدة طَلعَة. وطلَعَ النَّخل طلُوعاً واطلَعَ:اخرَجَ طَلعَهُ [٨٥]

وردت كثيراً في القرآن الكريم .

ترجم آربري (طلَعَ) [٨٦] بـ (rose) بينما ترجم (طَلعُ) بـ (spathes) ! وترجم بيكثال (طَلعُ) بـ (clusters) ..! والاصحّ لترجمة (طلَعَ) و (طَلع) هي كلمة (emerge)

فصل : يَطير ، طائِر ...

وردت كثيراً في القرآن الكريم .

ترجم آربري (يَطير) [٨٧] بـ (flying) في حين ترجم (طائِر) في الآية نفسها بـ (bird) ..! واعتدل بيكثال في ترجمة (يطير و طائر) في الآية نفسها مع اضافة وزيادة ، فقال (a flying creature) فـ (flying) وتعني (creature) (مَخلوق) هي زائدة تماماً على النَّص . ولو كان حَوَّر في الجذر (FLY) لاشتقاق كلمة (طائِر) لكانت ترجمته افضل .

فصل: العَبد ، العِبادَة...

وردت كثيراً في القرآن الكريم .

ترجم آربري كلمة (العَبد) [٨٨] بـ (slave) بينما ترجم (العِبادَة) في نفس الآية بـ (to serve) وهي فعل ..! في حين ترجم بيكثال (العِبادَة) بـ (service) وهي وإن كانت غير دقيقة الاّ انّها افضل من ترجمة آربري على اية حال على اعتبار الفعل منها هو (serve)

فصل: عَلَقَة ، المُعلَّقَة ...

العَلَق:التَّشَبّث بالشيء ،والعَلَق دُود يَتَعَلَّق بالحَلق ، والدَّمُ الجامد ،ومنه العَلَقَةالتي يكون منها الوَلَد [٨٩] .ومن التَّعليق قالوا : المُعَلَّقَة من النساء :التي هي لاأيِّم ولاذات بَعل.[٩٠]

ترجم آربري (عَلَقَة)في الآية (٢) من سورة العلق بـ (blood-clot) بينما ترجم (المُعَلَّقَة) في سورة النساء آية (١٢٩) بـ (suspended) وتَبِعَهُ بيكثال

فى ذلك. وكلمة (suspend) هي الاصحّ لترجمة (العَلَقَة) و (المُعَلّقة).

فصل:أقبرَ،قَبرُ...

وردت كثيراً فى القرآن الكريم.

ترجم آربرى (اقبَرَ) [٩١] بـ (buries) هكذا بصيغة المضارع ...! وترجم (قَبر) [٩٢] بـ (grave)..! وتبعه بيكثال فى ذلك. والاصحّ ترجمة (أَقبَرَ) بـ (grave) ايضاً لانها من الجذر نفسه. (راجع كلمة - أجداث - هنا).

فصل:كَتَبَ،الكِتاب...

وردت كثيراًفى القرآن الكريم وبصيغ مختلفة.

هذه الاشتقاقات كذلك موضوع اختلاف واشتباه جُلّ المترجمين.

فقد ترجم آربرى (كَتَبَ) [٩٣] بـ (prescribed) وترجم (الكِتاب) بـ (book)..!

فى حين ترجم بيكثال (كَتَبَ) بـ (ordained) و(الكِتاب) بـ (Scripture)..! على ان الاصحّ ان تترجم كلمة (كَتَبَ) بـ (write) واشتقاق كلمة (الكتاب) منها.

* * *

فصل: لامَ، يَلُوم، اللّوّامَة...

اللّوّام :مُبالغة فى لائِم،فهو:من يشتَدُّ فى لومه،اومن يُكثِر اللّوم.وهى لَوّامَة [٩٤]

وردت كثيراً فى القرآن الكريم ،ووردت (اللّوّامة) بصيغتها هذه،مرةواحدة [٩٥]

ترجم آربرى وبيكثال كلمة(لامَ) [٩٦] بـ (blame) بينما تُرجِمَت (اللّوّامة) من قِبَلِ آربرى بـ (reproachful) ومن قِبَلَ بيكثال بـ (accusing)..! و الاصحّ هي كلمة (blame).

فصل: مَلَكَ ، مُلك...

وردت كثيرا فى القرآن الكريم .

ترجم آربرى (مَلَكَ) [٩٧] بـ (rule) وترجم (مُلك) [٩٨] بـ (Kingdom)..! بينما ترجم بيكثال (مَلَكَ) بـ (control) وتَبِعَ آربرى فى ترجمته لـ(مُلك)..! والاصحّ اختيار الجذر (dominate) لترجمة مشتقات (مَلَكَ).

فصل: الوَزن ، المِيزان ...

وردت كثيرا فى القرآن الكريم .

ترجم آربرى (الوَزن) [٩٩] بـ (weighting) بينما ترجم (الميزان) [١٠٠] بـ (balance). فى حين ترجم بيكثال (الوزن) بـ (weighting) و

(الميزان) بـ (weight) وهي ، وإن لم تكن دقيقة ، فقد رَجَحَت كفّتها على ترجمة آربري.

* * *

كان ذلك غيضاً من فيض... وقطرة من بحر المغالطات والتحريف والافتراء الذي تولّى كبره ومايزال، المستشرقون في بحوثهم ودراساتهم، كل ذلك تحت غطاء المنهجية والموضوعية... والعلمية!!

ويبقى الحديث طويلاً، في هذا الاتجاه، وبحاجة الى الجهود الحثيثة التي تنفض الغبار... وتفضح هذا النهج المعادي للاسلام... وأهله.

الهوامش

(١)- George Allen & Unwin (Publishers) Ltd, United Kingdom - 1980
جدير بالذكر هنا أن العلماء سواء كانوا مسلمين او مسيحيين او غيرهم يتذرّعون قائلين ، ان كتاب آربرى لايقصد منه ترجمة القرآن الكريم بل تفسيره كما هو واضح من عنوان كتابه (القرآن المفسّر) ، لذا فلا يجب انتقاده على انه ترجمة . وهذا في الحقيقة ادهى وأمرّ ، فهل يُفسّر آربرى الانجليزى - لنا نحن المسلمين - القرآن الكريم ، ونحن الوارثون الشرعيون لهذا الكتاب العظيم ، أم قصد ان يُفسره لاخوانه وبني عمومته ؟ فاذا كان يُفسر القرآن لنا ، فنحن اغنى من ان يُفسّر لنا كتابنا ، فلدينا مفسرونا ومحدثونا وعلماؤنا وكتّابنا ، ومن ائمتنا اخذ هؤلاء علومهم وفقههم سواء كان ذلك مايخصّ القرآن او غيره ولسنا نحتاج الى من يفسره لنا ، خصوصاً اذا كان اجنبياً لايفهم العربية او القرآن كما فهمناهما نحن عن ائمتنا وعلمائنا الاشراف الذين لاهمّ لهم مذ نزل الوحي على الرسول الكريم(ص) الاّ تفسيره وشرحه واستنباط الاحكام والشرائع ، والاستفادة منها واشربوا العلم قبل أن يعرف الاوربيون وغيرهم معنى العلم والمعرفة، ، ولاداعي للاطناب في ذلك لانه واضح كالشمس ، والغرب والشرق يعلم ذلك وان تجاهله . واما اذا كان مرادُ آربري وغيره أن يفسر القرآن لاخوانه وبني عمومته كما ذكرنا ، فكان الاحرى أن يترجم لا أن يفسره ، لانه لو كان ترجمه بصورة دقيقة وامينة لكانت الاستفادة منه اعظم واعمّ ، ولما وقع في اخطاء واغلاط لااظنه يرغب في معرفتها فتزول ثقته بنفسه . امّا ان يُفسره ،فتلك طريق وعرة صعبة يتيه فيها حتى علماء المسلمين في بعض الاحيان ، ذلك لان تفسير الكتاب وتأويله هو من اختصاص الباريْ عزّوجلّ كما ذكر ذلك في محكم كتابه قائلاً :« ومايعلم تاويله الاّ الله ».لذا فانّ ادّعاء البعض من ان نقد كتاب آربرى غير جائز ، مرفوض ، ذلك لان آربرى قَصَدَ ترجمة القرآن لاتفسيره كما عنون كتابه ، وان عنوان الكتاب انما هو تغطية لعجزه وقصوره في ترجمة القرآن الكريم ، وذلك واضح وجليّ في طريقة سبكه وترتيب جمله واختيار الفاظه مما يدلّ على انه اراد ترجمته لاتفسيره ومما لايجب ان يتوهّم به كل لبيب وحصيف.

(٢)- George Allen & Unwin (Publishers)Ltd, England - 1979 .

(٣)- ٩٥/٢ : ٥٧/٤

(٤)- ١٤٠/٣٧

(٥)- ٣٩/٢٧ - ٤٠ .

(٦)- لسان العرب .

(٧)- الراغب الاصفهاني .

(٨)- الآية (١٦) سورة النبا .

(٩)- ٢/٢٠٣، ٢/٢٠٦ ...الخ .

(١٠)- ٢/٢٧٦

(١١)- مثلاً ١٤/٣٦

(١٢)- ٣٥/١١

(١٣)- ٢/٦

(١٤)- ١٢٨/٦

(١٥)- ١٠٢/٢

(١٦)- ١/١١٢ـ٤

(١٧)- ٧/٨

(١٨)- ٦١/٢

(١٩)- ١١/٧٤

(٢٠)- الراغب الاصفهانى.

(٢١)- ١٨/٢٠ ؛ ٣١/٢٤

(٢٢)- الراغب الاصفهانى .

(٢٣)- ١٨/٤٠ ؛ ٥٧/٥٣

(٢٤)- ٥٧/٥٣

(٢٥)- الراغب الاصفهانى .

(٢٦)- ٢٨/٢٢

(٢٧)- مثلاً فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة .

(٢٨)- لسان العرب .

(٢٩)- الراغب الاصفهانى .

(٣٠)- معجم الفاظ القرآن الكريم ، ج١ ، مجمع اللغة العربية - القاهرة ط٢ سنة ١٩٧٠.

(٣١)- ٢٢/٥٧

(٣٢)- الآية (١) من سورة العلق وغيرها .

(٣٣)- ٢٤/٥٩

(٣٤)- مثلاً الآية (١٩) من سورة الانعام .

(٣٥)- الراغب الاصفهانى .

(٣٦)- مثلاً الآية (١) من سورة البروج .

(٣٧)- الاحزاب / ٣٣ .

(٣٨)- ٣/٥٧

(٣٩)- ١١٨/٣

(٤٠)- الراغب الاصفهانى .

(٤١)- ٢٤/٤٨

(٤٢)- ٢١٣/٢

(٤٣)- ٥/٢٢

(٤٤)- ٢٩/٦

(٤٥)- لسان العرب .

(٤٦)- لسان العرب والراغب الاصفهانى .

(٤٧)- مثلاً ٨٤/٩

(٤٨)- الراغب الاصفهانى .

(٤٩)- ١٥/٣٠ ؛ ٧٠/٤٣

(٥٠)- ٦٣،٤٤/٥ ؛ ٩/ ٣١، ٣٤ .

(٥١)- مثلاً ١١/١٩

(٥٢)- ٢/٦٥

(٥٣)- ٨٠/١٢

(٥٤)- مثلاً ٥١/١٩

(٥٥)- الراغب الاصفهانى .

(٥٦)- لسان العرب .

(٥٧)- مثلاً ١٦٤/٢

(٥٨)- مثلاً ٢٢/٨

(٥٩)- مثلاً ٣٧/٣

(٦٠)- ٩٢/١٦ - ٩٤

(٦١)- ٨/٥٣

(٦٢)- ٨٥/٢

(٦٣)- ١/٥١

(٦٤)- الراغب الاصفهانى .

(٦٥)- مثلاً ٣٠/١٥

(٦٦)- ١٤٤/٢

(٦٧)- الراغب الاصفهانى .

(٦٨)- مثلاً ٧١/٤٠

(٦٩)- مثلاً ١٦٤/٢

(٧٠)- مثلاً ١٨٥/٢

(٧١)- مثلاً ٢٨٢/٢

(٧٢)- الراغب الاصفهانى .

(٧٣)– لسان العرب .
(٧٤)– مثلاً ٥/ ٣٠
(٧٥)– مثلاً ١١/ ٨١
(٧٦)– مثلاً ٢٤/ ٣٥
(٧٧)– مثلاً ٤/ ٣٦
(٧٨)– مثلاً ٦/ ١٠١
(٧٩)– الراغب الاصفهانى .
(٨٠)– ٣٨/ ٤٤
(٨١)– مثلاً ١٢/ ٤٤
(٨٢)– لسان العرب .
(٨٣)– ٦٩/ ٥
(٨٤)– مثلاً ٢٠/ ٢٤
(٨٥)– الراغب الاصفهانى .
(٨٦)– ١٨/ ١٧
(٨٧)– ٦/ ٣٨
(٨٨)– مثلاً ٤/ ١٧٢
(٨٩)– الراغب الاصفهانى .
(٩٠)– معجم الفاظ القرآن الكريم جـ٢
(٩١)– ٨٠/ ٢١
(٩٢)– مثلاً ٢/ ١٧٨
(٩٣)– مثلاً ٢/ ٢
(٩٤)– معجم الفاظ القرآن الكريم جـ٢
(٩٥)– ٧٥/ ٢
(٩٦)– ١٤/ ٢٢
(٩٧)– مثلاً ٥/ ٢٥
(٩٨)– مثلاً ٢/ ١٠٢
(٩٩)– مثلا ٧/ ٨
(١٠٠)– ٦/ ١٥٢

المصادر

إعتُمِدَ في اخراج هذا البحث على معظم المصادر الموجودة في مكتبة دارالقرآن الكريم، مدرسة آية الله العظمى الكلبايكاني(قده) وهي كثيرة لايمكن احصائها وادراجها في مجال ضيّق كهذا.

* * *

آيات علم الله بين التفسير والكلام

عبدالرزاق حرز الدين

ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي يشكل فيها المعنى على قارئها، والسبيل الى تأويلها، فكانت محلّ جدلٍ بين المفسرين والمتكلمين والفلاسفه، ومن هذه الآيات آيات علم الله، وفيما يلي عرض لبعض منها:

١ ـ قوله تعالى ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتّبع الرسول﴾.(١)

٢ ـ قوله تعالى ﴿ولنبلوَنّكم حتى نعلَمَ المجاهدين منكم و الصابرين﴾.(٢)

٣ ـ قوله تعالى ﴿ثم بعثناهم لنعلَمَ ايُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أَمَداً﴾.(٣)

٤ ـ قوله تعالى ﴿وما اصابكم يومَ التقى الجمعان فبإذن اللّه وليعلمَ المؤمنين﴾.(٤)

ونتساءل كيف قال تعالى «لنعلم» «حتى نعلم» واللّه تعالى يعلم الشيء قبل وقوعه ولم يزل عالماً والآيات هذه تشعرنا بحدوث علمه تعالى في المستقبل، فالآية الاولى تدلّ في ظاهرها على انّ اللّه يريد ان يَعلَمَ المسلمين الذين يتّبعون النبي(ص) في التوجه الى القبلة الجديدة وهي الكعبه، والآية الثانية تدلّ في ظاهرها ايضاً على انّ اللّه يريد ان يَعلَمَ المجاهدين والصابرين من المسلمين حال الابتلاء، وكذلك الآية الثالثة يوحي ظاهرها على ان اللّه يريد ان يعلم أيّ الحزبين من المؤمنين والكافرين من قوم اصحاب الكهف عدّ مُدّةَ لبثهم في الكهف..الخ.

من هنا وقع الخلاف بين علماء الكلام والفلاسفة ـ وتأثر بآرائهم الكثير من المفسرين ـ في توجيه هذه الآية والمراد

منهـا، ويدور خـلافهم حـول اسنـاد الفعل «نعلم» وعدم اسنـاده الى اللّه تعـالى، وقدّم كل فـريق ادلّته فيمـا ذهب اليه، وفيمـا يلي عرض لما قاله كل فريق: ـ

الأول: وهـم المفسـرون، فقـد ذكـروا الكثير من الاقوال في تفيسر هذه الآيات وما دلّت عليه من معنى، وهذه هي بعض اقوالهم:ـ

١ ـ «ان المـراد: ليعلـم الـرسـول والمؤمنون»[٥]، وانما اسند تعالى علمهم الى ذاته لانهـم اولياؤه، «وكان من شـأن العرب اضـافـة مـا فعلتـه اتبـاع الـرئيس الـى رئيسهم»[٦] «كما يقول الملك فتحنـا بلد كذا أو فعلنا كذا، اي فتح اولياؤنا.»[٧]

٢ ـ «لنميّـزَ اهـل اليقيـن مـن اهـل الشك»[٨]. «وليظهـر الطـائع والعـاصـي و يتميّز لدى الناس كلّ بمـا هو فيه وعليه»[٩]. «كقولـه تعالى ﴿لِيَميـزَ اللّهُ الخبيـثَ من الطيّب﴾ فـوضـع العلـم مـوضـع التمييـز المسبب عنه، ويشـهد لـه قراءة «ليُعلَمَ» على البناء للمفعول.»[١٠]

٣ ـ «إنّ معنى «لنعلم» اي لنرى، والعرب تضع العلم ومكـان الرؤيـة، والرؤيـة مكان العلم. كقوله تعالى ﴿أَلَم تَرَ كَيـفَ فَعَلَ ربكَ بعاد﴾ بمعنى الـم تعلم.»[١١] وهذا القـول لايحلّ الاشكـال، لان رؤيـة اللّه لشـيء هي علمه به وادركه لـه. والرؤية والبصر بمعنى العلم الخاص والعلم بالمرئيات والمبصرات.

٤ ـ انّ المراد من قوله تعالى «لنعلم» اي «ليشتـرك العلـم بينـي وبين الـرسـول والمؤمنين»[١٢] «ولايحصل علمه تعـالى مع علم غيره الا بعـد حصول الاتباع، فـأما قبل حصوله فيكون القديـم سبحانه هو المنفرد بالعلم به، وصحّ ظاهر الآية.»[١٣]

ويرد على هذا القول بـان «تشريك اللّه تعـالـى مع غيـره فـي ضميـر واحـد غيـر مناسب، ومخـالفته [هذا القـول] مع جعلنا [في قوله تعالى «وماجعلنا القبله»] آبِ عنه.»[١٤]

الثاني: ـ وهـم الفلاسفه، فقـد اسندوا الفعل «نعلم» الى اللّه تعالى، وذهبوا الى «أنّ علم اللّه بالنسبـة الى الحادث على قسمين: علم بـالحادث قبـل ايجاده، وهـو في عـالم الغيب، وعلم بالحادث بعـد ايجاده، وهو في عـالم الشهاده، والمـراد بالعلـم ـ في هـذه الآيات ـ هو القسم الثاني دون الأول، اي انّ اللّه يريد ان يعلم بـالحادث حال وجوده كما علم به حـال عدمه»[١٥]. «اذ لايصح وصفـه تعـالى بـانـه عـالم بـوجـود المعلـوم قبل وجوده»[١٦] وهذه هي بعض النصوص التي

ذكرها المفسرون والتي تدل على ذلك الرأي الفلسفي لمعنى العلم:

١ ـ ليحصل المعلوم موجوداً.[١٧]

٢ ـ ليتعلّق علمنا به موجوداً بالفعل فالعلم مقيّد بالحادث.[١٩]

٣ ـ العلم العيني الفعلي منه تعالى الحاصل مع الخلق والايجاد دون العلم قبل الايجاد.[١٩]

٤ ـ لنعلمه واقعاً اذ علمه قديم.[٢٠]

٥ ـ لنعلم ذلك منه وجوداً بعد ان علمناه سيوجد.[٢١]

٦ ـ ان يعلمه موجوداً حاصلاً.[٢٢]

الثالث: ـ وأنكر المتكلمون على الفلاسفة تجزئة علم الله الى قبل وبعد الايجاد، «فكل هذا تحذلق ولعب بالالفاظ، فان علم الله واحد، وعالَمُ الغيب بالنسبة اليه تماماً كعالَمِ الشهادة»[٢٣]، «لان نسبة الواجب تعالى وتقدّس الى زمان عدم الحادث هو عين نسبته الى زمان وجود ذلك الحادث، و التقدّم و التأخر في اجزاء ذلك الزمان»(٢٤). «ولأن الاختلاف بحسب الأزمنة كالاختلاف بحسب الامكنة، فكما أن اختلاف الامكنة لايوجب اختلاف النسبه ـ القبلية والبعدية ـ كذلك الاختلاف بحسب الازمنة».[٢٥] «فعلمه تعالى يتعلق بكل معلوم حادثاً او قديماً قبل وقوعه او بعده لتساوي نسبة جميع المعلومات اليه».[٢٦]

ويمكن ان يكون تفسيرهم ـ المتكلمين ـ لهذه الآيات هكذا: اي ليقع علمنا الأزلي على المعلوم بعد وقوعه، فالعلم واحد لكن المعلوم زمانه مختلف، ويظهر الفرق بالنسبة للناس فانهم يطّلعون على ذلك.

النتيجة:

والحق في هذه الآيات أنّ كلّ ما يدلّ على حصول العلم بصيغة المستقبل وتعلقه بالاشياء ـ والامور غير الموجودة فعلاً وانما ستوجد مستقبلاً ـ هو بمعنى ظهور علمه تعالى بها للمخاطبين ـ النبي(ص) و غيره ـ و ان هذا الظهور يكون في المستقبل. واما علمه تعالى بها فهو ثابت منذ الأزل والى الأبد، وليس هناك تجدّد في علمه تعالى. وهذا التعبير متعارف عليه في العربية، كما يقال في التعبير عن ثبوت مُختَلَف فيه مشكوك للبعض، ولكنه قطعي للقائل (سوف نعلم) فليس المراد الاخبار عن حصول العلم في المستقبل، بل المراد الاخبار عن الظهور في المستقبل للعلم الثابت.

وعلى هذا فمعنى الآية الأولى: إنّا جعلنا

القبلة ليتبيّن ــ للنبي(ص) ولغيره من المسلمين ـ علمنا من يتّبع الرسول، ومعنى الآية الثانية:أنّ الابتلاء يُظهرُ لكم علمنا بالمجاهدين منكم والصابرين، ومعنى الآية الثالثة: أ نّ البعث يُظهرُ علمنا للناس أيّ الحزبين عدّ أَمَدَ لبثهم في الكهف. ومعنى الآية الرابعة: أنّ ما أصابَ المسلمين يوم احد يُظهرُ لكم علم الله بايمان المؤمنين ونفاق المنافين.

من جهة اخرى، لما كانت معرفة الله تعالى وصفاته هي من أولى الواجبات التي اتّفَقَ عليها علماء الاسلام بكل مذاهبهم وفرقهم، «فيكفي الايمان بالعلم إجمالاً، ولايجب التفكّر في انّه حضوريّ ام حصوليّ ونحو ذلك، بل إنّ الله تعالى يعلم بالاشياء قبل وجودها كعلمه بعد وجودها، لاتخفى عليه خافية»[27]، «ولا يشغله علم عن علم، وعلمه تعالى ضروري الثبوت ممتنع الزوال، لايتغيّر بتغيّر المعلومات ، وغير مستفاد من الحواس ولا من الفكر».[28]

الهوامش

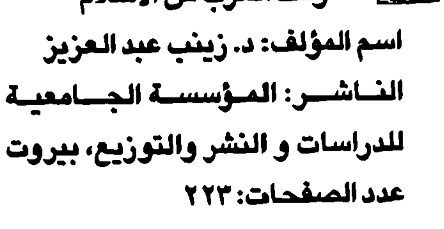
(١) البقره: ١٤٣
(٢) محمد: ٢١
(٣) الكهف: ١٢
(٤) آل عمرآن: ١٦٦
(٥) الآلوسي: ٢:٦، (ط ٤، بيروت) ـ روح المعاني
(٦) ابوجعفر الطبري: ٢: ١١٣، (ط ٢، مصر) ـــ تفسير الطبري
(٧) الطبرسي: ٢: ١٢ ـ مجمع البيان
(٨) القرطبي: ٢: ١٥٦ ـ الجامع لاحكام القرآ ن
(٩) محمد جواد مغنيه: ٢: ٢٢٧ (ط ٢، بيروت) ـ التفسير الكاشف
(١٠) تفسير البيضاوي: ١: ٩٢ (ط ١، بيروت)
(١١) القرطبي: ٢:١٥٦ ـ الجامع لاحكام القرآن
(١٢) الآلوسي: ٢:٦(ط ٤، بيروت) ـ روح المعاني
(١٣) الطبرسي: ٢: ١٢ ــ مجمع البيان
(١٤) الآلوسي: ٢:٦(ط ٤، بيروت)
(١٥) محمد جواد مغنيه: ٢:٢٢٧، (ط ٣، بيروت) ـ التفسير الكاشف
(١٦) الطوسي:٢:٩، التبيان ــ الطبرسي: ٢: ١٢ ـ مجمع البيان
(١٧) نفس المصدرين السابقين
(١٨) الآلوسي: ٢:٦، (ط ٤، بيروت) ــ روح المعاني
(١٩)العلامة الطباطبائي: ١: ٣٢٤، (طبع بيروت) ـ تفسير الميزان
(٢٠) ابن الجوزي: ١: ١٥٥، (ط ١، بيروت) ـ تفسير زاد المسير
(٢١) الفيض الكاشاني: ١: ١٩٨، (طبع بيروت) ـ التفسير الصافي
(٢٢) الزمخشري: ١: ٢٠٠، (ط ١، قم) ـــ التفسير الكشاف
(٢٣) محمد جواد مغنيه: ٢: ٢٢٧، (ط ٣، بيروت) ـ التفسير الكاشف
(٢٤) السيد احمد الخونساري: ٦ـ العقائد الحقه
(٢٥) السيد احمد الخونساري: ٦ـ المصدر نفسه
(٢٦) أبو الفتح الحسيني: ١٠٩ (طبع الاستانة الرضوية) ـ شرح الباب الحادي عشر
(٢٧) حق اليقين ـ عبدالله شبّر
(٢٨) الرازي: ٢٢٣ ـ ٢٢٤ طبع مصر ـ اسماء الله الحسنى

* * *

وقفة مع كتاب العدد

آخر محاولات الاستشراق لتشويه القرآن الكريم

عرض و تقديم: جلال الأنصاري



اسم الكتاب: محاصرة ..وابادة: موقف الغرب من الاسلام

اسم المؤلف: د. زينب عبد العزيز

الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت

عدد الصفحات: ٢٢٣

سنة الطبع: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

د. زينب عبد العزيز

محاصرة..وإبادة

موقف الغرب من الإسلام

* * *

شهدت المرحلة الأخيرة، وتحديداً منذ مطلع القرن الخامس عشر الهجري، نشاطاً ملحوظاً في الاهتمام بالاسلام والعالم الاسلامي. واتخذ هذا الاهتمام أكثر من بعد، بيد أن الغرب استأنف حربه غير المقدسة على الاسلام، ودشن ذلك بعمليات تضليل واسعة للفكر الاسلامي ومصادره الأساسية: القرآن، والسنّة النبوية الشريفة.

ولمّا كان القرآن الكريم كتاب المسلمين الأكبر .. فمن البديهي أن يغدو هدفاً أساسياً لاعداء الاسلام، وهكذا كان القرآن الكريم

عرضة لنقد وتشويه كبيرين، من لدن هؤلاء.
ولقد بدأت هذه الحملات منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري، فأول المهاجمين كان «يوحنا الدمشقي» و «اثينيوس زيجبينوس»، كما نجد «نيستاس البيزنطي» الذي يعد أول مهاجم سجالي منظم حاول نكران القرآن الكريم وقال بزيفه! أما أخطر هؤلاء المعادين فقد كان الامبراطور البيزنطي «يوحنا كانتاكيزن» المتوفى عام ١٣٨٠ م، والذي هاجم الرسول الكريم(ص) وأنكر الوحي.

استمرت عمليات النقد والهجوم البيزنطية الى أن نجح العثمانيون في فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٢م. وبهذا الفتح انتقل العداء للاسلام والقرآن الى اوروبا المسيحية، بدءاً بالكاردينال «نيقولا دي كوزا» (ت:١٤٦٤ م)،ومروراً بـ «دينيس لوشارترو» (ت: ١٤٧١م)، حتى «لودفيكو ماراتشي» (ت:١٧٠٠م) الذي ألف كتاباًمن أربعة أجزاء تناول فيه حياة النبي محمد(ص) معتمداً على المصادر العربية والسريانية والعربية. فقدّم النص العربي للقرآن ثم أعقبه بالترجمة اللاتينية، ثم كتب تعليقاته وشروحه التي تضمنت حملة تجريح ونقد لاذعين. ولقد أصبح هذا العمل الضخم مرجعاً أساسياً لكل الدراسات (العلمية) في اوروبا عن القرآن.

وعلى الرغم من تقادم الزمن، فاننا نجد في أعمال المستشرقين، في القرون التالية، حتى منتصف القرن العشرين، عدداً هائلاً من الأخطاء والحجج الواهية، بل الساذجة ايضاً التي تنم عن عدم معرفة بالقرآن الكريم وباللغة العربية، وبالتالي بالفكر الاسلامي بوجه عام.. والفرق، بين المستشرقين و بين «ماراتشي»، أنهم يدّعون الموضوعية والاكاديمية، ويتفاخرون بسعة اطلاعهم على المصادر، وباستخدامهم للمناهج الصارمة، غير أنّهم جميعاً ـ ومعهم ماراتشي ـ كتبوا من خلال دوافع داخلية خاصة، وحكمت أعمالهم المسبقة، بل ان منهم من كان يحركه حقد متوارث ضد الاسلام مثل: «هيرشفلد، وهورفيتز، وسبوير»، ومنهم من كان جاهلاً باللغة العربية وآدابها و تقنياتها، أو كانت معلوماته ضعيفة لاتؤهله للتفسيروالتأويل والحكم، وآخرون يعانون من ضحالة مصادرهم العربية. ومع ذلك فقد تمادى أغلبهم بالمقارنات بحثاً عن التشابهات السطحية بين النصوص، لينتهي الى الخطأ والتزييف والتقليد والسرقة والتأثر بمصادر قديمة سابقة على الاسلام مثل «نولدكه»

الذي تراجع، في أواخر حياته عن مواقفه الأولى و رفض أن يطبع كتابه الذي كان قد أصدره عام ١٨٦٠م عن «تاريخ القرآن».(١)

الاهتمام المبكر

مما تقدم، يتضح لنا: ان الاهتمام الغربي بالقرآن يعود الى وقت مبكر، خاصة في مجال الترجمة. وربما كانت اولى الترجمات الخاصة قد وصلت في المشرق العربي في القرن الأول الهجري، حين ترجم القرآن الى السريانية، لكن الترجمة بقيت محصورة في أيد أمينة، لكن أول ترجمة للغة أوروبية يعنيها موضوعنا كانت الى اللغة اللاتينية، ثم كرّت الترجمات الى اللغات الأخرى.(٢)

وقد ترجم القرآن الكريم كله او بعضه حوالي أربع مئة مرّة الى اللغات الاوروبية فقط، وذلك في خمسين لغة ولهجة قديمة وحديثة، منذ القرن الثاني عشر حتى اليوم. هذا فضلاً عن حوالي مئات الترجمات الى خمسين لغة اسيوية وافريقية تقريباً.

و قد اعترف دارسو الاسلام من المستشرقين والعلماء بأن أكثر هذه الترجمات كان مشوهاً، فالقائمون عليها لايتقنون اللغة العربية، فضلاً عن اساءاتهم المقصودةفي الترجمة وشروحاتهاومقدماتها.(٣)

وحول هذه النقطة يقول الأب روبير كاسبار: «ان الغرب لم يفهم الاسلام على حقيقته أبداً، بل لم يحاول ذلك مطلقاً... وحتى خيرة المسيحيين القلائل الذين كانوا يعيشون على مقربة من الاسلام، من أمثال: يوحنا الدمشقي، تيودور أبي قرة، أو بورلس الصيدوني، لم يتمكنوا من ادراك جوهر الاسلام وعظمته وهي: التصعيد الى اللّه الواحد الأحد ... ولعل ذلك يرجع أساساً الى أن الغرب المسيحي قد اكتفى لعدة قرون طويلة بتلطيخ الاسلام ومؤسسه بأسخف الأقوال، دون حتى ان يكلف نفسه عناء دراسة هذه العقيدة. فاول ترجمة لاتينية للقرآن لم تظهر ـ كما سبق القول ـ سوى في القرن الثاني عشر، أي بعد خمسة قرون من ظهور الاسلام، وقد تمّت بناءً على مبادرة من «بطرس المبجّل» وتحت اشراف أسقف ديركلوني. ولابد لنا هنا من اضافة أن هذه الترجمة وكل الترجمات التي تلتها لم يكن لها أي هدف آخر سوى أن تكون الأساس لتوجيه المزيد من الادانات ضد القرآن. تلك الادانات التي امتدت سلسلتها على مدى قرونتتناثر عليها بعض أشهر الأسماء.(٤)

وعليه فالموضوع ليس بجديد، ولكن ما يدعونا الى اثارته هو الترجمة المشبوهة التي أقدم عليها المستشرق الفرنسي «جاك بيرك»، وهو من الأسماء المشهورة في عالم

الفكر و الاستشراق. وقد أثارت ترجمته للقرآن الكريم ضجة في الأوساط العلمية، لم تهدأ حتى لحظة كتابة هذه السطور.

فماذا وراء خطوة «جاك بيرك» هذه؟

وهل أضاف شيئاً يستحق الاهتمام بالقياس الى بقية الترجمات الفرنسية؟

وماهي تحفّظات أهل العلم على الترجمة؟

الموضوعية المزيفة

وقبل الخوض في استعراض أجوبة التساؤلات السابقة، نرى من اللازم التنوية الى أن «رسالة القرآن» قد خرجت ـ في هذه الوقفة ـ على المألوف قليلاً، فالكتاب تحت اليد لم يُخصّص للموضوع المراد التعريف به(وهو مادابنا عليه حتي الان، شريطة أن يكون موضوع الكتاب مادة قرآنية...)، بقدر ما شغر الموضوع أهم فصوله، وهو الفصل الأول الموسوم: «محمد والاسلام في عيون الغرب». (ص: ٢٩ ـ ٥٢)

ولطبيعة الموضوع وحساسيته ـ بل خطورته ـ ارتأينا التركيز على هذا الفصل دون سواه، وهذا لايعني التقليل من أهمية الفصول الباقية أبداً، ولكن ما يعنينا ـ كمجلة قرآنية متخصصة ـ هو هذا الفصل بالذات.

أيضاً، لابد من وقفة مع بيرك، في استعراض سريع لأهم محطاته الفكرية، ومنهجه الاستشراقي، والجهد الذي بذله في الترجمة: وجاك بيرك هذا هو أحد أبرز المستشرقين الفرنسيين والغربيين .. فالرجل الذي يحتفل هذا العام بعيد ميلاده الخامس و الثمانين قد افنى أكثر من نصف قرن باحثاً ومنقباً في تاريخ الفكر الاسلامي قديمه وحديثه. فطوال مسيرته العلمية وضع جاك بيرك وترجم العديد من الكتب أشهرها «العرب من الأمس الى الغد» و«العرب» و«الشرق ثانياً» و«الاسلام أمام التحدي» و«المغرب بين حربين» و«مصر: الامبريالية والثورة» و«المغرب: التاريخ والمجتمع» و«من الفرات الى الأطلسي».[٥] و«اندلسيات» و«عربيات» وغيرها من المؤلفات الأساسية التي غدت مراجع مهمة في مدرسة الاستشراق الفرنسي.[٦]

وقد سجل بيرك أطرافاً من حياته في ثلاثة كتب: الأول «عربيّات» صدر عام ١٩٧٨، وهو عبارة عن حوار مطوّل تحدّث فيه عن بدايات اهتمامه بالثقافة العربية، والثاني بعنوان «مذكرات الضفتين» صدر عام ١٩٨٩، والثالث صدر مؤخراً، وهو في شكل حوار حول قناعاته الخاصة بعلاقة الشرق بالغرب في ضوء المعطيات الدولية الجديدة.

كما صدر قبل فترة كتاب بعنوان: ضفاف وصحارى، ويضم مجموعة من

الـدراسات والابحـاث التي كتبهـا عـدد من الباحثين العرب والاوروبيين تكـريماً للرجل بمنـاسبة بلـوغه سن الثمـانين .. ثم صـدر بعده كتـاب بعنوان: «اعـادة قراءة القـرآن» ويضـم مجموعة من المحاضرات التي ألقاها جاك بيـرك على فترات متباعدة فـي الكولج دي فرانس.

والحق ان اهتمـام الـرجـل بـالفكـر و التاريخ والثقافة العربية لايعود فقط الى أنه ولـد في «فـرنـده» بالجـزائر عـام ١٩١٠، وخالط منذ نعومة اظافره البيئة العربية بكل ما تعنيـه من تراث وحضــارة ومعتقدات، او لانـه عمل في مقتبـل عمره كمفتشـاً مدنيـاً بالادارة الحكومية في المغرب الاقصى، وهو مـا جعله يـرصد عـن كثب مفردات الحيـاة اليوميـة التي أصبحت فيما بعد معينـه الذي لاينضب بالنسبة لدراسـاتـه السوسيولوجية العميقة لهذه المنطقة. ولكن ايضاً لان العرب هم الشعـب الأكثـر قربـاً وتنـاقضـاً في آن واحد، من حيث التاريخ والجغرافيا، والثقافة الى الشعب الذي ينتمي اليه بيرك.(٧)

وبيرك هو رائد منهج ينزع الى التاكيد على اهميّـة الـوطـن العـربي - الاسـلامـي كوحدة سيـاسية حضارية معـاصرة تجدر دراستهـا مثلمـا تـدرس اوروبـا الحضــارة اليـابـانية والاتحـاد السـوفييتي وأمـريكـا الـلاتينية والهنـد واوروبا الشـرقية وبقيـة الكتل الجيوبوليتيكية ـ الثقافية في العالم، كما ان دراســاته قامت على دحـض مناهج الاستشراق السـالفة التي تتجه نحـو فصل عناصــر الثقافـة العربيـة ـ الاسلاميـة عن وحدتهـا الكلية وتفكيك منـاحيها الابـداعية والفكريـة الى فروع تخصصيـة (مستقلة) عن بعضها. فيُدرس ـ مثـلاً ـ التصوف على حـدة من قبـل متخصص فيـه، والتـاريـخ السيـاسي الاسـلامـي على حـدة مـن قبل متخصص آخـر، والعلم عند المسلميـن من قبـل مستشـرق ثـالث. والأدب مـن قبـل متخصص رابـع وهكـذا. ومن هنـا كـانـت مغامرة بيرك العلمية شديدة الصعوبة لأنها منذ كتبه ودراساته الأولـى كانت تنزع نحو الالمام المتعمق بكـل هذه المكوّنـات علاوة على دراســة المجتمع وديناميـاته وحـركية التقليـد او التحديث والتحـولات النهضويـة الجارية فيه، أي دراسـة الوطن العربي ككل شامل يـرتبط بعمقه الحضـاري الأساسي الـذي هـو الاسلام، ومـن هنـا اعتمـد على منـاهج العلوم الاجتمـاعيـة المعاصـرة في السيولـوجيا، والتاريـخ، والانتروبولـوجيا، والنقـد الأدبي، وعلـوم الدراســات اللغويـة الأخرى مثل السيميـولوجيا لتقـديم صورة متكاملة عن هذا العـالم كوحدة كلية لايمكن

فرز ديناميانها الثقافية والسياسية الى فروع تخصصية مفتعلة.

وسواء اتفقنا مع جاك بيرك في منهجه هذا أم لم نتفق فما لاريب فيه ان كتاباته في هذا المجال قد ألّفت مدرسة مهمة وأساسية في فرنسا خاصة، وفي الغرب بشكل عام، لدراسة الوطن الاسلامي، وأصبح لها الكثير من الاتباع والمريدين ووضعت نهاية لمدارس الاستشراق التقليدي الأخرى. وهو لطول فترة دراسته للوطن العربي ـ الاسلامي ولتتبعه المتواصل لتحولاته السياسية والثقافية بات على قدرة في تحديد بعض سماته المستقبلية التي سبق ان أشار اليها في كتاباته الماضية قبل سنوات، ثم تحققت بعد ذلك في الكثير من التحولات السياسية والاجتماعية التي جرت فيه بعد ذلك.

لقد أمضى جاك بيرك أربعين عاماً من حياته في دراسة الوطن العربي ـ الاسلامي، وعاش خلالها عدّة سنوات في الكثير من بلدانه، واتقن اللغة العربية الفصحى علاوة على اتقانه لعدّة لهجات عربية مغربيّة ومشرقية، كما ألّف أكثر من عشرين كتاباً حول هذا العالم تناول فيها جوانبه السياسية والتاريخية والثقافية والأدبية واللغوية والعلمية؛ ورصد ديناميات التحوّل والتطور في مجتمعاته المعاصره.

هذا علاوة على معرفته العميقة بالتاريخ الاسلامي وعلوم الاسلام من فقه وحديث وتفسير وغيرها ...(٨)

ولكن ماذا عن ترجمته للقرآن والذي يُعَدّ آخر أعماله وأخطرها؟

آخر المحاولات

منذ بلوغه سن التقاعد و مغادرته لمنصب استاذ التاريخ الاجتماعي للعالم الاسلامي في الكولج دي فرانس انزوى في بيته الريفي، خلال ثماني سنوات، متفرغاً لترجمة القرآن الكريم الى اللغة الفرنسية.. فبعد صدور العديد من الترجمات الفرنسية للقرآن الكريم، خلال السنوات الماضية، كان المأمول أن تحظى ترجمة جاك بيرك بامتياز خاص، فقد أمضى سنوات عديدة في قراءة القرآن وكل تفاسيره القديمة والمحدثة علاوة على مراجعته للكثير من قواميس اللغة العربية ومعاجمها وقراءاته النقدية المتأنيّة للترجمات الفرنسية الأخرى بحيث أصبح على علم بالمردودات والفوائد التي يمكن ان تقدمها ترجمة فرنسية جديدة للقرآن تتجاوز كل الترجمات السابقة في دقتها وعلميتها، خاصة وان جاك بيرك رجل متمكن من اللغة العربية وعميق المعرفة بها، الامر الذي يؤهله الى فهم النص القرآني

وبيانه اللغوي والقدسي علاوة على ادراك الخلفية الحضارية الشاملة للاسلام التي يمكن لها أن تضيء و توضّح الكثير من مضامين النص القرآني الى القارئ الفرنسي.

وبعد ثماني سنوات من العمل المتواصل في نقل النص القرآني الى اللغة الفرنسية صدرت هذه الترجمة في بداية عام ١٩٩٠، مع مقدمة في نحو المئة صفحة كتبها جاك بيرك لتحليل النص القرآني ومميزاته ومضامينه والخصوصيات التي يتمتع بها.(٩)

وعن سبب اقدامه على هذا المشروع وفي هذه المرحلة من حياته، اجاب جاك بيرك قائلاً: لقد ابتدأت ترجمة القرآن، في هذه المرحلة من حياتي، وبعد تجاوزي سن الستين من العمر لسببين، السبب الأول: هو الخوف و الحشمة، فلم اقدم على ترجمة القرآن في السابق خوفاً من أن أصغر في عيون المثقفين والمتخصصين، فيما لو لم تكن الترجمة جيدة، وفي المستوى المطلوب فآثرت أن انتظر لكي ازداد نضجاً بحيث أكون مؤهلاً لتقديم ترجمة جيدة وأمينة. وحشمة لانني كنت أخجل من نص عظيم مثل النص القرآني، فلم اتجرأ على القيام بترجمة لهذا الكتاب المهم دون أن تكون عوامل المعرفة به وبالاسلام قد تعمقت من خلال دراساتي المتواصلة والمستمرة بحيث أكون في مستوى ترجمة النص، ولكي لايحدث أي تقصير في النص الفرنسي الذي يتوخّى تقديم القرآن الكريم بكل أبعاده اللغوية والروحية الى لغة أخرى.

السبب الثاني: هو سبب شخصي، فنحن عندما نتقدم في السن نبدأ بالتفكير بطريقة أخرى... نبدأ بطرح الكثير من الأسئلة الميتافيزيقية على أنفسنا، أسئلة متعلقة بالموت وجدوى الحياة. وقد وجدت في القرآن كثيراً من الاطمئنان الروحي الذي أسعى اليه، ان الحياة لم تكن تثير اية مشكلة بالنسبة لي، عندما كنت شاباً فان الموت لم يكن يطرح نفسه أمامي كمشكلة واقعية لانه بعيد عني، فكنت منغمساً في الحياة وفي همومها، أما الآن فان كل تفكيري ينصب فيما بعد الحياة وفي التساؤل الميتافيزيقي، وقد وجدت في القرآن سلوى لي وفي ترجمته شيئاً من هذه الاستجابة الى عالم مابعد الحياة.(١٠)

وحينما سئل عمّ تقدمه ترجمته الى الترجمات الفرنسية العديدة للقرآن ومن اشهرها (ترجمة بلاشير، دنيس ماصنون، كازيرمسكي، حميداللّه، وصلاح الدين كشريد ... وغيرهم)؟ وما هي ملاحظاته على تلك الترجمات.. أجاب جاك بيرك مانصّه: ان

الترجمات التي قدمت الى حدّ الآن الى اللغة الفرنسية كانت من قبل مترجمين يحسنون اللغة الفرنسية أكثر من اللغة العربية، أو العكس، أي أشخاص يتقنون العربية أكثر من أتقانهم اللغة الفرنسية، ولذلك فان هذه الترجمات كانت معرضة لبعض الخلل أو النواقص. أما من ناحيتي فانا فرنسي قح وقد تعلمت اللغة العربية وازعم بأنني اتقنها بشكل جيد، لأنني درستها لسنوات طويلة وعشت في البلاد العربية لسنوات طويلة، ولعلّي اتقنها أكثر من المستشرقين الفرنسيين الأخرين الذين ترجموا القرآن سابقاً الى اللغة الفرنسية، وبذلك أزعم بأن معرفتى باللغة الفرنسية وباللغة العربية هي معرفة متوازية ومتعادلة في كلا اللغتين، وهذا ساعدني على تقديم ترجمة جديدة تتلافى نواقص الترجمات السابقة وتقديم ترجمة أفضل من كل ترجمة قام بها مترجم أجنبي آخر..[11]

وهنا نسأل:

- هل قدّم جاك بيرك حقّاً ترجمة جيدة وأمينة؟

وهل توّخى فيها بالفعل تلافي نواقص الترجمات السابقة؟

وهل كانت ترجمته استجابة الى عالم مابعد الحياة أم ان هناك دافعاً آخر له مساس بعالم الكواليس؟

ماذا وراء المشروع؟

ونترك المجال للدكتورة زينب عبدالعزيز الضليعة باللغة الفرنسية فتقول: «لاشك في ان جاك بيرك يعد أحد عمالقة الفكر الفرنسي المعاصر، ولاشك في انه واحد من ألمع المستشرقين، بما أنه حصل على عضوية مجمع اللغة العربية بمصر!!

ولاشك في ان الجهد الذي قام به لترجمة معانى القرآن ذلك الجهد الذي استغرق مايزيد على العشر سنوات ـ على حد قوله في الأحاديث الصحفية (القبس: ٢٦/١/١٩٨٩) هو جهد عملاق. وكم كنا نود أن تأتي ثماره لتكلل المكانة العلمية التي يحتلها ... لكن، من المؤسف حقاً ان تخرج ترجمته الى النور وهي تحمل بين صفحاتها العديد من الظلمات والنواقص! وما كنا نرضى لمن في مثل مكانته العلمية بأن يحمل آخر اعماله، وعن القرآن، مثل هذه السقطات .. لكن الأخطاء في الأعمال العملاقة .. عملاقة أيضاً.»

ومنذ البدء، لاتزعم الباحثة أنها قرأت كل ترجمته لمعاني القرآن، وانما قرأت برويّة المقدمة التي كتبها .. ولاتزعم أيضاً انها من الضالعات أو الضالعين المتخصصين في الدين الاسلامي وفقهه، الا أن ما ورد في هذه المقدمة من مغالطات

وتحريف ومعانـي تتخفى بمسوح العبارات اللغويـة المعاضلـة ـ فـاسلوب جـاك بيرك مشهور بتحذلقاته الملتوية ـ وكل ماورد في هذه المقـدمة من تشـويه واستفـزاز، يحتّم عليها، كـاستاذة للحضارة أتمّت كـل مراحل تعليمها بالفرنسيـة، إن تقدّم ماورد في هذه المقدمـة وبعض ما رأتـه في الترجمـة حتى يتمكـن المختصـون والمهتمـون بهـذا الموضـوع من مجابهـة فرياتـه، والاهتمام الواجـب للتصدي للعديـد ممّا اتى بـه جاك بيرك. [الكتاب:٤٣]

ينصـبُّ حـديـث البـاحثـة، اذن علـى المقدمة ونماذج عديـدة من ترجمته، لتسلّط الأضواء علـى حقيقة جـاك بيرك وادعـاءاته العريضة في النزاهة والعلمية والتجرّد!

وتفتتح الكاتبة محـاكمتها للمستشرق الفرنسي بالتساؤل: ترى لماذا هذه الترجمة لمعـاني القـرآن؟ لماذا وهنـاك العـديـد من التـرجمات وأغلبهـا قـام بهـا مستشرقـون مثله؟!، وتعقّب د. زينب على هذه التساؤلات قائلة: «من المعروف أنه حينما يتعرض المرء لترجمـة عمل ما – خاصـة وان كـان ذلك من اختيـاره المطلق وليس بتكليـف مـا – فانـه عـادة ما يـرجـع لأحد أمـرين: سـواء أكـان اعجاباً بهذا العمل ورغبة منه في نقل ماورد فيـه الـى أكبـر عـدد ممكن مـن القـراء؛ أم احتجاجاً على ماتضمنه، فترجم للرد عليه أو أملاً في أن يتولى الآخـرون هذه المهمة. ولا اعتقد أن ماورد في مقدمة جاك بيرك يسمح لي بـالقول بأنـه انما قـام بهذا الجهـد كله اعجاباً بالقرآن و بالمسلمين!

ان هذا السـؤال الأول يقود الـى سؤال ثان هـو: ترى لمن هـذه الترجمة؟ مـن غير المعقـول ـ بـداهة ـ أنـه قد تمّت مـن أجل المسلميـن المتحـدثين بـاللغـة العـربيـة، فجميعهم يقـرأون القرآن في لغتـه الاصلّية التي هي لغتهم الأم. أي ان هذه التـرجمة قد تمت ـ بـلاشك ـ من أجل المتحدثيـن باللغة الفرنسية. وهم إما أن يكونوا من الفرنسيين أنفسهم، وأما من الشعوب المتحدثةبالفرنسية ولا اعتقد أن أغلبهم من المسلمين.

ولعل التعبيـر الذي قـاله جـاك بيرك، ضمن حديـث له مع مراسل جـريدة القبس (١٩٩١/٦/٢٢) يكشـف عـن الهـدف الحقيقي لهذه الترجمـة ولهذا الجهد المنبت الذي قام به، اذ يقـول ضمن سياق الحديث: «لان الكثيـر مـن النـاس والمفكـريـن الآن ينبذون الصـورة المادية للحياة المعـاصرة ويرفضـون مجتمع الاستهلاك، هذا المجتمع المـادي المحض، ويفضلون علـى المدنيّـة المعاصرة مدنيّة الاسلام الروحية وينادون بـالعـودة اليهـا !». أي أنـه أدرك ان تحـوّل

العديد من الناس والمفكرين عن معتقداتهم أو دياناتهم غير الاسلامية ــ سواء في فرنسا أم في البلدان الخاضعة لسيطرتها ـ واعتناقهم الاسلام هو واقع معاش اليوم، وهو في حقيقة الأمر ما يفزع منه جاك بيرك، كما يبيّن في المضمون الخفي للعبارة فراح يسفّه لهم معاني ذلك القرآن الذي يجذبهم بروحانيته وباتزان تعاليمه الشاملة للحياة الدنيا وللآخرة، آملاً الحد من هذه الموجة الآخذة في الانتشار!

وليس هذا الموقف بغريب أو بجديد على القرآن وعلى الاسلام والمسلمين فها هو مستشرق آخر، ند ومعاصر له ومن بني جلدته، المستشرق رجيس بلاشير، يقول في مقدمة كتابه عن «القرآن» متحدثاً عن «الصورة المشوهة بصفة خاصة التي قدمتها اوروبا المسيحية عن محمد» مشيراً بذلك الى العديد من الترجمات التي تمّت لمعاني القرآن، منذ القرن الخامس عشر، والتي كانت «كلها تمثل عنصراً أساسياً في الصراع القائم ضد الاسلام»، ورغم هذا الاعتراف الواضح، ورغم هذا التبرير لكتابة بحث جديد عن القرآن، فان رجيس بلاشير لم يكن بالامانة التي يزعمها كما اشرنا وان كانت تلك قضية أخرى، إلا ان كل ذلك يأتي ــ استمراراً للخط نفسه والنغمة النشاز نفسها من القرن السابع حتى القرن العشرين...(الكتاب: ٤٤ ــ ٤٥)

ولم يعد سراً ان المستشرقين في ترجماتهم اختلقوا من التأويلات مايناسب أغراضهم، هذا فضلاً عن تحويرهم في المعاني، وتعمدهم الخطأ، واخيراً تقديمهم لكل ترجمة بدراسة تتجرأ لبحث مواضيع أمثال: تأليف القرآن، اعجازه، انحرافه عن الاخلاقيات العامة، حكاياته المنقولة... ولقد انطلقوا من فكرة ترجمة القرآن الحكيم صراحة لدحض المبادىء الاسلامية. وتفنيدها، وقد فعلوا ذلك بروح رجعية متزمتة سداها معاداة الاسلام[١٢] وجاك بيرك لم يشذ عن هذه القاعدة، رغم تبجّحه بالموضوعية والأمانة. وما المقدمات (العلمية) التي كتبها المستشرقون ليست في الواقع سوى معاول هدم متعددة الأوجه، تدور حول محور أساسي هو: زعم ان القرآن عقبة في سبيل ارتقاء الأمم الاسلامية!!

وذلك بعينه هو ما راح يردده اللورد كرومر، في كتابه في مطلع هذا القرن بناءً على آراء مستشارية من المستشرقين: «ان القرآن هو المسؤول عن تأخر مصر في مضمار الحضارة الحديثة»، أو «لن يفلح الشرق ما لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة ويُغطّى به القرآن»!![١٣]

و ذلك بعينه هو الهدف العام الذي اتبعه المستشرق جاك بيرك في ترجمته للقرآن التي صدرت عام ١٩٩٠، ولم تكشف عن انه انسان بوجهين فحسب، بل انه يفتقد

الأمانة العلمية في ترجمته وفي اسلوبه الذي يشي عن تعصّب مغرض ادّى به الى تشويه صورة الاسلام...(الكتاب:٤٢)

المحاور الأساسية

ان المحاور الأساسية التي تناولها في المقدمة تكفينا الكثير، وهاك بعض ما ورد فيها:

* التشكيك في نزول وترتيب وتجميع القرآن.
* تأثر القرآن بالشعر الجاهلي وبالفكر اليوناني القديم (مؤكداً على ذلك في أكثر من موضع).
* تأثر القرآن بمزامير داود (وان أشار للحاجة الى أدلة أكثر دقة لاثبات ذلك).
* احتواء القرآن لخط أسطوري ميثولوجي لفلسفة كوارثية النزعة للتاريخ.
* فظاعة صورة اللّه كما هي واردة في القرآن.

أما النقاط التي تعرض لها عبر دراسته اللغوية المزعومة أو التي تذرع بها ليبث تشويهاته في اطار يحاول التمسح بالاكاديمية واللغويات الحديثة من سمولوجيا وفينومنيولوجيا وسيمانطيقا، فننقل منها من قبيل المثال:

* انتقاده لمعيارية القرآن وأنها أبعد ما تكون عن التقنين.
* غموض تعبير الأحكام ـ على حد زعمه ـ مما سمح للمفسرين القدماء بحريات من التصرف غير المقبولة من مذاهب أخرى.
* تناقض الشريعة ومنها يخرج بالهجوم على الجماعات الاسلامية وعدم فصل الدين عن السياسة.
* جدل العلمانية الكاذب ـ وضرب العلمانية الحديثة.
* اثارة قضية فتنة خلق القرآن من جديد
* زعمه بتحريف القرآن للأساطير «في شكل حوار مشبوب بعلم النفس الفارقي وبالطرافة»!
* اتهام المفسرين بالغاء بعض الآيات أن كانت تخرج عن قبضتهم، أو تحريفهم لمعناها.
* محاولته لايجاد توازي ما بين الفكر اليوناني ومفهوم اللّه في القرآن!

وبغض الطرف عن أن كل هذه الموضوعات، وغيرها كثير، قد قُتلت بحثاً وحسمها جمهرة من العلماء، فليست هذه هي جوهر القضية هنا... وانما لابد من الاشارة الى اصراره الغريب، منذ بداية المقدمة حتى نهايتها، على تاكيد تأثر القرآن بالفكر اليوناني بأكثر من وسيلة، سواء عن طريق اصداء فلاسفة الماضي وخاصة بارمنيدس (٥١٥ - ٤٤٠ ق.م)، أو اصداء القانون المدني وتقنين الكنيسة السورية. ويذهب في نهاية تحليله الى عمل نوع من التوازي بين الفكر اليوناني والاسلام.

ثم يختتم هذه المقدمة قائلاً: «ان مشكلة الاسلام اليوم هي اذن ذلك الانفصال الذي يمكنه أن يتفاقم بين مواقف

العقيدة ومسيرة العالم الفعلية، بل مسيرة العالم الاسلامي نفسه. فالاسلام يبحث عن ملجأ باتجاهه الى الأصول. الا أن عدم امكانيّة اخضاعها الى النقد التاريخي ونقلها الى الحاضر، فان ذلك لايعيد لها قوتها الأصلية. اذ أن «الذكر» الحقيقي هو الذي يحوّل الذكرى الى مستقبل. وهي عملية خلاقة، تبرمج العصرية بالاصالة، وتبدو لاغنى عنها في مواجهة هذه التجديدات التي يجب على كل نظام في العالم الحالي أن يقترح حلولاً ممكنة».

ترى أية حلول وأية تجديدات و أي نظام؟

ثم يختتم بيرك مقدمته المشحونة بالفقرة التالية: «وهنا يؤدي تساؤلنا الى تساؤل أكبر: هل الديانات الابراهيمية قادرة على تحقيق مجهود التأقلم في المستقبل، ذلك المجهود الذي يقع على عاتقها جميعاً؟ ترى بأية طريقة؟ بأية شروط؟ و بأي ثمن؟ فيما يتعلق بالاسلام، حيال هذه المهام، فان الصفحات السابقة تجعلنا نعتقد أنه مازال أقل من الامكانيات التي يتيحها له نصه الأساسي»!(ص:٧٩٢)

وبغض النظر عن محاولته المتعسفة للجمع بين الاسلام والمسيحية واليهودية في صعيد واحد، فها هو يقلل من بينها شأن الاسلام وحده! أليس هو «مازال أقل من الامكانيات التي يتيحها له نصّه الأساسي؟» وهل عزّ عليه أن تكون آخر كلمة مكتوبة له هي «القرآن» حيث هو «النص الأساسي» الذي يشير اليه؟! ثم بأي حق يصدر حكمه بادانة الاسلام بعد أن قام بتشويه صورته؟ ألم يكن من الانصاف أن يقصر نقده على المسلمين، اذا ما كانوا مقصرين ـ في نظره ـ في تعاليم دينهم و نصوصه؟!

ترى هل تتفق هذه الصورة أو هذا الرأي مع حقيقة الاسلام أو حتى مع الاعجاب الظاهري الذي لايكف عن التشدّق به في الأحاديث الصحفية؟! ترى هل يتفق هذا الرأي و«الاطمئنان الروحي الذي كان يسعى اليه» ووجده في القرآن (على حد قوله مع مجلة الجهاد)؟!(ص:٤٨)

من مغالطات الترجمة

أما فيما يتعلق بالترجمة فقد استوقفت الباحثة في أكثر من موطن، ونقتطف هنا نماذج منتقاه:

ففي سورة «الاسراء» لم يكتف بترجمة معناها الذي حرفه الى Le Trajet nocturne أي «المسيرة الليلية»، وانما أضاف بعده عنواناً آخر هو «أو ابناء اسرائيل»(ص:٤٨)

و الشيء نفسه مع سورة «غافر»، ترجمها الى مامعناه «المؤمن أو المتسامح»... وغيرها كثير، أما سورة «النصر» فقد ترجمها الى «النجدة المنتصرة! Le secours victorieux..

وهنا لابد من وقفة، فان كلمة «النصر» معناها بالفرنسية La victoire وبالانجليزية victory الا ان جاك بيرك قد أصرّ على عدم استخدام هذا المعنى. فكلمة النصر التي ترد في القرآن أحد عشر مرة، وتصل تصريفاتها اللغوية الى قرابة المئة مرّة، لم يترجمها مرّة واحدة بمعناها الحقيقي. وقد استشهدت الباحثة ببعض الأمثلة على ذلك. وقد عقّبت قائلة: «لايسع المجال هنا لتتبع ترجمة هذه الكلمة في كافة اشكالها، الا انه ما من مرّة الا و ترجمها بكلمة «النجدة»، وأحياناً «المساعدة»، او ماشابه ذلك... وكأنه يأبى كتابة النصر للاسلام أو أن الاسلام قد انتصر!». (ص:٤٩)

اما سورة «الروم» فترجمها باسم العاصمة روما اذ كتب: Rome ...!! ومن الغريب أن يضع هنا أيضاً هامشاً يقول فيه: «نقول روما لأسباب ترخيم الصوت او التطريب (Euphonie) حيث كان لابد من وضع كلمة «البيزنطيون» بالطبع (ص:٤٣١)!! ويا للمغالطة السافرة! فمتى كانت الترجمة او اختيار الكلمات يتم من باب الترخيم والتطريب بعيداً عن المعنى؟! (ص:٥٠)

ولايتسع المجال هنا لاستعراض ما أوردته الباحثة من ملاحظات حول ما تضمنته ترجمة جاك بيرك من مغالطات وأخطاء لاتعتقد بأنها قد صدرت بصورة عفوية ممّن في مثل مكانته العلمية، غير ان هناك مايؤكد سوء النية المبيّت، وذلك مثل اصراره على ترجمة كلمة «الرسول» ومعناها الأكيد في سياق القرآن هو النبي (صلى الله عليه و آله)، وهي بالفرنسية: Le Prophete لكنه أبى استخدام هذا اللفظ ليبعد معنى النبوّة عن ذهن القارىء، واستخدم كلمة: L' Envoye، ومعناها «المرسل من قبل فلان» او «المرسال»!

وممّا يزيد من تأكيد اصراره على سوء النية في السياق نفسه عدم استخدامه مطلقاً لكلمة مسجد، والمقابل لها في الفرنسية هو Mosquée بل والمعروف لغوياً وما يُكتب في القواميس الفرنسية أنها كلمة «من أصل عربي» وراح يكتب مكانها كلمة Sanctuaire وأحياناً كلمة Oratorie والمعروف أن كلمة Sanctuair مشتقة من اللاتينية وتعني «جزء من الكنيسة حول المذبح حيث تتم فيه المراسم الطقسية»، وقد تعني «مكاناً مقدساً بصفة عامة»، وكلمة Oratoire مشتقة من اللاتينية ومعناها «كنيسة صغيرة من أجل استخدام جماعة معينة». فبأي حق يترجم «المسجد الحرام» (التوبة:٢٨) بـSanctuaire consacre؟(ص:٥٠)

أما عن عدم الدقة في الترجمة فلاشك في أن الخلفية القائمة على المغالطة والتمويه ـ ان لم يكن التجريح أحياناً ـ هي السائدة. فمثلما استبعد كلمة «النبي»

و«المسجد» وخاصة المسجد الاقصى وغيره، فعادة ماتراه يستبعد مايمت الى العقيدة ومراسمها أيضاً...

وليست هذه النماذج العابرة الا أمثلة تؤكد غياب النزاهة العلمية عند جاك بيرك، تلك النزاهة التي راح يتهم الآخرين بغيابها لديهم، مثلما قال عن «حمزة بوبكر» وترجمته لمعاني القرآن...(ص:٥٢)

وبعد هذه الجولة تختتم الباحثة د.زينب عبدالعزيز كلامها: «واذا ما طبقنا علوم البلاغة الجديدة من تحليل منطقي وسيميوطيقا و سيمانطيقا وما الى آخره مما تلفع به، على نفس الاسلوب الذي صاغ به مقدمته لخرجنا من أول الى آخر كلمة بما لايشرفه من مغالطات واستخفاف»(ص:٥٣).. لتوجه خطابها الأخير الى جاك بيرك نفسه قائلة: «وانه يتعيّن عليك أن تبدأ المشوار من جديد بأن تعيد النظر في الثقة التي منحها لك مجمع اللغة العربية بمصر واستغللتها كتصريح لنشر كتابك بكل مايتضمنه من فريات: فكل ما ورد في هذه الصفحات لم يكن الا نماذج على سبيل المثال، وما خفي كان أعظم.. نعم، أقول له: أن يبدأ المشوار من جديد بتعلّم ابجدية البحث العلمي، و أبجدية الامانة العلمية، و أبجدية الترجمة، وقبل ذلك كله أن يتعلم أبجدية احترام معتقدات الآخرين ومقدساتهم.(ص:٥٥)

وهكذا ينكشف زيف هذا المستشرق الصليبي، الذي يعتبر نفسه صديقاً صدوقاً للعرب والمسلمين، و يتباكى أحياناً كثيرة على وضعهم الراهن.. بيد أنه ظهر على حقيقته المعادية للاسلام وقرآنه وابنائه.. وبذا يثبت عدم دقة المقولة التي تذهب الى ان كتابات جاك بيرك وأبحاثه الّفت مدرسة جديدة و مستقلة سعت في هدفها الأساسي الى وضع نهاية للاستشراق التقليدي.. ولطالما أعلن بيرك نفسه وفي العديد من كتاباته نهاية عصر الاستشراق.[١٤]

وهذا التنصّل من الاستشراق، والتظاهر بالموضوعية من قبل بيرك لم يكونا سوى ادعاء محض أثبتت ترجمته للقرآن زيفه وبطلانه. وبهذا كأنّه يُعيد ـ عن قصد ـ تجربة المستشرق الماكر جورج سال [١٦٨٠ - ١٧٣٦م] حينما اشار في مقدمة ترجمته: «اني لم أسمح لنفسي عند التحدث عن محمد أو قرآنه أن استعمل السباب المشين والتعبيرات اللاأخلاقية والتي ظنها الكثيرون ممّن كتبوا ضده أنها أقوى اسلوب للمجادلة... ولكن العكس هو الصحيح، فقد وجدت انه من الملائم معالجة الموضوع بالحكمة والأدب بل والموافقة على الأساسيات التي اعتقد أنها تستحق الموافقة، كمدى الجريمة الابدية التي ارتكبها بفرضه ديناً مزيفاً على البشرية...[١٥]

وهكذا يتضح بما لايدع مجالاً للشك أن الاستشراق هو الاستشراق، حتى وان حاول

البعض البراءة منه! والهدف هو ذات الهدف الذي يسعى اليه منذ البداية؛ لقد كانت الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن هي الشرارة التي فجّرت كمّاً هائلاً من الترجمات في شتى اللغات الاوروبية... وهي تتراوح بين الاسفاف والقدح الشديد في الاسلام وتحريف الكَلِم عن مواضعه وبين المواربة ودق الأسافين واثارة الشبهات. ان الغالبية العظمى من هذه الترجمات قام بها رهبان أو قساوسة أو مبشرون أو مستشرقون، والقلة القادرة من الترجمات التي قام بها المسلمون(١٦) هي ترجمات قليلة لاتزيد عن أصابع اليد الواحدة.

وحول هذه النقطة يقول الدكتور حسن المعايرجي: «ان المسلم الذي ذاق حلاوة الايمان وحفظ القرآن الكريم ودرس علومه، لابد وأن يختلف في ترجمته للقرآن عن غير المسلم الذي لايرعى للقرآن الكريم حرمة، ولاذمة. ناهيك عن الانسان الذي لايدرك مغزى أحكام القرآن الكريم وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته السامية للفرد والأسرة والمجتمع، وللحاكم والمحكوم،في السلم والحرب، والذي لايدرك مغزى التوحيد والعبودية للّه ولا لمبادئه ونظمه في مختلف نواحي الحياة ولايطبقها في حياته. كيف يتسنى لهذا الانسان أن يذوق حلاوة القرآن ويفهم مراميه وأبعاده وأغواره وكيف تتجلى له تأويلات هذا الكتاب الكريم و أسراره وحقائقه حتى يستطيع أن يترجم معانيه الى لغة أخرى. فاذا أضفنا الى هذا العناد المكابرة وسوء النيّة والجهل في ادراك عربيّة القرآن الكريم المعجزة، فان المحصلة تكون مابين أيدينا من كوارث الترجمات الاوروبية التي فعلت بكتاباللّهما يشق على النفس ذكره»

ويضيف المعايرجي: «لقد حرفوا الكلم وأعادوا ترتيب السور حسب ما يرى المؤلف مدعياً أنه ترتيب النزول، أو يترجم ترجمة مرسلة للسور دون التقيّد بآيات هذه السورة. وقد تكون السورة في مقال واحد أو في عدّة مقالات أو يؤلف مايسميه مختصر القرآن أو قرآن محمد أو قانون الاتراك أو اضافة صور يدعي المؤلف أنها للنبي أو أهم عشر سور في القرآن أو مايسمونه أحاديث محمد حول المائدة وغير ذلك ممّا ارتكبه القوم بحق كتاب رب العالمين. ولو حاولت عرض نماذج لهذه التحريفات والأباطيل في اللغات الاوروبية التي ترجم اليها القرآن الكريم لاحتجت الى مجلدات...».(١٧)

ان بيرك أثبت ـ وبالدليل الدامغ ـ على أنه على خطى أسلافه من المستشرقين، رغم محاولاته المستمرة في التلّفع بـ(المنهجيّة) و (الموضوعية) و (التاريخية)... والى ما غير ذلك... وقد توّج أعماله الفكرية بهذا الهجوم المبطن على الاسلام وكتاب اللّه. والسؤال هو: لماذا

كتاب الله؟ والجواب هو: ان اللاهوتيين النصارى (وبيرك منهم قطعاً) أدركوا أن القرانّ الكريم هو سرّ قوة المسلمين، ودافعهم الأساسي الى الجهاد، والدوحة التي تفرعت عنها أغصان العلوم الاسلامية، وأنّه المهدد الحقيقي للفكر النصراني، لذا عملوا عن طريق الترجمة على تشويهه لتدمير الحضارة الاسلامية(١٨)

واذا كان لابد من كلمة أخيرة، فليس بوسعنا الا الاشادة بالدكتوره زينب عبدالعزيز لما قامت به من دور لفضح هذا الدّعي، كما ينبغي التنويه بموقف الأزهر الشريف وبعض مفكري مصر من المستشرق بيرك، الأمر الذي أثار استياءه وحزنه (على حد تعبيره) ولاندري ماذا كان يتصور استقبال المسلمين له وهو يشوّه كتاب اللّه، ويحرّف الكلم عن مواضعه...؟ في محاولة مفضوحة للتدليس والتضليل... والعداء المبيّت للاسلام وأهله...؟!

الهوامش

(١) للمزيد يُراجع التعريف بالكتاب القيم «دفاع عن القرآن ضد منتقديه» للدكتور عبدالرحمن بدوي، والمنشور في صحيفة الهلال الدولي: ١٦/ ١/ ١٩٩٠ (مقال الذود عن كتاب اللّه بالفرنسية).

(٢) د.محمد أمين فرشوخ: «المدخل الى علوم القرآن والعلوم الاسلامية»، بيروت، ١٩٩٠، ص:٢٢٤.

(٣) المرجع نفسه: ٢٣٦.

(٤) يُراجع كتاب: «فاتيكان اثنين»: ٢٠٩؛ نقلاً عن كتاب محاصرة... وابادة: ٤٠.

(٥) يُراجع الحوار مع المستشرق بيرك في شهريّة «الملف العربي ـ الاوروبي»، عدد نيسان (ابريل) ١٩٩٤ ـ شوال/ ذوالقعدة ١٤١٤ ص: ٢٢ ـ ٢٥.

(٦) ايضاً يُراجع الحوار مع بيرك في مجلة رسالة الجهاد (الليبية)، العدد (٨٤) ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠، ص: ٨٢ ـ ٨٧.

(٧) شهرية الملف العربي ـ الاوروبي: م.س.

(٨) مجلة رسالة الجهاد؛ المرجع السابق: ٨٢ ـ ٨٣.

(٩) المرجع نفسه: ٨٣.

(١٠) المرجمع نفسه: ٧٤.

(١١) المرجع نفسه: ٨٤ ـ ٨٥.

(١٢) المدخل الى علوم القرآن...: المرجع السابق.

(١٣) يُنظر كتابه الخطير: «مصر الحديثة»، الصادر سنة ١٩٠٨ (نقلاً عن كتاب محاصرة... وابادة: ٤٢).

(١٤) على سبيل المثال تُراجع مجلة رسالة الجهاد؛ المرجع السابق: ٨٢.

(١٥) د. حسن المعايرجي، مقال: «المحرفون للكلم... الترجمات اللاتينية الأولى للقرآن الكريم»، مجلة المسلم المعاصر، س١٢. ع ٤٨: ٥٣ (شوال، ذوالقعدة، ذوالحجة ١٤٠٧ هـ).

(١٦) من بين أشهرها: ترجمة أبي الأعلى المودودي، وعبداللّه يوسف علي، ومحمد أسد في الانكليزية، والاستاد محمد حميد اللّه وحمزة بوبكر في الفرنسية.

(١٧) مجلة المسلم المعاصر؛ المرجع السابق: ٥٥.

(١٨) يُراجع المقال القيّم: «ترجمة معاني القرآن الى اللاتينيةّ هي منطلق الفكر الاستشراقي»، المنشور في مجلة الأمة (القطرية). س٦، العدد ٧١: ٣٦ ـ ٤٠، ذوالقعدة ١٤٠٦ هـ ـ تموز (يوليو) ١٩٨٦م.

* * *

أخبار قرآنية



● استقبال حافظ القرآن ذي السنوات العشر من قبل قائد الثورة الاسلامية:

ـ وُفق السيد وحيد غفران نيا (١٠ سنوات) وهو من تبريز في حفظ كل اجزاء القرآن الكريم. وضمن لقائه مع قائد الثورة، بينَ مقدرته وحفظه للقرآن تالياً قسماً كبيراً منها امام سماحته. وقد ابدى سماحة آية الله الخامنئي رأيه في عملية حفظ القرآن، مشجعاً ومباركاً للسيد غفران نيا على قدرته الفائقه على حفظ القرآن الكريم. كذلك عرض سماحة قائد الثورة الاسلامية بعض الافكار القيّمة والنصائح السديدة الى الحدث حافظ القرآن، ثُمَّ اهدى اليه عشر قطع ذهبية (بها ر آزادي).

وجدير ذكره ان السيد غفران نيا هو الآن في الصف الرابع في احدى مدارس تبريز الابتدائية.

● الدورة الاولى لمسابقات حفظ القرآن الكريم الخاص بالاخوات في البلاد:

اقيمت في مدينة قم المقدسة وبإشراف هيئة الاوقاف والشؤون الخيرية مسابقات عامة لحفظ القرآن الكريم خاصة بالاخوات.

وقد اقيمت الدورة للمسابقات القطرية لحفظ القرآن الخاصة بالاخوات وتحت عنوان «براعم القرآن وأنصار الكوثر» لحفظ خمسة اجزاء، ثلاثة اجزاء، وجزء واحد من القرآن برعاية الادارة العامة للاوقاف والشؤون الخيرية، في محلة (فقيه زاده) في مدينة قم المقدسة.

وقد تمَّ انتخاب الاولى والثانية والثالثة من بين اكثر من ستين حافظة شاركن في هذه المسابقات من جميع انحاء البلاد، وقد

مُنحت جوائز نقدية للفضلى في كل مجموعة، وذلك في المراسيم الختامية لهذه المسابقات.

* * *

● تقرير موجز عن المعرض الأول للقرآن:

افتتح المعرض الاول للمصاحف الخطية والمطبوعة والكتب الخاصة بعلوم القرآن في طهران، وذلك بمناسبة ايام رمضان المبارك وبرعاية السيد وزير الثقافه والارشاد الاسلامي ولمدة عشرة ايام متتالية، حيث كانت الدعوة عامة للجميع.

وقد أُقيم هذا المعرض تحت اشراف معاونية الشؤون الثقافية المرتبطة بوزارة الثقافة والارشاد الاسلامي وبالتعاون مع هيئة الاعلام الاسلامي وهيئة الاوقاف والشؤون الخيرية وكثير من المهتمين وذوي العلاقة، و أُقيم في مُجمَّع (آفرينشهاى فرهنگى)، و(هنرى كانون پرورش فكرى كودكان ونوجوانان).

وقد عُرض في هذا المعرض ما يقارب من (٤٠٠) عنوان من المصاحف المطبعية، وحوالي الف عنوان من كتب العلوم القرآنية، وقد طُبع من المصاحف مئة مصحف باللغات الاجنبية، وكذلك لوحات جميلة ونفيسة تمثل جلد المصحف الخارجي وبالالوان الزاهية.

وقد احتوى هذا المعرض على اقسام مختلفة، منها:

١ ـ قسم المصاحف الخطية، والذي عُرضت فيه المصاحف الخطية من القرن العاشر الهجري وحتى القرن الرابع عشر منه. وقد كانت هذه المصاحف مُذهَّبة وتحتوي على إطارات جميلة وجداول في بعض المصاحف، واشكال هندسية متنوعة، وبعض فواتح السور مُذهَّبة، وتحتوي على حواشٍ إطارية مختلفة وجلود متينة مكبوسة ومضغوطة.

٢ ـ قسم المصاحف المطبوعة، والتي عُرضت فيه بعضٌ من المصاحف المطبوعة بالمطابع الحجرية وحتى الأُوفست، والطباعة العادية ذات اللون الواحد، والمطبوعة بالالوان المختلفة وبأبعاد متباينة (جيبي؛ رقعي؛ وزيري؛ رِحلي؛ ورحلي كبير)، وبالخطوط النسخ، الثُلث والكوفي من القرن الثالث وحتى الوقت الحاضر.

٣ ـ والقسم الآخر من المعرض والذي كان مورد استحسان المرتادين من مختلف

طبقات المجتمع كالطلاب والأساتذة وعموم الأفـراد، هـو قسم الكمبيـوتـر الـذي وُظّف لخدمـة الأعمال الطبـاعة الخـاصـة بـالقرآن والحديث. وقد اطّلع الحـاضرون على كيفية الاستفادة من اجهزة الكامبيـوتر في تدوين القـرآن والحـديث، والمعجـم المـوضـوعي للقرآن. وقد حُفِظَت معظـم كلمات القرآن في اجهزة الكامپيـوتر، بحيث يمكن للمختصين ان يطّلعوا علـى الاحاديث المختلفـة للائمـة المعصومين (ع) حـول كلمة ما مـن كلمات القرآن بمجرد انتخاب تلك الكلمة.

بـالاضـافـة الى ذلك، فقـد كان لنظـام الكامپيوتر القدرة الفائقة على البحث عن اي كتـاب فـي ايّ مكتبـة، تختـص بـالقـرآن، وبأسرع وقت ممكن.

وقـد عُـرض (المعجـم المـوضـوعـي للقرآن) (تبيان ٣) وهو أحد الاعمال المنجزة من قبل مـركز الثقـافة والمعـارف القرآنيـة والمرتبط بمكتب الاعـلام الإسلامي في قم، عُرِض أمام أنظار المشاهدين والمهتمين.

وبالمنـاسبة فقـد تمت الاستفـادة من الآيات والسـور القرآنيـة والتي احتـاج اليها المـراجعـون حيـث خُـزِنـت في ذاكـرة الكامپيوتر كل تلك السور والآيات على هيئة (الگرافيك) مع التنقيط ووضع الحركات من قبل مجموعـة الكامپيوتر المسمـاة (تنزيل) و(جهـاز دانشگاهي) و(جـامعة اصفهـان الصناعية).

ومما تجدر اليه الإشارة، انه كانت تُقام على هامش الموض، جلسات في كل يوم من السـاعة الثـالثـة بعـد الظهر حـول القـرآن والحـديث، شـارك فيها عـدد مـن اساتـذة الحوزة والجامعة.

* * *

● إقـامـة الـدورة العـاشـرة للمسابقـات الدولية لحفـظ وقراءة القرآن الكريم

اقيمت فـي طهـران الدورة العـاشـرة للمسـابقات الـدولية لحفـظ وقراءة القـرآن الكريـم. وقد شـارك في هذه الـدورة (٥٥) متسابقاً من (٣٦) قطراً اضافة الى مشاركة حكمين من خـارج ايران. بمعية ستـة حكام مـن ايـران لغـرض التحكيم فـي هـذه المسابقات.

والجديـر بالـذكر أن سمـاحة آيـة الله الخـامنئي قائد الثـورة الاسلاميـة كان قـد حضـر الحفل الختـامي لهـذه الدورة، وقـد ابـدى سماحتـه اعجابـه بهـذه المسابقـة، معرباً عن فرحه وسروره بقوله:

«لقد استطاع المسلمون وببركة القرآن

أن يغيروا مجرى التاريخ بل واضحوا مؤسسين للتاريخ البشري عموماً، فأوجدوا المدنيات والحضارات الكبرى، وساهموا في تقدم العلوم كالفلسفة والاخلاق والعديد من العلوم الانسانية الاخرى. وإذا ما ازداد أُنس وتعلّق المسلمين بالقرآن، فانهم لا محالة سيمتلكون زمام الدنيا بأيديهم.

واضاف سماحته قائلاً: ان ابواب ومجالات القرآن قد فُتحت على مصراعيها امام الشعب الايراني ببركة الثورة الاسلامية، وقد تعرّف شعبنا اليوم على كثير من علوم القرآن التي كانت مغطاةً عنهم، وهذا هو العامل الرئيس الذي استطاع به هذا الشعب أن يتحدى القوى الاستكبارية في العالم.

ويجب ان يصل بنا الحال التي تمكن فهم المعاني القرآنية والتعرّف عليها بمجرد سماع الآيات واستيعاب المواعظ والحكم الآلهية التي هي دستور حياتنا.

ان الدعوة الى الاسلام ليست مسألة بسيطة وعلى المسلمين الحقيقيين أن يعاشروا العلوم القرآنية الحياتية بكل معانيها، وباعتقادي أن مثل هذه المسابقات كفيلة بأن تجعل من المسلمين آذاناً صاغية للحق وداعية للاسلوب الصحيح الذي اختطّه لها الله سبحانه وتعالى».

هذا وقد أُهديت الى الفائزين بالمرتبة الاولى والثانية والثالثة من كل قسم جوائز كبيرة وذلك من قبل سماحته شخصياً بعد الانتهاء من كلمته، وكالآتي:

الفائز الاول، في قسم القراءة والتلاوة «عبد الباسط امام تومارا» من الفلبين حاز على مُصحف شريف و(٤٠) ليرة ذهبية، مع ميدالية ذهبية خاصة بالمسابقة.

الفائز الثاني، السيد «محمد عباسي» من ايران، حاز على مصحف شريف، مع (٣٠) ليرة ذهبية مع ميدالية فضية.

الفائز الثالث، السيد «ياسين السعدي» من الجالية العراقية، فاز بمصحف شريف، و(٢٠) ليرة ذهبية مع ميدالية برونزية.

* * *

الفهرسُ العامّ
للمُجلّد الرابع من «رسالة القرآن»
١٤١٤ هـ
(الأعداد: ١٣-١٦)

اعداد: محمود الشرقي

أ ـ الموضوعات *

ب ـ الكُتّاب *

---

* رُتّبت الموادّ والأسماء حسب حروف الألفباء.

أ ـ المواضيع

الأدب القرآني

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	أحسن القصص	عبدالحسين الجرّاح	١٦	٩٧
٢	جولة مع سيبويه تحت راية القرآن	د. محمد فاضلي	١٥	٩٧
٣	سلام على نوح في العالمين	الشيخ طالب السنجري	١٥	١٠٣

التفسير والمفسّرون

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	التفسير نشأته وتطوره (٧)	الشيخ محمد هادي معرفة	١٣	٤٩
٢	» » » (٨)	» » » »	١٥	٢٥
٣	منهج السيوري في تفسير الأحكام	علي الكعبي	١٦	٤٣
٤	العلوية أمين نصرت: الفقيهة المفسرة	السيد علي أشرف	١٣	٨٥
٥	في رحاب التفسير (١)	د. محمد باقر حجّتي	١٣	٦١
٦	» » » (٢)	» » » »	١٥	٣٣

دراسات عامّة

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	آيات علم الله بين التفسير والكلام	عبدالرزاق حرزالدين	١٦	١٥٩
٢	أضواء حول نظرية الدولة في القرآن	الاستاذ هاشم الموسوي	١٤	٩٥
٣	البحث القرآني ونظرية الاحتمال	السيد محيي الدين المشعل	١٣	١٨٣
٤	تأثيرات الوضع المادي على المجتمع	د. محمد ناصري	١٤	١٩١
٥	الحرية المنشودة على ضوء القرآن	د. محمد فاضلي	١٦	١٢١
٦	الركائز الأربع في بناء المجتمع القرآني	عبدالحسين المؤمن	١٦	١٣١

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
٧	صفات القائد في القرآن	السيد جعفر اميري	١٤	١٥١
٨	الضمان الاجتماعي بين علي(ع) والقرآن	الشيخ محمد علي التسخيري	١٤	١٢٣
٩	العدالة الاجتماعية على ضوء القرآن	د. زهير الأعرجي	١٤	١٣٣
١٠	على طريق ذات الشوكة	الشيخ محمد مهدي الآصفي	١٣	١٤١
١١	علي والقرآن	السيد عبدالامير علي خان	١٢	١٦٣
١٢	القرآن: كتاب الله الخالد	د. مصطفى الرافعي	١٦	١٠٣
١٣	القرآن: وثيقة تاريخية	الاستاذ عزالدين سليم	١٣	١٩٣
١٤	القرآن ومنهج التفكير	د. عبدالجبار شرارة	١٣	١٥٧
١٥	المجتمع القرآني(١): مقوماته، خصائصه	الاستاذ حسن السعيد	١٤	٥٥
١٦	» » (٢): خصائصه، معالمه	» » »	١٥	١٤٧
١٧	محاكمة سريعة لأخطاء في ترجمة القرآن: آربري وبيكثال نموذجاً	عباس أبوسعيدي	١٦	١٤٣
١٨	المسؤوليات الفردية والاجتماعية المتقابلة في القرآن الكريم	الشيخ جعفر الهادي	١٦	١٣١
١٩	مع أهل البيت في القرآن	الشيخ عفيف النابلسي	١٦	١٠٩
٢٠	نظرية القرآن في تقنين المجتمع	د. عبدالجبار شرارة	١٦	٧٣

السنن الاجتماعية

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	الأمم الغابرة عبرة للأمم الحاضرة	السيد مهدي شمس الدين	١٤	١٧٧
٢	الانحراف الاجتماعي ومعالجته على ضوء النظرية القرآنيّة	د. زهير الأعرجي	١٥	٧٧
٣	دور التدبير الالهي في حركة المجتمع والتاريخ: قراءة قرآنية	الشيخ محمد مهدي الآصفي	١٣	١٠٩
٤	علل تكامل المجتمع وانحطاطه	علي نظري منفرد	١٤	١٦٩

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
٥	نظام العقوبات: دراسة مقارنة بين النظرية القرآنية والنظرية الغربية	د. زهير الاعرجي	١٦	٨٩

علوم القرآن

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	آية الليل: هل هي منسوخة ؟	السيد أحمد ميرعمادي	١٦	٢٥
٢	اعجاز القرآن والاطار البياني	د. رشيد بلحبيب	١٦	١١
٣	علوم قرآن: رأي في المنهج والتجديد	السيد محيي الدين المشعل	١٦	٢٩
٤	قصة آية: المخلفون والعزلة الخانقة	السيد مالك الموسوي	١٣	٤١
٥	= = : المعركة الاصعب	» » »	١٦	٣٣
٦	= = : المودّة الخاطئة	» » »	١٥	١١
٧	المكي والمدني: الضوابط والمعطيات	السيد سلام زين العابدين	١٣	١١

فقه القرآن

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	في الحيض ووجوب اعتزال النساء	السيد حسين الطباطبايي اليزدي	١٦	٧٧
٢	في الصيام وفروضه	» » »	١٥	٧٣
٣	في نكاح المسلم بغير المسلمة والعكس	» » »	١٣	١٢٥

كتاب العدد

م	الموضوع	عرض وتقديم	العدد	الصفحة
١	آخر محاولات الاستشراق لتشويه القرآن الكريم (محاولة جاك بيرك)	جلال الانصاري	١٦	١٦٣

كلمة الرسالة

مفاهيم قرآنية

منتدى الرسالة

ملفات خاصة

أ: ملف رحيل آية الله العظمى السيّد الكلپايكاني «قدّس سرّه»:

ب: ملف القرآن... والمجتمع

ب ـ الكتّاب

تنويه واستدراك

وردتنا من سماحة الشيخ علي كرمي جهرمي بعض الاستدراكات، حول مقاله المعنون: «بقيّة السلف» المنشور في العدد (١٤) من رسالة القرآن... وهي:

١ـ جاء في ص:٣٠، السطر الثاني «وقد نقل السيد المرجع الفقيد: إنّي كنت معه في واحدة من أسفاره...» وعلى مايبدو أن المرجع الفقيد(ره) لم يكن برفقة السيّد والده في تلك الحادثة.

٢ـ ص:٣٥ سقط سهواً موضوع آثار الراحل الفقيد(قدّس سرّه).

٣ـ جاء في ص:٣٦، السطر الثاني عشر: «وعلى ماورد في بعض كتب التراجم كان له ثلاثة دروس لتدريس الاصول وتدريسان في الفقه» والصحيح «كان له ثلاثة دروس: درس في الاصول وتدريسان في الفقه».

٤ـ ورد في ص:٤٠، السطران قبل الأخير: «وجدير بالذكر أن سيدنا المرجع(رضوان الله عليه) كان يقيم الجماعة بنفسه في هذا المسجد خصوصاً في شهر رمضان المبارك...» والاصح: «... كان يقيم الجماعة بنفسه في خصوص شهر رمضان المبارك...».